الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر ــ باتنة

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

قسم التاريخ وعلوم الآثار

عنوان البحث :

علاقة فقهاء السنة بالدولة العباسية في عصرها الأول

132 هــ ــ 232هــ / 750م ــ 847م

مشروع مذكرة بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب :

عبد الحميد العابد

إشراف الدكتور :

غازي جاسم الشمري

السنة الجامعية 1429-1430/ 2008-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي
الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

سورة الأنفال ، الآية 122

الإهـــــــــــداء

إلى روح والدي الطيبة ، أرجو أن يكون سعيدا في محل إقامته الدائمة

إلى الوالدة الكريمة

إلى كل من ساعدني و شد أزري

إلى كل من يخوض معركته في الحياة بجسارة

شكــر و امتنــان

شكر و امتنان و تقدير أسوقه للمشرف الدكتور غازي جاسم الشمري نظير تبنيه للعمل و حماسته له و اعتراف بجميل مساندته و دقة قراءته للعمل و متابعته له .

خطة البحث

المقدمة	
الفصل التمهيدي	
العباسيون من الدعوة الى الدولة	1
من الدعوة الى الثورة	2
من الثورة الى الدولة	3
المعارضة السياسية للحكم العباسي في دوره الأول	20
الوجه الحضاري الدنيوي للحكم العباسي	26
أهل السنة و الجماعة : النشأة و التكوين	29
الفقهاء	40
الفصل الأول : الطاعة اعتقادا و المفاصلة سلوكا	
ـ توطئة	48
ـ أبو حنيفة	54
فقهه السياسي	59
ـ الأوزاعي	66
علاقته الفعلية بالدولة	70
ـ أحمد بن حنبل	75
فقهه السياسي	78
علاقته الفعلية بالدولة	79
الفصل الثاني : الطاعة اعتقادا و المجاملة سلوكا	
ـ توطئة	91
ـ مالك بن أنس	97
علاقته الفعلية بالدولة	99
ـ الليث بن سعد	105
علاقته بالدولة	110
ـ سفيان بن عيينة	117
علاقته بالدولة	120
ـ الشافعي	125
علاقته بالدولة	
الفصل الثالث : الطاعة اعتقادا و المخاللة سلوكا	
ـ توطئة	130
ـ شريك بن عبد الله النخعي	138
علاقته بالدولة	141

	148
ـ أبو يوسف القاضي	156
ـ أبو عبيد الله القاسم بن سلام	160
علاقته بالدولة	
الخاتمة	
الفهارس	
المصادر و المراجع	

مقدمة

لقد اتخذ الكتاب والباحثون من عصر النبي صلى الله عليه و سلم والخلفاء الراشدين من بعده نموذجاً في الحكم يدللون به على نظرية الإسلام في الدولة ، ومرجعاً يحتكمون إليه عند الوقوف على ما جرى في التاريخ الإسلامي القديم منه والحديث . و ذلك يعود بالأساس إلى الصورة التي كانت عليها العلاقة بين السلطتين السياسية والدينية في تلك الحقبة من تاريخ الدولة الإسلامية . فمفهوم الخلافة بمعناه الإسلامي الصحيح لم يتحقق كاملا ً، بالنسبة إلى هؤلاء إلا في تلك الفترة التي لم تدم إلا مدة أربعين عاماً .

إنّ مفهوم الخلافة أو الإمامة عند المسلمين يقوم عموماً على أن مهمة الخليفة أو الإمام إنما هي السهر على تطبيق أحكام الشريعة ، وقد صدر هذا المفهوم من المبدأ الإسلامي الذي يرى أن الله لم يخلق الإنسان في الحياة الدنيا إلا ليعبده ، وليعمل الخير تحضيرا للحياة الآخرة . والوجود الدنيوي ليس إلا وجودا مؤقتا ؛ وذلك بحسب ما قدمه المسلم من أفعال خيرة أو شريرة في هذه الحياة. فالإسلام لا يفصل بين الحياتين ، وهو بذلك لا يفرق بين ما ينظم سلوك الإنسان فيهما معا ً. فالدين ليس منفصلاً عن السياسة كما أن السياسة ليست منفصلة عن الأخلاق . ولهذا فإن وجود الخليفة ضروري لحماية الفرد المسلم و الجماعة المسلمة من الانحراف عن النهج القويم وضمان تطبيقها لقوانين الشريعة التي ما أنزلها الله إلا لتضمن له سعادة الدارين ، ولا سيما أن الله أعلم بالخير لعباده منهم لأنفسهم . ولكي يتمكن الخليفة من أداء مهمته على أتم وجه لا بد له من امتلاك سلطتين : الأولى علمية ؛ بحيث تجعله قادراً على فهم الشريعة وتفسير قوانينها والمشاركة في وضع تلك القوانين إذا اقتضى الأمر، والثانية عملية تمكنه من تطبيقها والدفاع عنها في الواقع .

لم ينص النبي صلى الله عليه و سلم على من يخلفه بعد وفاته . هذا ما يذهب إليه أهل السنة الذين اعتقدوا نتيجة لذلك أنّ الخلافة إنما تقوم على الشورى و الاختيار الحر . على حين أن الشيعة مثلا قالوا إنّ النبي قد أوصى قبل أن يُتوفى للإمام علي بخلافته ؛ فهو إذن وريثه بوحي من السماء . ومن هنا ينبع الخلاف السياسي بين مفهومي أهل السنة والشيعة للخلافة . فمنصب الخلافة في نظر أهل السنة إنما هو نيابة عن الرسول في الجانب السياسي و الاداري وليس له من السلطة الدينية التشريعية ما يفوق سلطة أي مسلم مجتهد في

أحكام الدين . أما الإمام عند الشيعة فهو وريث النبي ، وهو معصوم ، وحكمه بذلك حكم ديني لا مجال للطعن فيه من قبل غيره .

ويؤكد ابن خلدون في مقدمته أنّ الخلافة لم توجد على الحقيقة إلا في زمن قصير جداً فهو بعد أن يستعرض الظروف السياسية منذ عهد النبي صلى الله عليه و سلم إلى عصره يقول: « ... فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك ، وأن الأمر كان في أوله خلافة ، ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين ، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة ...» ، ثم يضيف : « ... فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك، وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ، ثم انقلبت عصبية وسيفاً ، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس ، إلى الرشيد وبعض ولده ...» . و يستمر قائلا :« ... ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكاً بحتاً ، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ . وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ، ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس ، واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصبية العرب . والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ، ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم ، وبقي الأمر مُلْكاً بحتاً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق ، يدينون بطاعة الخليفة تبركاً ، والمُلْكُ بجميع ألقابه ومناحيه لهم ، وليس للخليفة منه شيء ... »[1] .

عندما أسس النبي صلى الله عليه وسلم دولة المدينة ؛ فإنه بذلك أقام الدعائم الأولى للدولة الإسلامية التي ستصبح فيما بعد مثلاً أعلى للعلاقة بين السلطتين الدينية والسياسية في الإسلام . لقد كان النبي في تلك الدولة يمثّل هاتين السلطتين في وقت واحد . فقد كان المشرع نظراً لأنه كان محط الوحي النازل من الله عز وجل عن طريق جبريل ، وهو الذي كان يفسر هذا الوحي للمسلمين عن طريق أقواله وأفعاله مما عرف فيما بعد باسم السنة النبوية الشريفة. وقد كانت هذه السلطة الدينية تجد عند المسلمين استجابة مطلقة تعتمد على إيمانهم بنبوة الرسول . وهو إيمان جعلهم يخضعون لما تصدره تلك السلطة من تعاليم وأوامر ونواه، خضوعاً يقوم على الرضا والقناعة وليس على الإكراه والقسر. كما كانوا

---

[1] ابن خلدون : **المقدمة** ، ط 1 ، دار الفكر ، بيروت ، سنة 2004 ، ص ص : 221 ـ 222

يلتزمون بتنفيذ تلك الأوامر والنواهي في حياتهم اليومية. فالعلاقة بين المسلمين والنبي صلى الله عليه وسلم ممثل تلك السلطة كانت علاقة انتماء عفوي ، وخضوع إرادي إضافة إلى ذلك فقد كان النبي يمثل السلطة السياسية أيضاً ؛ بما كان يقوم به من سهر على تطبيق مقتضيات السلطة الدينية و ما تصدره من قوانين تشريعية كما يحرص على حمايتها وحماية الجماعة الإسلامية ضد الأخطار الخارجية المتمثلة بالمشركين ، والداخلية المتمثلة بالمنافقين .

وقد استطاع الخلفاء الراشدون الجمع بين السلطتين ليحققوا مفهوم الخلافة بمعناه الكامل كما يراه أهل السنة . فقد كان هؤلاء يملكون السلطة الدينية ولكن ليس بالمفهوم الشيعي بمعنى قدرتهم على التشريع كما كان النبي يفعل ، و إنما كانت سلطتهم تلك تنحصر في تفسير قواعد الشرع الذي نص عليها القرآن والسنة النبوية ، وفي توضيح بعض جوانبها التطبيقية على حوادث جَدَّت في عصرهم ، لم يعرفها عصر النبي . ولذا فإن المسلمين يعتبرون أقوال الخلفاء الراشدين وأفعالهم في هذا المجال ، مصدراً من مصادر التشريع يأتي بعد النص القرآني والسنة النبوية . أما الشيعة فقد كانوا يشككون في صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وذلك لأنهم اغتصبوا حق الخلافة من الإمام علي الذي هو أحق بها بمقتضى النص و التعيين حيث يؤكدون على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نبه إلى حق الإمام في خلافته في أكثر من مناسبة وأشهرها خطبته في غدير خم .

وعلى الرغم من أن الإحداث التاريخية حسمت أمر الخلافة لمصلحة الأمويين على حساب الإمام عليٍّ و آل البيت ، و جاءت بهم إلى كرسي الخلافة بعد استشهاده ، فإنهم لم يستطيعوا الحصول على الشرعية الدينية لنظام حكمهم الوراثي ، ومع ذلك فقد حرصوا على حمل لقب خليفة . وقد نوزعوا السلطتين : الدينية والسياسية معاً . وكان كل خصومهم السياسيين يعتبرونهم مغتصبين للخلافة ، لا حق لهم فيها. وظلت الثورات ضدهم مستمرة في العراق والحجاز طوال فترة حكمهم لم تهدأ ؛ سواء من الشيعة أو من غيرهم . وقد سعوا من جهتهم إلى فرض سلطتهم السياسية مستغلين في سبيل ذلك الدين والقوة معاً . فالأمويون لم يكونوا خلفاء بالمفهوم السني ولا بالمفهوم الشيعي للإمامة وإنما كان نظام حكمهم وراثياً يقوم على امتلاك السلطة السياسية فحسب . أما السلطة الدينية فقد كانت في عصرهم معطلة بسبب من التنازع عليها . فهي لم تخلص لهم نهائيا ، كما أنها لم تكن بيد أحد من خصومهم السياسيين كالشيعة و الخوارج و القدرية وغيرهم بشكل كامل ، فقد كان هؤلاء الخصوم

أنفسهم يتنازعونها فيما بينهم . ولم تكن فئة الفقهاء والمحدثين وعلماء الدين قد تكونت بعد كفئة مستقلة ، وهي الفئة التي ستضطلع فيما بعد بتمثيل السلطة الدينية – الثقافية. ومع ذلك فقد حرص الأمويون على الاستفادة من أولئك الذين شكلوا أوائل ممثلي تلك الفئة ، من الصحابة والتابعين ؛ في إطار محاولاتهم للتمكين لوجودهم السياسي . وأبرز تلك المحاولات هو تأييدهم للفئة التي كانت تعتنق أفكارا وصفت بالجبرية . والسبب في عدم وجود تلك الفئة وجوداً متميزاً يعود إلى طبيعة العصر نفسه ذلك أن الحياة الاجتماعية في العراق والشام في العصر الأموي لا تزال بسيطة ولا تختلف كثيراً في معظم نواحيها عما كانت عليه في صدر الإسلام . و لم تكن نتائج الامتزاج الثقافي الذي حصل بين العرب و الموالي اللذين حملوا تراث الأمم المفتوحة قد آتى أكله بعد . وهذا ما جعل القضايا الجديدة التي عرفها العصر قليلة جداً بالمقارنة مع العصور اللاحقة . ولم تتأسس بعد العلوم الدينية وما يخدمها من العلوم اللغوية و تتمايز و تتعقد كما حصل بعد ذلك ، وهذا ما منع من ظهور الفقه علماً متميزاً من سواه من العلوم . وقد ساعد على هذا أن المسلمين من العرب في ذلك العصر كانوا في معظمهم من جيل الصحابة وهم على معرفة بأمور دينهم وهو ما لم يتوفر لأحفادهم الذين كان عليهم الاستعانة برجال اختصوا في تفسير القرآن الكريم وفي إصدار فتاوى فقهية تسعى إلى إيجاد حلول لقضايا جديدة في ضوء الشريعة الإسلامية.

وعندما أفلح العباسيون في بلوغ كرسي الخلافة قاموا باستثمار الجهد الذي بذله الأمويون في تأسيس النظام السياسي الوراثي . وقد تمكنوا من خلال نظام دعاياتهم المحكم أن يدخلوا في روع المسلمين ؛ ولا سيما الشيعة منهم أنهم جاؤوا ليعيدوا الحق إلى أهله و يستردون الخلافة من مغتصبيها الأمويين إلى آل البيت . وقد ساعدهم هذا في حركتهم الانقلابية و تقويضهم للحكم الأموي ، ودعمهم في إضفاء الشرعية على حكمهم ، فبدوا وكأنهم يملكون السلطتين الدينية والسياسية . وقد اجتهد العباسيون الأوائل في محاولات الحصول على اعتراف الناس لهم بامتلاكهم السلطتين . فقد كان الخلفاء يسعون إلى إبراز مكانتهم الدينية باعتبارهم خلفاء النبي بما تحمله هذه الكلمة من دلالات دينية ودنيوية . إلا أنهم كالأمويين لم يفلحوا في امتلاك تلك السلطة كما كانت عند الخلفاء الراشدين . لأنهم أيضا كالأمويين لم يستطيعوا أن يكونوا خلفاء بالمعنى الذي يتضمنه المفهوم السني للخلافة ولا بالمفهوم الشيعي للإمامة . فلم يكن حصولهم على منصب الخلافة شورى و انتخاباً حراً كما يشترط أهل السنة ، كما

أن النظام الوراثي الذي استنسخوه عن الأمويين لم يكن ليتوافق مع التسلسل الوراثي الذي تدعو إليه النظرية الشيعية .

إذن فالخلافة وظيفة دينية تقتضيها العقيدة ، ويؤصلها التشريع ، وتستمد وجودها من الدين الذي حذر على لسان نبيه المسلمين أن يبيتوا ليلة دون بيعة لخليفة . ولكن حدث أن انشغل الأمويون بالإدارة السياسية ، وتركوا أمور العقيدة والفقه إلى العلماء والفقهاء والقضاة وعمل العباسيون على ترسيخ الربط بين الجوانب الدينية والدنيوية وإضفاء القداسة على مفهوم الخلافة حرصاً على استمرار كيانهم الذي يستمد وجوده من خلال الدعم الديني الذي كانوا يقدمونه للفقهاء والقضاة . و بدا حرصهم في ممارسات كثيرة ؛ حيث كان أبو جعفر المنصور يقرب العلماء ويصلهم ، والمهدي يشتد في مطاردة الزنادقة وينشئ إدارة خاصة لهذه المهمة و قام الرشيد بإنشاء منصب قاضي القضاة و يتخذ من أبي يوسف القاضي مساعدا ، ويصدر المأمون قرارات بخصوص فرض عقيدة عرفت " بخلق القرآن "، ويقضي شطراً من خلافته في مناقشة العلماء ومتابعة من أنكرها ، وهكذا مما لا نجد له مثيلاً في العهد الأموي . وقد ساعد هذا كله على الحفاظ على قداسة مؤسسة الخلافة . وهو ما مكّن الخلفاء العباسيين من الاحتفاظ بهذا المنصب لَمَّا ضعفت سلطتهم السياسية وتقلص نفوذهم المادي . كما ساعد هذا أيضا على الاحتفاظ بصورة الخلافة الدينية في وجدان الناس ؛ على الرغم من استغلال السلاطين والملوك لتلك الصورة ليحكموا من ورائها .

إن تناول علاقة الفقهاء بالدولة في سياق التاريخ الإسلامي في أي عصر من عصره هو وجه من أهم وجوه دراسة علاقة الديني بالسياسي في هذا التاريخ ذاته . بما كون الفقهاء فئة مهمتها القول بلسان الدين في الأمور الفردية و الجماعية التي تنظم حياة الأمة المسلمة و بما الدولة كجهاز إداري و سياسي وظيفته تطبيق تعاليم هذا الدين في هذه الأمة . و لما كان الأمر كذلك فقد ارتأيت دراسة هذا التمفصل بين الديني و السياسي في هذا التاريخ من خلال فقهاء أهل السنة و الجماعة و الدولة العباسية في صدرها الأول ومراقبة طبيعة العلاقة بينهما ، وذلك من خلال محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية :

ـ ما هو مضمون النظرية السنية في مسألة الخلافة ؟

ـ إلى أي حد تمكنت الدولة العباسية من الوفاء بالشروط التي وضعها أهل السنة لتحقق شرعية أي حكم .

ــ ما هي طبيعة العلاقة بين الفقهاء السنة و الدولة العباسية .

وقد تعمدت حصر حركة البحث في الصدر الأول للدولة العباسية ، لأنه عصر التأسيس والتمكين لهذه الدولة ؛ حيث إمكانية تتبع ردود فعل الفقهاء تجاهها في لحظة نشوئها ، وهو عصر قوتها أيضا ؛ الذي شهد حكم أهم رجالها و أقدرهم ، ثم هو العصر الذي شهد أهم عملية تدوين للتراث الإسلامي في جميع علومه و أهم حركة للترجمة و التعرف على ميراث الأمم الأخرى ، وكان العصر الذي تمت فيه بلورة جميع التيارات التي عرفها تاريخ الإسلام الثقافي و السياسي و العقائدي .

وقد اتجهت لهذا النوع من البحوث و الانشغالات التاريخية ؛ تلبية لرغبة شخصية في كشف جذور التمفصل الديني و السياسي الذي طبع التاريخ الإسلامي ، ثم لقناعتي بأننا لانزال نعيش آثار الماضي رغم القرون المتطاولة الني فصلتنا عنه ، لأنه العصر الذي صنع مخيالنا الثقافي و ما يعشش في هذا المخيال ، و لا تزال كثير من الحركات السياسية و الثقافية و الاجتماعية تستمد برامجها و مطالبها منه ، و لا نزال في سعينا لنهضة حديثة مضطرين لمساءلة هذا التراث و إعادة النظر فيه بما يستجد في عصرنا . ثم إن هذا النوع من البحوث يخدم التاريخ الإسلامي كتخصص علمي لأنه يكشف عن مساحات لا تزال تحتاج لكثير من الجهد و التنقير حتى تكون رؤيتنا لتاريخنا أكثر علمية و موضوعية .

هذا و قد حاولت في ولوج الدروب الوعرة لهذا البحث التمكن من استثمار **المنهج التاريخي** الذي يحرص على سلامة و موضوعية بناء الأحداث التاريخية و استعادتها من جديد من خلال ركام الأخبار و الروايات ، و **المنهج المقارن** في المقارنة بين النماذج الشخصية و بين الأفعال و ردود الأفعال كما حدثت بين الفقهاء من أهل السنة و الدولة العباسية ؛ بين حكم خليفة و آخر ، كما لم أفوت نجاعة استخدام المنهج **الفيليلوجي** في ضبط بعض المفردات و تحقيق بعض العبارات و الصيغ اللغوية التي كانت تصدر من فقيه و آخر . و تم كل ذلك بواسطة الاستعانة بالعلوم الدينية التي لا مناص من أن يستند إليها البحث و هو يراقب مسلكية علماء دين بالأساس .

لقد حرصت على الاعتماد كليا على المصادر و مطالعة النصوص الأصلية في مضانها و العودة إلى المراجع استئناسا ، أو لأجل فهم ما يكون غامض في النصوص

،وذلك حرصا على سلامة الرؤيا و أصالتها و ابتعادا عن التوظيفات الإيديولوجية و حرصا على البقاء في أجواء العصر الإسلامي الوسيط ، مما يحقق اقترابا أفضل من الموضوع .

إننا لا نستطيع أن ندعي القدرة على إعادة بناء الماضي كما حدث بعد أن فصلتنا عنه كل تلك القرون الحافلة بالأحداث ، و ما حدث نحاول سبر حقيقته بواسطة الآثار و الأخبار المروية و المنقولة من طرف بشر ، و هي بذلك غير حيادية ، لأنها تعبر عن رؤى و أحكام و مصالح و انتماءات أصحابها من الرواة و الإخباريين ، و قبل ذلك و بعده تظل محكومة بالسقف المعرفي للعصر الوسيط و بالإمكانيات المحدودة للفحص المنهجي .

و قد جاءت المصادر التي اعتمدتها متنوعة و مختلفة التخصصات ، و ذلك راجع لخصوصية الموضوع ؛ حيث تتقاطع فيه علوم مختلفة ، و تشترك على أرضيته اختصاصات متعددة ، و هي كالتالي :

أمهات المصادر التاريخية :

كتاريخ الأمم و الملوك للطبري ، و **الكامل لابن الأثير** و **العبر لابن خلدون** و **المروج للمسعودي و التاريخ لليعقوبي** و **التاريخ لخليفة بن الخياط و الأخبار الطوال للدينوري و الشذرات للحنبلي** ، و هي تختلف من حيث وفرة التفاصيل و العمق ، مع ملاحظة أن كل من ابن خلدون و ابن الأثير و ابن كثير في البداية و النهاية يستعيدون في الغالب روايات الطبري و لا نكاد نجد تفاصيل تخرج عما ذكره ، خاصة في الفترة التي أرخ لها ، و التي يتحرك هذا البحث فيها . لكن كتاب الطبري لم يخدم هذا البحث كثيرا لأنه لم يعتن فيه بالتأريخ للشخصيات و للأفراد ، و ما يذكره أحيانا يأتي مختصرا ، و في هذه الناحية يأتي كتاب شذرات الذهب أكثر نفعا منه ، في حين يتطرق ابن الأثير لوفيات الأعلام من دون إيراد تفاصيل مهمة . ويأتي مروج المسعودي مختلفا كليا في طبيعة الموضوعات التي يهتم بها و التي نستطيع وصفها بالطابع الحضاري أو الثقافي الأنثروبولوجي .

و قد اعتمدت اعتمادا كبيرا على كتاب تاريخ **بغداد للخطيب البغدادي** ، و هو خلاف ما قد يوحي عنوانه ؛ فهو موسوعة تناولت جل ما يخص بغداد و غير بغداد ؛ حيث توسع فيه الخطيب في أثناء عرض تراجمه بما يمكن أن نصفه بأنه تاريخ للدولة الإسلامية بعامة ، و هو سفر يحتاج لجملة من الأعمال حتى نتمكن من إحسان استغلاله ، إذ في ثنايا التراجم تقبع تفاصيل كثيرة و مثيرة تحتاج إعادة ترتيب و تبويب.

كتب الطبقات و التراجم و السير :

و هذه نصنفها إلى كتب عامة ؛ بمعنى أنها تهتم بالتأريخ للأعلام المسلمين من مختلف المشارب و المذاهب و المهن و الوظائف . و أهمها كتاب **سير أعلام النبلاء للذهبي** ؛ الحافل بالتفاصيل رغم ما يؤخذ عليه إغراقه في تحسس المسائل الاعتقادية للمترجم لهم و الدخول في معارك و مناقشات مكانها علوم العقيدة و التوحيد ، و انشغاله بتصنيف صاحب الترجمة من حيث اقترابه و ابتعاده عن السنة كما يعتنقها الذهبي . حيث أن تراجمه تطول و تقصر تبعا لإعجابه أو نفوره من صاحب الترجمة . و قد استفدت منه الأخبار والنصوص التي توضح عقيدة من ترجمت لهم .

ثم يأتي كتاب : **وفيات الأعلام لابن خلكان** في الدرجة الثانية من حيث الأهمية ، و الذي يمتاز ، رغم إيجاز تراجمه ، بحاسة الحياد و الموسوعية لدى مؤلفه ، بحيث يبدو أكثر موضوعية ، كما نلحظ غياب الهاجس العقيدي التصنيفي و الصراع المذهبي فيما كتب .

و ثمة الكتب المذهبية المتخصصة في التأريخ لأعلام مذهب بعينه ، و التي كتب بعضها في حمأة الصراع المذهبي ، و أهمها : **طبقات الشافعية للسبكي** و هو كتاب كبير حافل بالتفاصيل فيما يخص أعلام المذهب الشافعي ، و كتاب **الجواهر المضيئة للقرشي** فيما يخص أعلام الحنفية ، و كتاب **طبقات الحنابلة لأبي يعلى** و هو يؤرخ لأعلام المذهب الحنبلي و **ترتيب المدارك للقاضي عياض و الديباج المذهب لابن فرحون** و هما يؤرخان لأعلام المذهب المالكي

و كل هذه الكتب صنفت بعد الاستقرار الجغرافي للمذاهب و لا تخلو من مبالغات ؛ خاصة عند الترجمة للمؤسس ؛ حيث كثيرا ما يجري الاستعانة بقصص و حكايات أقرب للأساطير ، و لا تخلو من وضع أحاديث ظاهرة الصنع ، تجعل من نبوغ الإمام المؤسس نبوءة تكلم عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم . أما كتاب **طبقات الفقهاء للشيرازي** فهو كتاب جامع ، أرخ فيه لجميع المذاهب لولا طابع الاختصار الشديد ؛ حيث استفدت منه في ضبط تواريخ الميلاد والوفاة للمترجم لهم .

و ثمة مصادر أخرى متخصصة في الترجمة للزهاد و العباد و المتصوفة ، و يأتي في مقدمتها كتاب **حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني** ؛ و الذي رغم طابعه المناقبي العامر بكثير من القصص الأسطورية إلا أنه حافل بتفاصيل متنوعة للمترجم لهم و جلهم من الفريق

المعارض للاقتراب من فلك الدولة تدينا و ورعا . و كتاب **صفة الصفة لابن الجوزي** صنفه مؤلفه على نهج حلية الأولياء ، بل يذكر أنه قصد فيه إلى إعادة ترتيبه و تنظيمه و تهذيبه ، فهو تابع له .

كذلك جرى الاعتماد على كتب الطبقات المتخصصة في التأريخ للحفاظ من الرواة والمحدثين ويؤخذ عليها الطابع المتخصص في الجرح و التعديل و النظر في حال الرواة من حيث الأمانة والحفظ . إضافة إلى الكتب التي تؤرخ لشخص واحد و هي كتب المناقب **كمناقب أحمد لابن الجوزي و مناقب أبي حنيفة للكردي و مناقب الشافعي للبيهقي و ترتيب المدارك للقاضي عياض** ، و هي كلها عامرة بالأخبار و التفاصيل التي لا تخلو من تناقض و تضارب و قلة تحقيق و كأن مهمة مؤلفيها تنحصر في جمع أكبر عدد من الروايات فيما يخص صاحب الترجمة و إضفاء الطابع التقديسي له. وهذا دفعني للقيام بمجهود تحقيقي لانتقاء الروايات الأقرب للمنطق و التاريخ و روح العصر و المنحنى الشخصي العام للمترجم له ، إضافة إلى المصادر الجغرافية **كمعجم البلدان لياقوت الحموي وأثار البلاد للقزويني** . و لا يخلو كتاب ياقوت الحموي من فوائد تاريخية و تفاصيل لا توجد في كتب التاريخ العام .

كما اعتمدت على بعض الكتب المتخصصة في بحث العقائد و الفرق الكلامية **كالفصل لابن حزم و الملل و النحل للشهرستاني و الفرق بين الفرق للبغدادي** ، و هي كلها تدور حول إثبات صوابية عقيدة أهل السنة والجماعة و ذلك من خلال منهجية علم الكلام و المناظرة ، كذا نوعية أخرى من المصنفات العقيدية كعقائد بعض الأيمة صنفوها بطلب من تلامذتهم أو غيرهم مثل : **العقيدة الطحاوية لأبي جعفر أحمد الطحاوي و قواعد العقائد للغزالي و العقيدة النسفية للنسفي** ، و نوع آخر من العقائد أهمها ما دونه تلامذة أحمد بن حنبل في تفصيل عقيدته باعتبارها هي العقيدة المعتمدة من طرف لفيف كبير من العلماء ؛ وهي تعتمد عرض العقائد استنادا للآثار و الأخبار و الأحاديث و الروايات المنقولة عن سلف الأمة ؛ بعيدا عن طريقة علماء الكلام التي تعتمد المقدمات العقلية ، إذ أن موقف أحمد بن حنبل من هذه الطريقة موقف حاسم و واضح في تبديع أصحابها . و من أهمها **كتاب السنة لعبد الله بن أحمد و السنة لأبي بكر الخلال** تلميذه ، كذا جرى الاعتماد على كتب

الأخلاق و التزكية **كالزهد للبيهقي و شعب الإيمان له و كتاب الورع لأبي بكر الخلال** ، وهي لا تخلو من تفاصيل و معلومات قيمة .

و لقد تعمدت الاستئناس بالمجاميع الأدبية رغم نقص الثقة في قيمتها التاريخية ، و صحة ما تورده ، لأنها في الغالب حصرها مؤلفوها في وظيفة الترويح عن النفس أو لغرض التربية دون حرص على التحقيق و الدقة ؛ مثل **أدب الدين و الدنيا للماوردي و كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه و حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطي و نثر الدر للآبي** و غيرها .

و قد ارتأيت من أجل السيطرة على الموضوع و الإلمام به تقسيم الخطة إلى أربعة فصول حيث و ضعت

<u>الفصل التمهيدي</u> : و قد جرى فيه التطرق للوضع التاريخي للدولة العباسية في طورها الأول كما اصطلح عليه المؤرخون و هو عصر قوتها وشبابها و يبدأ من عصر السفاح و المنصور حتى عصر المتوكل الذي بمقتله أخذ منحنى الدولة في الهبوط ، و أهمية هذا العرض تأتي من ضرورته كقاعدة تاريخية يتحرك في إطارها موضوع البحث ، و حيث أن بحث العلاقة بين فقهاء السنة و الدولة العباسية لا يمكن أن يتحقق دون عرض الظروف و الأحوال التاريخية التي وصل من خلالها العباسيون لكرسي الخلافة ، و كيفية تقدير الفقهاء و حكمهم عليها وفقا للمبادئ الشرعية ، و قد تعرضت فيه لمختلف اتجاهات المعارضة ؛ خاصة المسلحة ؛ سواء منها العربية أو الأعجمية لتبيان حدود الشرعية التي حاول العباسيون امتلاكها لحكمهم.

ثم عرجت على محاولة للتأصيل التاريخي لاتجاه أهل السنة و الجماعة ، منذ أحداث الفتنة بين علي و معاوية لأنها هي الأساس الذي انبثقت منه مختلف الاتجاهات الإسلامية التي اتخذت مسمى الفرق الكلامية كالشيعة و القدرية و المعتزلة و الخوارج و... و بيان أثر السياسة في نشأة هذه الفرق و التي تلفعت اللبوس الديني ، حيث كان العامل السياسي يجد ذاته في التعبير من خلال الصيغ الدينية ، وهذه إحدى بديهيات التاريخ الإسلامي . و قد تبين لي من خلال تحليل المضمون العقيدي لأهل السنة أن جميع الأطراف داخل هذا الاتجاه ؛ سواء أهل الرأي أو أهل الحديث ؛ تجتمع على الولاء للخليفة ؛ سواء وصل لكرسي

الخلافة من طريق الشورى أو طريق التغلب و القهر و قوة السلاح ، و تحرم أي صيغة للخروج أو التمرد عليه .

ثم عملت على التأصيل لفئة الفقهاء تاريخيا من خلال استعراض دور الأمصار في تكييف الفقه الإسلامي تبعا لخصوصية كل مصر و طبيعته و الظروف التي كانت تحكمه ، الأمر الذي أدى إلى إفراز وجهين للفقه ؛ وجه نقلي يعتمد الآثار و النصوص ، و وجه آخر يعتمد النظر العقلي ، و هو ما اصطلح عليه باتجاه أهل الرأي ، وقد دخل كلاهما في صراعات و مناوشات لا تخلو من اتهامات قاسية .

الفصل الأول: و قد عنونته **بالطاعة اعتقادا و المفاصلة سلوكا** ، و ذلك بناء على ما سبق ذكره من الإجماع الحاصل لدى أهل السنة في التحذير من الخروج عن الحاكم ، و من خلال استقراء النصوص و المواقف اتضح لي أن فريقا من الفقهاء رغم تمسكهم بشرعية الحكم العباسي القائم ألا أنهم سلكوا سبيل مقاطعته و هجره و التحذير من الاقتراب من أجواء السلطة و حاولت الكشف عن أسباب هذا الموقف الذي يبدو متناقضا . و تم ذلك من خلال :

توطئة : أردت فيها تأصيل معنى المجاملة تاريخيا وعرض مختلف الشخصيات التي اتخذت هذا النهج ، و استعرضت ما أمكن نماذج و أحداث توضح ملابسات هذا الموقف . و لما لم يكن من المستطاع تفصيل جميع ظروف هذه العلاقة فقد ارتأيت ذكر نماذج من هذه الشخصيات ، و تم الاختيار بناء على أهمية الشخصية العلمية و التاريخية ، و تمثيل جل الأمصار المهمة آنذاك كالبصرة و الكوفة والشام و بغداد ، كذا تعمدت أن تكون الشخصيات المختارة تغطي جميع أطياف أهل السنة كأهل الحديث و أهل الرأي ، و وقع اختياري على الأعلام الذين تمكنوا من إنشاء مدارس فقهية و عقدية داخل اتجاه أهل السنة و الجماعة ، و بذلك فقد اخترت كل من أبي حنيفة و الأوزاعي و أحمد بن حنبل ، و تعمدت إبراز المضامين العقيدية و السنية لهؤلاء لمترجم لهم و نوعية المشايخ الذين تلقوا عليهم العلم و آراء الأيمة فيهم و عرض التفاصيل التاريخية التي تبين مواقفهم من الدولة و رجالها .

الفصل الثاني : و قد عنونته **بالطاعة اعتقادا و المجاملة سلوكا** ، و بنيته على :

توطئة : حاولت فيها رفع معنى مفردة المجاملة من اللغة إلى التاريخ من خلال استعراض مختلف الشواهد التاريخية التي تظهر موقفا متماسكا لهذا الفريق من الفقهاء الذين

ارتأوا مسالمة الدولة و سلوك مواقف مجاملة مع الخلفاء و أعوانهم ، و قد حاولت الالتـــزام بما يؤديه الاستقراء الموضوعي و قمت بعمل مواصفات و محددات تضبط هـــذا الفريـــق و تبرزه كظاهرة قائمة متمايزة ، بحيث يبدو الفرق جليا بين سلوك هذا الفريق و الفريق الذي امتنع عن أي صيغة لقاء بينه و بين الجهاز العباسي الحاكم . و أوضحت حدوث اعتراضات قام بها الفريق المفاصل في وجه هذا الفريق ، لم تخلو من قسوة في الحكم ومن غمـــز فـــي الدين . و قد اخترت كل من الليث بن سعد الفقيه المصري صاحب الإمـــام مالـــك ؛ نظـــرا لأهميته و علو كعبه في علوم الدين ؛ إضافة للجاه العريض الذي كان عليه بفضل ثرائـــه ، كما اخترت المحدث الكبير الفقيه سفيان بن عيينة عالم الحرم المكي ؛ نظرا لموقعه الممتـــاز داخل المنظومة السنية و نظرا لعلاقاته الواسعة و المهمة مع مختلف رجـــال أهـــل الســـنة والجماعة ؛ بحيث كان صديقا لأهم رموز الفريق الذي التزم القطيعة والهجـــر مـــع رمـــوز الدولة كسفيان الثوري و الفضيل بن عياض و عبد الله بن المبارك . كمـــا اختـــرت الإمـــام الشافعي ؛ و هو من هو داخل المنظومة السنيـــة ؛ من حيث أنه استطاع أن يلم في المنظومة الفقهية و الأصولية التي أنشأها كلا من الاتجاهين المتصارعين ؛ وهما أهل الـــرأي وأهـــل الحديث ، ومن حيث تمكنه من تحصيل علم جميع أطياف أهل السنة ، كعلم أهل المدينة عبر الإمام مالك و علم أهل الكوفة من طريق محمد بن الحسن و علم أصحاب الحديث في بغـــداد ؛ من خلال صحبته مع أحمد بن حنبل ، ثم علم الليث بن سعد بمصر لما ارتحل إليها .

<u>الفصل الثالث</u> : و عنونته **بالطاعة اعتقادا و المخاللة سلوكا** ، و قد أردت من خلاله إبراز الفريق من الفقهاء الذي دخل في علاقة ود و تعاون و عمل مع جهاز الدولة العباسية ، و لم يجد حرجا في الاضطلاع بمهمات كثيرة ؛ جلها يمس قطاع القضاء و بيت المال و الشرطة و غيرها من الوظائف و هي تدور في مجملها على حول خدمة الشأن العـــام ، مـــن خـــلال تطبيق الشريعة على المتخاصمين أو حراسة المال العام أو الأمن العام . و قد بنيته على :

توطئة : حاولت فيها التأصيل التاريخي لمعنى المخاللة من خلال استعراض للكيفيات التـــي تبلورت فيها هذه الصفة لدى الفريق من الفقهاء الذي دخل مع الدولة العباسية في علاقة عمل و مساهمة وصداقة مع الخلفاء و الولاة ، و أبرزت جميع الجوانب الايجابية و السلبية التـــي نتجت عن هذا الموقف ، حيث لم يكن جميع هؤلاء الفقهاء على ذات الشاكلة فـــي مضـــمون هذه العلاقة اذ لم يعن قبولهم بالعمل لدى الدولة خضوعا و انقيادا كليـــا لأهـــواء الحكـــام و

رغباتهم ، إذ و قف بعضهم سدا منيعا في وجه أطمـــاع بعــض الحكـــام ، و أدى وظيفتـــه بمقتضى الشريعة إحقاقا للحق و العدل ، و لم يتورط في إنتاج الفتاوى التـــي كـــان يرغـــب بعض الحكام في استصدارها منهم . لكن لم يكن جميعهم على هذا القدر من القوة والنزاهة ، و قد عرضت بعضا من المواقف التي بدا فيها بعض الفقهاء يمارس التزلف للخلفاء حرصـــا على بقاء مناصبهم أو استجداء لما في أيدي الخلفاء من أموال و أمتعة . و قد قمت باختيـــار كل من شريك بن عبد الله و أبي يوسف القاضي و أبي عبيد القاسم بن سلام ممثلين عن هذا الاتجاه ، حيث يمثل هذين الأخيرين أيضا كلا من أهل الرأي و أهل الحديث .

ثم أنهيت البحث بخاتمة حوصلت فيها النتائج التي أفرزها هـــذا المجهـــود الاســـتقرائي ، و أردفتها بفهارس و ضعتها للآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و الشعر و الأماكن و الفرق و المدارس الفقهية و الأعلام ثم قائمة بالمصـــادر و المراجع.

و لقد واجهتني في صياغة هذا البحث عدة صعوبات أهمها :

ـــ دقة الموضوع و تشعبه الذي ألزمني بتوسيع قاعدة المصادر و المراجع ، و التـــدقيق في القراءة ، و محاولة العثور على المعلومة .

ـــ البحث المضني لأجل العثور على المصادر المتنوعة و المختلفة الاختصاصات .

ـــ صعوبة الاستقرار على خطة تكون جامعة و مانعة ومنطقية تفي الموضـــوع حقـــه و تمكن

البحث من أداء مهمته و حل اشكاليته .

ـــ اقتضتني محاولة إضفاء العقلنة على الروايات المختلفة و المتضاربة مجهودا فكريا لا يخلو من محاولات تنظيرية محتشمة . مع ما في محاولة استنطاق النصوص من مزالق .

وفي الأخير لا يسعني إلا شكر كل من مد إلي يد العون في إتمام هذا العمل ؛ سواء كـــان دعما ماديا أو معنويا . و الله ولي التوفيق .

الفصل التمهيدي

العباسيون : من الدعوة إلى الدولة :

لقد كان للعنت الذي تعرض له آل البيت و القسوة التي طالتهم على يد مناوئيهم من بني أمية دور في التفاف فئات كبيرة من المسلمين حولهم ، و التعاطف مع قضيتهم .

وكانت التصفيات التي تقع على كاهل الطالبيين تزيد الشيعة تماسكا و تؤجج فيهم نار كره الحكم الأموي ، و ترسخ فيهم ضرورة التحضير و الإعداد للوقت الذي تحين فيه الثورة الكبرى و الملحمة العظمى التي طالما تاقوا إليها و بشرت بها ملاحمهم وعلومهم السرية التي تناقلوها عن الأئمة[2] . وقد تحمل الشيعة " الكيسانية " عبء تنظيم الجهود و تبعات التحسيس بحق آل البيت و رفع وعي الناس لفهم القضية العلوية في خضم توافر الأجواء المناسبة[3] ؛ إذ عملت السياسات الخاطئة و الحسابات قصيرة النظر لبعض الخلفاء إلى خلق فئات معادية تجتمع على هدف الإيقاع بالحكم الأموي و إسقاطه ؛ أهمها :

1 ـ الفئات الموالية للعلويين : وهم يشكلون رقما مهما و نسبة معتبرة من مجموع الأمة .

2 ـ الخوارج : وقد ظلوا يؤججون الثورات طيلة تاريخ الحكم الأموي .

3 ـ الموالي من عرب و غيرهم وكثير من أهل الذمة من الطبقات الفقيرة التي تعددت شكاواها من الحيف في المعاملة و عدم المساواة و التضييق .

4 ـ المهالبة[4] : كانوا من كبار البيوتات الأزدية اليمنية الذين حاربهم الأمويون و نكلوا بهم فاصطنعوا بذلك عداء اليمنيين .

---

[2] جلال الدين السيوطي : **تاريخ الخلفاء** ، تـ محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ، مطبعة الفجالة الجديدة ، مصر ، سنة 1969 ، ص : 256

[3] حسن إبراهيم حسن : **تاريخ الإسلام السياسي والديني و الثقافي والاجتماعي** ، ط 14 ، ج 2 دار الجيل ، بيروت ، سنة 1996 ، ص : 14

[4] نسبة لزعيم قبيلة الأزد ؛ القائد المهلب بن أبي صفرة ، أحد أكبر القواد في العصر الأموي . اشتهر بحروبه ضد الخوارج .

أنظر : محمد جمال الدين سرور : **الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول و الثاني بعد الهجرة** ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، مصر ، سنة 1966 ، ص : 118

5 ــ الفئات غير العربية: سواء منها التي لم تسلم ، و لم تدن بالولاء للدولة الإســلامية ، أو التي أسلمت لكن ولم يتعَمَّقها حِس الانتماء للجماعة الإسلامية .

6 ــ تفشي روح العصبية في الجيش و الأمصار[5] .

دفعت هذه الأوضاع أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى إنشاء تنظيم دقيــق محكــم يدعو لآل البيت ، و يهيئ قوى الأمة لتقبل فكرة الثورة .

و في سنة 98 هــ ــ 716م استدعى الخليفة سليمان بن عبد الملك أبا هاشم مظهــرا لــه التودد و الكرامة ، ثم دبر له عملية اغتيال بواسطة السم و هو في طريقه إلى الحميمة[6]* فلما شعر بتمكن السم منه توجه إلى حيث يقطن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس*[7] ؛ فأفضى له بجميع أسرار التنظيم و دعاه لمواصلة المسعى[8] . و هكذا انخرط العباسيون في المشروع العلوي من رأسه ؛ حيث عادت إليهم إمامة التنظيم و زعامتــه . و تظهــر التطــورات أن العباسيين كانوا أكثر كفاية و نشاطا من الناحية السياسية و أكثر تطلعا إلى النفوذ و السلطان من العلويين ؛ لذلك عمد محمد بن علي إلى رفع شعار الدعوة لــ" الرضا مــن آل محمّــد " كشعار عام يجمع مضمونه بين آل علي و آل العباس حتى يضمن للتنظيم تماســكه ويجنبــه الانقسام و الفرقة . هذا وقد قسم بعض المؤرخين المحدثين الدعوة العباسية إلى دورين :

الدور الأول : من الدعـوة إلى الثـورة :

كانت بداية الدعوة العبّاسيّة نابعة من شرق البلاد الإسلاميّة وقد انضمّ إليها جميع الفئــات المظلومة التي عانت من جور بني أميّة[9] .. فشملت الموالي الشاكين من حُرمان حقوقهم التي

---

[5] يوسف العش : **محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية** ، د ط ، مطبعة فتى العرب ، دمشق ، سنة 1977 ، ص : 7
صالح أحمد العلي : **عمر بن عبد العزيز** ، ط 1 ، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر ، بيروت ، سنة 2000 ، ص : 182

[6] * **الحميمة** : هي قرية صغيرة في أرض الشراة بين الشام و الحجاز . ابن خلكان : **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان** ، ت احسان عباس ، دط ، ج 3 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1971، ص: 278

[7] * **محمد بن علي العباسي** : أبو عبد الله والد المنصور و السفاح ، ولد سنة 50 هــ ، و توفي سنة 126 هــ .
المصدر نفسه ، ج 4 ، ص : 188

[8] أنظر رأي مختلف في مدى صحة هذه الرواية التاريخية في :
محمود شاكر : **التــاريخ الإسلامي** ، ط 2 ، ج 5 ، الكتب الإسلامية ، بيروت ، سنة 1985 ، ص : 45

[9] الهادي حمودة : **الشعر الأموي في خراسان و البلاد الإيرانية** ، د ط ، الدار التونسية للشر ، تونس ، سنة 1976 ، ص ص : 35 ــ 36

كفلها لهم الإسلام ، و المطالبين بعلاقة متكافئة مع إخوانهم المسلمين العرب ، و كان ولاء قطاع كبير من الموالي يتوجه إلى أهل البيت ، ليشمل التذمر حتّى أهل الذمّة الذين طالما اشتكوا جور الأمويين ، والذين كان بعض الولاة يُمانعون في دخولهم إلى الإسلام خوفاً من هبوط الدخل المالي العائد منهم[10].

ولهذا استطاع الدعاة استقطاب جميع فئات المجتمع وتوظيفها و استغلال حنقها ، فقد كانت الفئات التي تعاطفت أو ساهمت في إنجاح ثورة الحلف العلوي ــ العباسي تأمل في تحقيق الأهداف التي أعلنها قادة الثورة و تضمنتها الشعارات التي رفعوها[11] ، حيث انتشر الدعاة في أواخر الحكم الأمويّ في أرجاء البلاد الإسلاميّة خاصّة في خراسان والعراق ، يمهدون للثورة على مظالم بني أميّة ويبشّرون الناس باقتراب تحقق الوعد الإلهيّ بانتصار الحقّ على الباطل[12] من خلال نجاح للثورة ؛ ويمنوهم بإرساء قواعد حكمٍ يقوم على الحقّ والعدل . و يبثون البشارة على قرب الفرج بالتنويه بـ " الرضا من آل محمّد " وعودة الحقّ إلى أهله ؛ أهل بيت النبيّ صلّى الله عليه وآله الذين يُقيمون الحقّ والعدل ؛ الأمر الذي لقي نجاحا لم يقدر لمحاولات العلويين السابقة .

الدور الثاني : من الثورة إلى الدولة :

في سنة 125هـ توفي محمد بن علي فآلت إمامة الدعوة لابنه إبراهيم الذي لم يدخر و سعا في التنظيم و السهر على الإشراف على أمر الدعوة[13] . و قد اصطنع في الكوفة شابا كان مقدرا له قيادة الدعوة إلى النجاح ؛ و هو أبا مسلم الخراساني ، فكان في خدمة إبراهيم ينقل رسائله إلى الدعاة في الكوفة و غيرها ، وفي سنة 128هـ ــ746م أرسله إلى

---

[10] محمد نصر مهنا : **الفتوحات الإسلامية و العلاقات السياسية في آسيا** ، د ط ، دار المعارف ، الإسكندرية ، سنة 1990 ، ص : 219

دانيال دينيت : **الجزية في الإسلام** ، تـ فوزي جاد الله ، د ط ، منشورات مكتبة الحياة ، د ت ، ص : 178

طه ندا : **فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية** ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، سنة 1996 ، ص: 61

[11] أحمد عبد الرزاق أحمد : ال**حضارة الإسلامية في العصور الوسطى** ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، بيروت ، سنة 1999 ص : 225

[12] أحمد مختار العبادي : **في التاريخ العباسي و الأندلسي** ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د ت ، ص : 17

[13] عماد الدين إسماعيل بن الفداء : **المختصر في تاريخ البشر** ، د ط ، م 1 ، ج 1 ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت د ت ، ص : 209

أبو حنيفة الدينوري : **الأخبار الطوال** ، ت عبد المنعم عامر و آخرون ، د ط ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د ت ، ص : 339

خراسان مثلا له في الدعوة السرية هناك ؛ إذ تجلت قدراته السياسية و العسكرية التي عجلت بدفع الثورة إلى الظهور ثم الانتصار[14] ، و قد خاض أبو مسلم حروبا و وقائع مع القادة الأمويين في خراسان كشفت القاعدة المهترئة التي كان عليها الحكم الأموي ؛ الذي نخرته الخلافات القبلية في صميمه و أصابته في مقتل ، الأمر الذي أحسن أبو مسلم استغلاله .

و في سنة 131 هـ ـ 748م بلغ أمره أسماع الخليفة مروان بن محمد فأرسل من يعتقله . و لما علم بنهايته أوصى إلى أخيه أبي العباس أوصاه بشيعته وأهل بيته وأهل خراسان وأهل الكوفة[15] . فلما علم بذلك أبو العباس خرج من الحميمة يريد الكوفة وكان أولَ أهلِه خروجاً خوفا على نفسه و على مصير المهمة التي أُوكِلت إليه ، فدخلها «... وكانت المسوِّدَة مع أبي سَلَمة بالكوفة فأنزلهم دارا .. و أَخْفَى أَمْرَ أبي العباس و مَنْ معه و وكَّلَ بهم وَكِيلًا ... »[16] .

وهنا تأتي محاولة أبي سلمة في نقل الخلافة إلى العلويين. وتجمع المصادر التاريخية على أن أبا سلمة حاول نقل الأمر من آل العباس إلى آل علي فأخفي أبو العباس ولم يعلن ظهوره ويعلل المسعودي سبب هذه المحاولة بخوف أبي سلمة من انتقاض الأمر وفساده إثْر مقتل إبراهيم الإمام [17] ، وقد يكون أبو سلمة مدفوعاً بميوله العلوية ؛ فالكوفة علوية والخلال يميل لبني علي ، ثم أن المجال كان مفسوحاً أمامه ليحقق ما يميل إليه وخاصة أن المَدْعو له لم يكن معروفاً لدى العامة من الناس .

وقد أرسل أبو سلمة الخلال رسالتين إلى كل من جعفر بن محمد الصادق[18]* وعبد الله بن الحسن بن الحسن ، فأحرق الصادق الكتاب ، أما عبد الله فبالرغم من تحذير جعفر الصادق

---

[14] فاروق عمر : **التاريخ الإسلامي و فكر القرن العشرين** ، ط 2 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1985 ، ص ص : 142 ـ 143

[15] أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي : **تاريخ اليعقوبي** ، د ط ، ج 2 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1960 ، ص : 342

السيوطي : تاريخ الخلفاء ، المصدر السابق ، ص : 257

[16] أبو الحسين بن علي المسعوديّ : **مروج الذهب و معادن الجوهر** ، د ط ، ج 3 ، موفم للنشر ، الجزائر ، سنة 1989 ،

ص : 320

[17] نفس المصدر ، نفس الصفحة

[18] * **جعفر الصادق** : كان رأس آل البيت بالمدينة ، له مواقف مشهورة مع المنصور ، توفي سنة 148 هـ .
=

له : «... يَا أَبا مُحَمد و متى كان أهْلُ خُراسان شِيعَةً لك أَأَنت بَعَثْت أَبا مُسلم إلى خراسان : أأنت أمَرْته بلبس السَّواد ، وهؤلاء الذين قدموا إلى العراق أَكُنْتَ سبَبَ قـدومهم أو وَجَّهْـتَ فيهم وهل تعرف منهم أحداً... »[19]. إلا أنه لم يصغ إلى هذا التحذير فأجاب .

وقد كانت نتيجة هذه المحاولة الفشل ؛ لأنها لم تجد صدى من قِبَل العلويين ما عدا عبد الله بن الحسن ؛ إضافة إلى ذلك فقد عارض بعضُ كبار القادة[20] هذا المشروع فألحوا على أبـي سلمة بالإعلان عن أبي العباس، ولما كُشِفَت محاولته ؛ جاء الخراسانيون إلى أبي العبـاس ومعهم أصحابهم فبايعوه وبايع الخلال [21] .

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة سنة 132 هـ ـ749م وخطب بالكوفـة فقـال : «... الحمد الله الذي اِصْطَفى الإسلام ديناً لِنفسه فَكَرَّمه وشَرَّفه ... واختاره لنا وأَيَّده بنا وجعلنـا أهله وكَهْفَه وحِصْنه ... وخَصَّنا بعَمّ رسول الله ... وأنْشَأَنا من شجرته واِشْتَقّنا مـن نَبْعَتِـه فوضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وذكرنا في كتابه المنزل ثـم جعلنـا وَرَثَتَـه وعُصْبَتَه ... »

وكان أبو العباس موعوكاً فقام عمه داود بن علي وخطب مكانه ؛ و قال مبيناً السبب الذي دعاهم إلى الخروج : «... وإنَّما أخْرَجَتْنا الأَنَفَةُ من اِبْتِزَاَزهم حَقَّنا والغَضَب لبني عمّنـا .. لكم ذِمَّة الله وذمة رسول الله وذمة العباس أن نَحْكُمَ فيكم بِما أنْـزل الله ونعْمَـل بِكِتـاب الله ونَسير في العَامَّة منكم والخَاصَّة بسيرة رسول الله ... » ، ثم أشاد بجهود أهل الكوفة وأهـل خراسان [22]

= أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي : **سير أعلام النبلاء** ، ت شعيب الأرناؤوط و آخرون ، ط 9 ، ج 6 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة 1413 ، ص : 296

[19] المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 320 ـ 322

[20] لم يورد المصدر أسماء القادة و النص كالتالي : «... لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد، أراد أبو سلمة الخلال أن يحول الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب، فغلبه بقية النقباء والامراء، وأحضروا أبا العباس السفاح وسلموا عليه بالخلافة... » أبو الفداء بن كثير الدمشقي : **البداية و النهاية** ، تـ علي معوض و آخرون ، ط 2 ، م 5 ، ج 10، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1997 ، ص : 34

[21] المصدر نفسه ن نفس الصفحة

الذهبي : **السير** ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 59

[22] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ص ص : 34 ـ 35

وهكذا فإن استقراء الخطب و النصوص التي صدرت عن الخلفاء العباسيين الأوائــل و كبار قادتهم تفصح عن الأسس و المستندات التي اعتمدوا عليها في شرعية وصولهم للحكــم حيث أبانوا منذ البداية أنهم جاؤوا إلى هذا الأمر لكونهم استنادا لحق وراثــة النبــي عليــه الصلاة والسلام ، وأنهم آل البيت وقد ذكرهم الله في القرآن ، و أنهم إنما خرجوا طلباً للثــأر ممن قتل أبناء عمهم ، كذا الِانْتِصاف للأمة من جور بني أمية الذين اغتصبوا الخلافــة مــن دون حق ولا أهلية ، وإحياءً للعدل بين الناس . كما أكَّدوا أنهم سيسيــرون بســيرة الرســول ويعملون بكتاب الله و تحقيق" العدل في القضية " و " القسمة بالسوية "[23] .

وهكذا فإن الانتماء الشيعي لدى العباسيين كان ظاهرا معترفا به مــن طــرفهم و يقــرون بارتباطهم التاريخي بأبي هاشم بن محمد بن الحنفية[24] وقد بقي هذا ردحًا من الزمن حتــى خرج محمد ذو النفس الزكية[25] في عهد المنصور سنة 145هـــ ــ 762م ، و طالب بحقــه في الخلافة بمقتضى البيعة التي سبقت له ، و دارت بينهمــا مراســلات ســجالية عــامرة بالمستندات التاريخية وطرق الاحتجاج السياسي ــ الديني للحق في الحكم[26] ، حينها أظهــر المنصور أن الخلافة جاءتهم عن طريق العباس عم النبي صلّى الله عليــه وســلم ومضــى يحاجج طويلا في تأكيد أحقية العباس بالخلافة[27]، الأمر الذي غدا موضوع جدال ساهم فيــه الشعراء كقول القائل :

---

[23] د محمد ماهر حمادة : **الوثائق السياسية و الإدارية العائدة للعصر العباسي الأول** ، ط 4 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة 1985 ، ص ص : 70 ــ 71

[24] العبادي : المرجع السابق ، ص : 19

[25] هو محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم بالمدينة، وكان قد بويع له في كثير من الأمصار، وكان يُدْعَى بالنفس الزكية لزهده ونسكه، وكان مستخفياً من المنصور، ولم يظهر حتى قَبَضَ المنصور على أبيه عبد اللّه بن الحسن وعمومته وكثير من أهله ، قتل سنة 145هـــ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص: 372 ــ 374

[26] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص ص : 69 ــ 71

برنارد لويس : **أصول الإسماعيلية و الفاطمية و القرمطية** ، ط 1 ، دار الحداثة ، بيروت ، سنة 1980 ، ص ص: 62ــ63

[27] محمد بن جرير الطبري : **تاريخ الأمم و الملوك** ، د ط ، ج 9 ، ، دار القاموس الحديث ، بيروت ، د ت ص ص: 211 ــ 212

عبد الرحمن بن خلدون : **العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، د ط ، م 3 ، ج 5 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1981 ، ص ص : 404 ــ 408

أنَّى يَكُونُ وَ لَيْسَ ذَاَك بِكَائِنٍ   لِبَنِي البَنَاتِ وِرَاَثةُ الْأَعْمَامِ[28]

ــ البحر الكامل ــ

وهكذا انفرد العباسيون بالخلافة بعد أن عرفوا كيف يستغلون الميراث العلــوي واتخــذوه وسيلة للوصول إلى العرش ، و أحبطوا محاولة الخلال ، و لزموا الحذر من العلويين خاصة بعد الثورة الفاشلة لذي النفس الزكية .

ولما استتب العرش لهم و توطدت دعائمه ، و ظهر عمق الخلاف بينهم و بين العلــويين للحد الذي غدا عسيرا على الإصلاح ، عمدوا إلى التحرر من الانتماء الفكري الشيعي بــل انقلبوا عليه سياسيا لصالح الانتماء السني ، و هذا أمر مفهوم لسببين :

السبب الأول : تحول علاقتهم مع العلويين من التحالف إلى التشاحن .

السبب الثاني : لكون الجمهور الأعظم الذين يشكلون أغلبية الرعية ؛ هم من أهل السنة . ولا يَصْفُو حكم لدولة تعتقد خلاف عقيدة الرعية .

وقد تجلى ذلك واضحا ابتداء من عهد المنصور؛ حيث حرص على إنشاء علاقات وطيدة مع كبار ممثلي الاتجاه السني كالإمام مالك و ابن أبي ذئب[29]* ، و حاول مرارا أن يخطــب ود أبي حنيفة و الأوزاعي وغيرهما ممن امتنعوا عن الاقتراب من حاشــية الدولــة ؛ كمــا سيأتي مفصلا ، ومد علاقاته حتى مع المعتزلة ممثلين في شخص عمرو بن عبيــد ، لكــن علاقته مع جعفر الصادق كان يشوبها حذر متبادل [30] . و مضــى المهــدي[31] عــل سُــنَّة المنصور ، و أبدى حرصا خاصا على التعرف على المِلَل و النِّحَل المنتشرة في طول البلاد

---

[28] العبادي : المرجع السابق ، ص : 20 ــ 21 . لا يرد في النص اسم قائل البيت الشعري

[29] * **ابن أبي ذئب** : أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن صاحب الإمام مالك ، أحد فقهاء المدينة ، ولد سنة 81 هــ و توفي بالكوفة سنة 159 هــ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 183

[30] عبد الوهاب الشعراني : **الطبقات الكبرى** ، ط 1 ، ج 1 ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر، سنة 1954 ، ص : 32

[31] **المهدي** : أبو عبد الله ، ولد سنة 127هــ و تولى الخلافة اثر وفاة المنصور سنة 158هــ و توفي سنة 169هــ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 391

الإسلامية عرضها[32] . و هكذا استمر بنو العباس محسوبين في أهل السنة و الجماعة إلى غاية سقوط دولتهم[33].

حكم أبو جعفر المنصور بين سنتي : 137هـ ــ 158 هـ [34]، فكان حكمه قائماً على الشدة ودقة الاستقصاء ، و التَنْقِير في أمور البلاد و أخبارها[35] ، كما عُرف بتقتيره الشديد وسعيه لجمع الأموال و كَنْزِها ، فَخَلّف لابنه للمهدي الذي أعقبه على الحكم 158هـ ــ 169 هـ[36] ثروةً طائلةً قيل أنّها تكفيه لإدارة الدولة عشر سنين[37].

استعان في بداية أمره بأبي مسلم الخراساني في السيطرة على المؤيدين للعلويين في خراسان الذين رأوا أنّ خلفاء بني العبّاس لا يقلّون في سفك الدماء عن أسلافهم الأمويّين، ثم تخَوَّف منه فدبَّر له المكائد حتى قتله سنة 137هـ ــ 754م.[38]

واستمر في إرساء قواعد حكمه بالعزم و الحزم و الشدة ؛ خاصة في ظل تخوُّفِه من نهوض العلويين ليستردوا حقَّهم الضائع ، فأمر باعتقال جماعة من أهل البيت ثمّ أمر بقتلهم[39] . لكنّ الإجراءات القمعيّة لم تُفِل في عزم الطَّالِبِيين ، بل أجَّجَت الثورات ضدّ العبّاسيين في أطراف البلاد الإسلاميّة، ومنها : الكوفة، والبصرة، والمدينة، وهي ثورات قادها علويّون من أهل البيت أو من أتباع أهل البيت . و فكر جديا في توحيد مرجعية الفتوى بدلا من فوضى المذاهب فأوعز لمالك بن أنس إمام أهل المدينة بكتابة الموطأ ، لكن مالك لم يطاوعه على هذه الفكرة نظرا لتشبُّثِ كل مِصْر بموروثه عن كبار الصحابة ممن بقيت آثاره و فتاواه . و هي فكرة ألقاها إليه ابن المقفع في الرسالة التي اشتهرت بـ " رسالة الصحابة " ؛ والتي كانت عبارة عن مشروع كامل و رؤيا تخص مسألة إصلاح قطاعات مهمة من

---

[32] محمد جعفر شمس الدين : " **وجوه الخطاب السياسي للملوك العباسيين** " ، " ، **مجلة المنطلق** ، الإتحاد اللبناني للطلبة المسلمين ، العدد 64 ، آذار 1990 ، ص : 109

[33] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص : 264 ــ 266 . كذلك ج 7 ، ص : 331

[34] 754م ــ 775م

[35] عارف عبد الغني : **نظم الاستخبارات عند العرب و المسلمين** ، ط 1 ، دار الهدى ، الجزائر، سنة 1411هـ ــ 1991م ، ص ص : 105 ــ 115

[36] 775م ــ 785م

[37] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 103

[38] الطبري : المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 155

[39] المسعوديّ : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 377

الدولة بما يتناسب والوضع السياسي الجديد ؛ تمسُّ قطاع الجند و القضاء و إصلاح تـدابير الخراج[40] وغيرها.

ولما تولى المهدي سلك في سياسة الرعية نهجا آخر ، فاشتهر بحُسن المعاشرة ، و سـعة الصدر و التَّحَنُّن إلى الرعية ، فأوعز بمجرّد وصوله إلى عرش الخلافـة بـإطلاق سـراح السجناء وإعادة الأموال التي صُودرت في عهد أبيه إلى أصحابها ، فوجد الطـالبيّون في عهْـده فَرجـا و سَعَة بالمقارنة ممّا كانوا يعانونه سابقا ، تجلى ذلك في سلوكات مختلفة منها تقريبه ليعقوب بن داود صنيعة العلويين و رفعه لمنصب الوزارة[41].

ولم يكتفِ المهدي العبّاسي ـ في نشره للاستقرار في المجتمع ـ بإطلاق سراح السجناء، بل كان يصلهم ويخلع عليهم الخِلَع بما ينـاسب حالهم[42]. ولعل أهم ما يميز عهده إضافة إلى ما ذكر، هو استفحال أمر" الزَّنادِقَة "[43] ، وإفصاحهم دون وجل عن أهـدافهم و مـراميهم ، فأنشأ المهدي ديوانا اختص بمحاربتهم و مطاردتهم ، حيث عين رجلا عهد إليـه بتـولي أمورهم سماه " صاحب الزنادقة " ، و بلغ به الأمر سنة 167هـ ـ 783م إلى أن كان يقتل على الظِّنَّة والاشتباه وأوصى الهادي ابنه بأن يتجرد لهذه العصابة[44].

---

[40] بشار قويدر : **الإصلاح السياسي و الاجتماعي للدولة الإسلامية** ـ من خلال رسالة الصحابة لابن المقفع ـ ، د ط ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1990 ، ص ص : 83 ـ 99

س ، د ، جواتياين : **دراسات في التاريخ الإسلامي و النظم الإسلامية** ، تـ عطية القوصي ، ط 1 ، وكالة المطبوعات الكويت ، سنة 1980 ، ص ص: 57 ـ 87

رضوان السيد : : **الأمة و الجماعة و السلطة** ـ دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي ـ ، ط 2 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986 ، ص ص : 104 ـ 105

[41] أبو الحسن علي بن محمد ، بن الأثير: **الكامل في التاريخ** ، ط 3، ج 5 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1980 ص : 52

[42] اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 394

[43] **الزنادقة** هم الفئة المتهمون بالزندقة وقد اشتهر هؤلاء عهد المهدي . و يورد المسعودي نصا يكشف عن ماهية الزندقة:

« ... وأمعن في قتل الملحدين، والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته؛ لما انتشر من كتب ماني وابن دَيْصَان، ومرقيون مما نقله عبد اللّه بن المقفع، وغيره، وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء، وحماد عَجْرَدٍ، ويحيى بن زياد، ومطيع بن إياس: من تأييد المذاهب المانية، والدَّيْصَانية، والمرقيونية، فكثر بذلك الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس...» المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 384

[44] عاطف شكري : **الزندقة و الزنادقة** ، **د ط** ، دار الفكر ، الأردن ، د ت ، 161 ـ 62

عبد الرحمن بدوي ، **من تاريخ الإلحاد في الإسلام** ، ط 2 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، 1980 ص : 31

وشهد عهده ثورة المُقَنَّع بخراسان سنة 161هـ ـ 778م[45] ، و في السنة الموالية خرج المُحَمِّرة بجرجان[46] ، كذلك خرج بقِنّسْرين[47] * ثائر يدعى عبد السلام اليشكري تم القضاء عليه[48].

دام حكم المهدي عشر سنوات ، فخلفه ابنه الهادي، الذي كان حكمه قصيراً، حيث انتهى بعد سنة واحدة بسبب الدَّسائس التي حِيكَت ضدّه من قِبل قِوَى في البلاط ، وقد واصل الهادي[49] سياسة المهدي في مطاردة الزنادقة ، كما انشغل بملاحقة الطالبيّين وقطع أرزاقهم[50]، و في أيامه خرج عليه الحسين بن علي بن الحسن ، فقتله في موقعة " فَخٍّ " سنة 169هـ ـ 785م .[51]

أعقب هارونُ الرَّشيد[52] الهادي على كرسي الخلافة من سنة 170هـ لغاية 193 هـ[53] ، حيث باشرها بالاستعانة بخدمات عائلة آل بَرْمَك[54] في توطيد دعائم الملك ؛ للحد الذي أطلق بأيديهم جميع شؤون الدولة و الرعية ، الأمر الذي مكّن البرامكة من صناعة أسطورة كاملة في الرَّفاه و التَّنعُّم و البذل و العطاء و أَسْر القلوب بالامتنان و صِدْق الولاء ، فكان أن صبغوا عهد الرشيد بلونٍ ظَلَّ يتردد صداه في تفاصيل ألف ليلة و الطرائف التي غصت بها

---

45 و هو رجل كان قَصَّارا يمارس السحر و ما أشبه ادَّعى القول بإمامة أبي مسلم الخراساني ثم ادعى الألوهية

46 المحمرة إحدى الفرق المجوسية ، انظر: بو الفرج محمد بن إسحاق النديم: **الفهرست** ، د ط ، دار المعرفة ، بيروت ، سنة 1978 ، ص: 479

47 * **قِنّسْرين** : كورة بالشام ، منها حلب ، و بينها و بين حلب مرحلة من جهة حمص . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 400

48 ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 61 ـ 62

49 **الهادي** : موس بن المهدي ، تولى الخلافة اثر وفاة المهدي سنة 169هـ و توفي سنة 170هـ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 411

50 اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 404

51 ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 74 ـ 75

52 **هارون الرشيد** : من أشهر الخلفاء العباسيين ، تولى الخلافة بعد وفاة الهادي سنة 170هـ و توفي سنة 193هـ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 427

53 786م ـ 809م

54 **البرامكة** : اسرة آل برمك و هي أسرة مجوسية الأصل فارسية صعد نجمها بفضل نشاط خالد ثم يحيى ابنه و بلغت من القوة لحد الاستبداد بالحكم في عهد الرشيد و انتهت بتصفية هذا الأخير لها سنة 187هـ اشتهر من أبنائها يحي و ابنيه جعفر و الفضل. ابن النديم : المصدر السابق ، ص : 96

مجاميع الأدب و الأخبار و صحائف الإخباريين[55] . رغم انتباه بعض المؤرخين لفشل سياستهم المالية و سوء الاستغلال لما وضعه الرشيد بأيديهم[56] . لكن سلطانهم لم يستمر؛ إذ قلب لهم ظهرَ المِجنّ وتنكّر لهم وقتل كبار رجالهم شرّ قتلة و كان ذلك سنة 187هـ ــ 803م [57].

و يعتبر عهد الرشيد العصر الذهبي للدولة العباسية الذي بلغت فيه الدولة أوج قوتها رغم أنه عرف أيضا أُولى بوادر الانقسام و التَّشَظّي ؛ خاصة في بلاد المغرب[58]، ولعل اخطر صنيع ارتكبه الرشيد بحق الخلافة ؛ هو تقسيمه سلطان الخلافة على أبنائه[59]، في العهد الشهير الذي علَّقه في الكعبة ، و الذي أشعل فيما بعد أُوَار الحرب بين ولديه ، فيما عرف " بفتنة الأمين[60] والمأمون " ؛ عندما احتدم الصراع بين الطرفين و وقف العنصر العربي إلى

---

[55] جلال الدين السيوطي : **المستظرف من أخبار الجواري** ، د ط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، سنة 1991 ، ص : 25

أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري : **المصون في الأدب** ، تــ عبد السلام هارون ، ط 2 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،سنة 1982 ، ص : 210

أبو سعد منصور بن الحسين الأبي : **نــثر الدر** ، تــ عثمان بوغانمي ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، سنة 1983 ص: 141

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : **المحاسن و الأضداد** ، ط 1 ، دار الجيل ، بيروت ، سنة 1997 ، ص : 294

إبراهيم بن محمد البيهقي: **المحاسن و المساوىء** ، تــ محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ط ، مكتبة نهضة مصر القاهرة ص ص : 369 ــ 377

أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحبيب : **عقلاء المجانين** ، تــ عمر الأسعد ،ط1 ، دار النفائس ، بيروت ، 1987 ص : 303

أحمد محمد الحوفي : **تيارات ثقافية بين العرب و الفرس** ، د ط ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د تــ ، ص : 116 ــ 118

[56] محمد عبد الحي محمد شعبان : **الدولة العباسية** ، ص : 50

[57] راجع هامش صفحة 9

[58] انقسام بلاد المغرب إلى : دولة الأغالبة و دول الأدارسة و دولة الرستميين ، و كيانات سياسية أخرى لا تدين بالولاء للعباسيين ، إضافة إلى الدولة الأموية بالأندلس . يوسف العش : المرجع السابق ، ص ص : 48 ــ 49

[59] الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 72. جاء فيه :

« ... ولما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة قال بعض العامة قد أحكم أمر الملك وقال بعضهم بل ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية...» ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 154

[60] **الأمين** : محمد بن الرشيد ، تولى الخلافة بعد أبيه هارون سنة 193هــ و قتل أثناء صراعه مع أخيه المأمون سنة 198هــ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 491

صف الأمين في حين ساند العنصر الفارسي المأمون [61]، وكانت مواجهة دامية بين الأخوين دشَّن الأمين انطلاقها بنقضه العهد الذي علقه الرشيد على الكعبة و أشهد عليـــه الأمـــة فـــي موسم الحج[62] ، و انتهت بمقتله سنة 198هـــ ــ 813 م وتولّى المأمون عرش الخلافـــة ، حيث كانت بغداد ساحة المعركة والبغاددة هم من تحـــمل عِبْئها وعِبْء تفاصـــــيل ذلـــك الصـــراع المرير الذي استحق مســـمى " الفتنة " تشبيها لها بـــ " الفتنة الكبرى " التي أعقبت مقتل عثمان .

وقد عرف عن المأمون حزم و ولَع خاص باستطلاع الأوضـــاع فـــي الدولـــة المترامـيـــة الأطراف عبر جهازه التجسسي و خواص رجاله الذين اصطنعهم لهذه المهمة ، و بلغ به حدا صار به أعجوبة بين الخلفاء « ... لم يكُن أحدًا من ذوِي السّلطان الأعظم أشدُّ فَحْصًا و بَحْثًا منه عن أمور الناس حتى بلغ هذا المبلغ من الاسْتِقْصاء و جعله أكبر شغْلِه و أكثرَ هَمِّـــــــه في ليــــله و نهاره ...»[63]، ولعل جزءا كبيرا من انشغال المأمون هذا يعود إلى التغيرات العميقة التي حصلت في النَّسيج السياسي وعلاقات القوى التي كانت تضبط توازن السلطة في عهد الرشيد ومَن قَبْله ، خاصةً التّوازن الذي كان قائما بين العصبيتين : العرب و الفـــرس[64] ؛ و الذي عصفت به أهواء الإنفراد بالسلطة و الانتفاع مـــن خيراتهـــا ، و النُّكـــوص عـــن المكسب الذي يحسب في مزايا العباسيين ، وهو تحقيق قسط كبير من النجاح في العودة إلى مفهوم" الأمة " كما نوَّه به الإسلام[65] ، و الذي جرى تناسيه خلال الفترة الأموية .

---

[61] ابن العبري: المصدر السابق ، ص ص : 132 ــ 135 . والمسعودي : مروج الذهب ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 494 ، 520. و د نبيلة حسن محمد : **في تاريخ الدولة العباسية** ، ص : 157. و د حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، المرجع السابق ، ص ص : 146 ــ 147

[62] الذهبي : **العبر في أخبار من غبر** ، ج 1 ص : 314. والمسعودي :المروج ، المصر السابق ، ص ، 448

أنظر : محمد عبد الحي محمد شعبان : **الدولة العباسية** ، المرجع السابق ، ص ص : 58ــ 56

د نبيلة حسن محمد : المرجع السابق ، ص : 151. فيه تحليل جيد للدوافع التي أفضت بالرشيد إلى أن يجترح هذا الشكل غير المسبوق في ولاية العهد إذ جعلها ثلاثية ؛ بادئا بالأمين و مثنيا بالمأمون و مثلثا بالمؤتمن ، الآمر الذي كرس المشاكل أكثر مما حلها .

[63] المسعودي : المصدر السابق ، ص :236

[64] د زاهية قدورة : **الشعوبية وأثرها الاجتماعي و السياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول** ، ط 1 دار الكتاب العربي بيروت ، سنة 1972 ، ص : 222

[65] د رضوان السيد : الرجع السابق ، ص :102

إنّ الفتنة تلك بين الأخوين ــ بِما حفلت بها تفاصيلها من أحقــاد و حــزازات ســكنت أعماق النفوس ــ هي التي فرضت على المأمون كل ذلك الحس الأمْني الدقيق . ولقد كان المأمون في جوانب كثيرة نموذجا للحاكم الحازم المتعلِّم و المستنير والسلطان اليقظ والمدرك لحقيقة المشاكل التي تحيط بحكمه ، و حقيقة القوى المتصارعة على السلطة ، والاتِّجاهــات الدينية و السياسية التي كانت تمور بها الحياة الإسلامية آنذاك ؛ بقدر وعيه لحقيقــة تــداخل المضمون السياسي في الخطاب الديني ؛ إذ كانت جَنَبَات الدولة الإسلامية حافلة بتحركــات الشيعة الثورية و السياسية ومحاولاتهم استعادة حقهم المسلوب وانشغال الأئمة منهم بتطــوير المذهب وتقعيده علميا من طريق الرواية و النقل وتدوين الآثار التي تثبت حقهم في الخلافة أو من خلال التأسيس الفلسفي والتوسع في آلية التأويل للقرآن خصوصا ، لصــنع المســتند الديني المُقْنِع لمطالبهم السياسية . كذا الانتشار و التوسُّع اللذين عرفهما نشاط الزنادقة بعــد ركودهم و خمولهم طيلة عهد المهدي و الهادي و الرشيد ، وذلك يعود لجدية الخلفاء الثلاثة في استئصال شأفتهم .

أما الاتجاهات الإسلامية الأخرى و المتمثلة في أهل السنة و المعتزلة و المرجئة[66] والتَيّار الذي أخذ في الأدبيات الكلامية مسمى " الحَشْوِيّة " فلم تكن تشــكل خطــرا علــى الحكــم ؛ لِانْصراف أصحابها إلى المُسالمة القائمة على اجتهادات دينية و فتاوى تجعل من الثورة عملا غير مشروع أو انصراف قادتها إلى الدرس العلمي و البحوث النقلية و العقلية .

إن هذه الفترة من المحطات المهمة في تاريخ الإســلام الــديني و السياســي و الثقــافي بخاصة؛ إذ أنها الفترة التي تمكنت فيها اغلب القوى المتصارعة على السلطة مــن تأســيس مذاهبها و تشييد أنْسَاقها الفكرية ؛ بحيث يمكننا الكلام عن مــذاهب و مــدارس مُؤَصَّــلة و مُحْكَمة و مُتَمايِزة أيضا . لذلك جاءت مسلكية المأمون مطبوعة بالطابع العلمــي العميــق ، الذي لابد منه لِمَن هو في محلّه ومسؤوليته ، و لمن هو حريص على فهم مــا يــدور مــن حواليه في العلن و ما هو قيد التــدبير و التخطيط في السر ، كذا تفهم الأسس التي يرى كل فريق من هؤلاء أن مشروعيته تقوم عليها وان مطالبه تستند إليها . لأجل ذلك كله حــرص

66 **المرجئــة** : و تعود في بعض الروايات إلى الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ، و هي فرقة اعتمدت مبدأ عدم التكفير و يرجئون الحكم في عقائد الناس من المسلمين إلى الله ، و يحصرون الإيمان في مجرد المعرفة و التصديق القلبي ، دون اشتراط الأعمال. عبد القادر الجيلاني : **الغنية لطالبي طريق الحق** ، تــ عبد الكريم العجم ، ط 1 ، م 1 ، ج 1 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1996 ، ص : 114. و محمد علي أبو ريان : المرجع السابق ، ص ص 127ــ 128

على أن يشهد بلاطـــه مجادلات تتم من طرف المتكلمون الذين كانوا نوابا عن هذه التيارات ؛ يبسطون الرَّؤَى و يعْرِضون الحجـــج و الدلائل و البراهين و يتكلمون في كـــل شـــيء ، ليصل حديثهم و حوارهم منصب الخلافة أمام الخليفة ذاته ، و قد أورد المســـعودي فـــي « مروجه » جملة صالحة من الأخبار في هذا المعنى اجْتَزِأُ منها هذا الخبر :« ... وكان يَحْيي بن أَكْثَم يقول : كان المَأْمون يجلس للمُنَاظرة في الفقه يوم الثلاثاء فإِذا حضر الفقهـــاء ومَـــنْ يُناظرِهم مِن سائر أهْل المقَالات أُدْخِلوا حُجْرةً مفروشـــــة وقيل لهم انزعُوا أَخْفَـــاَفكم ثـــم أُحْضِرت المَوائد ... فاسْتَدْنَاهم حتى يَدْنوا منه ، ويُناظرهم أحسنَ مُناظرةً و أَنْصَفَها وأَحْسَنها و أَبْعَدها من مناظرة المتَجَبّرين ... » ؛ ويمضي يصف دخول رجل غريب يطلب المناظرة فأذن له المأمون بالدخول و الاقتراب من مجلسه فيفاجئه الرجل بسؤاله : «... أَخْبِرني عن هذا المَجْلس الذي قد جَلَستَه أَبِإجتماع من المسلمين عليك ، و رضا منك ، أَم بالمُغَالَبَة لهم و القُوَّة عليهم بسلطانك ؟ ... » فأجابه المأمون جواب هادئ رخي البال ووصـــف لـــه كيفيـــة وصوله العرش إلى قوله « ... فقُمْتُ بهذا الأمر حِيَاطةً للمسلمين ، ومجاهِدا في البحث عن رجل تتفق كلمتُهم على الرضا به ، فأَسلِّم الأمر إليه ، فمتى اجتمعوا على رجل و رَضُوا به خرجتُ إليه من هذا الأمر ، فقال الرجل : السلام عليكم ورحمة الله وبركاتـــه، و قَـــامَ ...» فأرسل المأمون على إثره من يتقصى خبره فإذا هو مجتمع مع خمسة عشرة رجلا في هيئته و زيِّه في أحد المساجد يسألونه: لَقَيْتَ الرّجل ؟ وماذا قال لك ؟ فأجابهم : خَيْرا، فقالوا : مـــا نَرَى بهذا بَأْسًا و افترقوا ، فما كان من المأمون إلا أن علق على الأمر بقوله « ... كُفِينـــا مُؤْنَةَ هؤلاء بِأيْسَر خَطْب ...»[67] .

إذن لقد أراد المأمون أن يكون منفتحا انفتاح الواقع الثقافي آنذاك و لعله كان يريد من ذلك أن يصنع من ذاته كلمة إجماع ترمم الصّدوع و تَرْأب ما انكسر في سنوات الفتنة ، الشـــيء الذي تبدَّى في اجتماع جل الفرق الإسلامية في شخصه و قراراته ، فقد أراد أن يولي إثـــر انتصاره على الأمين علي بن موسى الرضا[68] العلوي و مضى في ذلك شوطا مهما انتهـــى بثورة آل العباس و موالوهم في بغداد عليه للحد الذي أفضى بهم لنقض بيعته و إقامة عمـــه

[67] المسعودي المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 20 ــ 22

[68] **علي بن موسى الرضا** أحد كبار العلويين وصفه الذهبي : « ... وابنه علي بن موسى الرضا كبير الشأن له علم وبيان ووقع في النفوس صيره المأمون ولي عهده لجلالته فتوفي سنة ثلاث ومئتين...» . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج13 ، ص: 121

إبراهيم بن المهدي[69]* مكانه رغم سيرة هذا الأخير التي هي ابعد ما يكون عن حزم الخلافة و وقارها فانتهى الأمر بموت علي الرضا في ظروف غامضة ، كذلك تَبَنّيه لجملة من أفكار أهل السنة ومعتقداتهم فيما يخص الإمامة و جملة العقائد التي لم يختلف معهم إلا في مسألة القرآن ، الأمر الذي دفع ثمامة بن الأشرس المعتزلي[70]* إلى القول : « ...إن المأمون عامي لترکه القول بالقدر ...»[71] ، و اهتمامه بحفظ الحديث و روايته و تقربه من كبار الفقهاء و المحدثين[72] كذا فتح قنوات الحوار ولعل أهم فكرة تبناها المأمون هي مقولة « خَلْق الْقُرآن » ؛ تلك الفكرة التي صبغت سيرته و مسلكيته كَحاكِم نقطة سوداء ، نظرا للأسلوب العنيف و الطريقة المخالفة لما عُرِف عنه من تسامح و انفساحٍ في الأفق و اعترافٍ بحق الاختلاف ؛ الشيء الذي شكل للمؤرخين و المفكرين نقطة استشكال و استفهام ، حاول بعضهم تعليلها و إضفاء المعقولية عليها ، ولعل أكثر التعليلات إقناعا تلك التي ذهبت إلى أن المدة التي إ ستغرقها صراع المأمون مع أخيه الأمين والغياب عن العاصمة بغداد أفضت إلى حالة من السّوء والفوضى ؛ حيث شكَّل اختفاء هيبة الدولة و سلطتها مناسبة لتخطي القانون ، و حيث تعمل القوى التي تمتلك القوة وِفْقا لأهوائها و مصالحها و قد روت المصادر : «... أن فُسّاق الحَرْبِيَّة[73] والشُّطّار الذين كانوا ببغداد والكَرْخ[74]* آذوا

---

[69] * **إبراهيم بن المهدي** : أبو إسحاق ، أخو هارون الرشيد ، له اليد الطولى في الغناء و حسن المنادمة ،ولد سنة 162 هـ

بويع بالخلافة سنة 200هـ و أقام بها سنتين بعيد فتنة الأمين ـ المأمون ، و توفي سنة 224هـ .

ابن خلكان : الوفيات ، ج 1 ، ص ص : 39 ـ 42

[70] * **ثمامة بن الأشرس** : أحد كبار شيوخ المعتزلة ، كانت له منزلة كبيرة عند المأمون و كان له دور مهم في إقناع المأمون بعقيدة خلق القرآن . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 6، ص : 177 . انظر كذلك محمد الخضري بك : محمد الخضري بك : **الدولة العباسية** ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 2005 ، ص : 194

[71] محمد الخضري بك : المرجع نفسه، ص : 194

[72] السيوطي : التاريخ ، المصدر السابق ، ص: 307 جاء فيه «... كان المأمون أمارا بالعدل فقيه النفس يعد من كبار العلماء ....»

[73] ***الحربية** : محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة بشر الحافي وأحمد بن حنبل وغيرهما تنسب إلى حرب بن عبد الله البلخي ويعرف بالراوندي أحمد قواد أبي جعفر المنصور وكان يتولى شرطة بغداد أبي جعفر المنصو وقال أبو سعد سمعت القاضي أبا بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري ببغداد يقول إذا جاوزت جامع المنصور فجميع تلك المحال يقال لها الحربية وينسب إليها طائفة من أهل العلم منهم إبراهيم بن إسحاق الحربي . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المصدر السابق ج 2 ص: 237

[74] * **الكرخ** : قرية فوق بغداد على ميل منها ، القزويني : زكريا بن محمد القزويني : **آثار البلاد و أخبار العباد** ، د ط ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، سنة 1979 ص : 444

الناس أذى شديدا وأظهروا الفِسْق و قَطْع الطريق وأَخْذ الغِلْمان والنِّسـاء علانيـةً مـن الطُّرق فكانوا يجتمعون فيأتون الرَّجُل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يَقْدِر أن يمتنـع ...»[75]، ويضيف الطبري في وصف شناعاتهم : «... وكانوا يسألون الرجل أن يُقْرِضهم أو يَصِلَهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم وكانوا يجتمعون فيأتون القُرى فَيَكاثِرون أهلها ويأخذون ما قـدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك لا سلـطان يمنعهم ولا يقدر على ذلك منهم ...»[76]، ولم يتوقف نشاطهم عند هذا الحد بل «... كانوا يَجْبُونَ المَارَّة في الطّرق والسُّفُن .. ويخْفِـرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يَعْدو عليهم ، وكان الناس منهم في بلاءٍ عظـيم ، ثم كان آخِرَ أمْرِهم أنهم خرجوا إلى قُطْرُبّل فانتهبوها علانية وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك وأدخلوها بغداد وجعلوا يبيعونها علانية ...»[77]. كل ذلـك حصل ببغداد بمنطوق هذه الشهادة ، ولما كان الأمر اكبر من أن يسـكت عليـه «.. قَـامَ صُلَحَاء كل رَبْضٍ وكل دَرْب فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا : إِنّما فـي الـدَّرب الفاسـق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم ، فلو اجتمعتم حتى يكونَ أَمْـرُكم واحـدا لَقَمَعْتُم هؤلاء الفساق وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بـين أظهـركم ...»[78] وأخذت هذه الفكرة طريقها للتحقق على يد رجال صالحين «... فقام رجل من ناحية طريق الأَنْبَار يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل بيته وأهل محلته علـى أن يعـاونوه علـى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك ، وشدَّ على من يليـه مـن الفسـاق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه وأرادوا قتاله ، إلا أنه كـان لا يَـرى أن **يُغَيِّر على السلطـان شيئا** ...»[79] . والنص واضح في إشارته للطابع الإصلاحي الاجتماعي من دون أن يحول مبادرته هذه إلى عمل سياسي ؛ بعبارة أخرى لم يشأ أن يستغل الوضـع المتردي لهيبة الدولة في التفكير في إطماع سياسية ؛ الشيء الذي سنراه مع نظيره سهل بن

---

75 الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص: 241 ــ 243

أنظر: السيوطي : التاريخ ، المصدر السابق ، ص : 299 . جاء فيه :«... وفسد الحال على الأمين جدا وتلف أمر العسكر ونفدت خزائنه وساءت حال الناس بسبب ذلك وعظم الشر وكثر الخراب والهدم من القتال ورمى المجانيق والنفط حتى درست محاسن بغداد وعملت فيها المراثي ...»

76 الطبري : المصدر السابق ، نفس الصفحة

77 المصدر نفسه ، نفس الصفحة

78 المصدر نفسه ، نفس الصفحة

79 المصدر نفسه ، نفس الصفحة

سلامة والذي كان سببا لخلاف كبير بينه و بين أحمد بن حنبل هذا الذي رغم استيائه مثل غيره لسوء أحوال بغداد ومساندته لمبادرة هؤلاء القوم إلا انه كان ضد أي تصعيد سياسي للأمر قد يفضي إلى فتنة أشد

ويصف ابن الأثير حركة ابن سلامة بما يلي : «... ثم قام مِن بعده رجل من أهل الحربية يقال له سهل بن سلامة الأنصاري من أهل خراسان ؛ يكنى أبا حاتم فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بالكتاب و السنة وعلَّق مصحفا في عنقه...»[80]. ويستمر يعرض طريقته في العمل « .. ثم بَدَأَ بجيرانه وأهلَ مَحلّتِه فأمرهم ونهاهم فقبِلوا منه ثم دعا الناسَ جميعًا إلى ذلك ؛ الشريف منهم والوَضِيع ؛ بني هاشم ومن دونهم ، وجعل له دِيوَانًا يُثْبِت فيه اسم مَن أَتاه منهم فبايعه على ذلك ، وقتال من خالفه وخالف ما دعا إليه كائنا من كان فأتاه خلق كثير فبايعوا ، ثم إن طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبي المارة والمُخْتَلِفة ...»[81].

ومن خلال السياق و الأخبار المفصلة التي يعرضها الطبري في هذا الشأن نفهم أن المبادرات التي نهض بها هؤلاء " صلحاء كل ربض " اتسع نطاقها و نشاط عملها للحد الذي تحولت فيه رقما مهما في معادلة الصراع الذي تشهده بغداد ، و النص التالي للطبري يبين الأمر : «...إن الدريوش[82] قال : أنا لا أُعِيب على السّلطان شيئا ولا أغيره ولا أقاتله ولا آمره بشيء ولا أنهاه وقال سهل بن سلامة : لكنّي أقاتلُ كلّ مَن خالف الكتاب والسنة كائنا من كان سلطانا أو غيره والحق قائم في الناس أجمعين فمن بايعني على هذا قَبِلْتُه ومن خالفني قاتلته...»[83]واستمر على أمره من اجتماع الناس عليه ورغبته في إخراج الخلافة من آل الرشيد حتى تحقق النصر كلية للمأمون و أخذ سهل فيمن أخذ و انتهى سعيه إلى السجن ناعيا على أناس (الحربية) غدرهم و تقاعسهم[84].

---

80 ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 183 ـ 184

81 الطبري : المصدر السابق ، ج 10، ص ص : 242

82 لا يوجد للدريوش و لا لابن سلامة ترجمة في كتب التراجم و الطبقات المتاحة ن عدا ذكرهم لدى المصادر التاريخية التي تصف هذه الأحداث .

83 المصدر نفسه ، نفس الصفحة

84 الطبري : ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 249. و د نبيلة حسن محمد : المرجع السابق ، ص : 180

إذن كانت هذه الأحداث من أهم ما شهدته تلك الفترة ، حيث كادت أن تعصف بالدولة العباسية ، و ظلت آثارها راسخة في الواقع البغدادي والذاكرة ، و لعلها سبب من بين الأسباب التي دفعت المأمون لأن ينصح المعتصم[85] بالبحث عن عنصر آخر غير العرب و الفرس يكون مادة الدولة و سندها[86] و ذلك تجديدا لدماء الدولة القتالية من جهة و من جهة أخرى فرض عصبية جديدة محل العصبيتين المتناحرتين تمكن الخليفة من امتلاك مجالا لحرية أوسع[87] .

وبولاية المعتصم في رجب سنة 118هـ ـ 833 م بدأ عهد جديد بالنسبة لعصبية الحكم حيث اهتم المعتصم بالعنصر التركي للاستنهاض به فـ :« ...جَمَعَهم واِصْطَنَعهم و اسْتَكْثر منهم و استخدمهم في الجيش والبلاط ... »[88] . يعود ذلك لأسباب عديدة منها أن العنصر التركي عنصرا محاربا بامتياز متصفا بخصائص الجندية و القدرة على الصبر و الصمود في ساحات القتال ؛ هذه الصفات التي امتلكها من خلال طبيعة الحياة و خشونة العيش و خصوصية البيئة التي انحدر منها لكنه إلى ذلك ما كان بمستطاعه أن يتصف بما كان يتصف به العنصران العربي و الفارسي من خصال التحضر و المعرفة بما يجوز و ما لا يجوز في عرف السياسة و شروطها ، لذلك تجلى هذا القصور في العجرفة و القسوة و خشونة المعاملة[89] وخرق كل آداب و شروط و تعاليم الممارسة السياسية في دهاليز الحكم ، أو في العلاقة بالعامة في الشوارع و الطرقات ؛ الأمر الذي كثيرا ما أثار سخط العامة و استيائها . و لما أدرك المعتصم عواقب كل ذلك انتقل بهم إلى " سامراء "* [90].

---

[85] **المعتصم** : حكم بين 218هـ ـ 227هـ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 4، ص : 55

[86] محمود شاكر : **التاريخ الإسلامي** ، ط 2 ، ج 5 ، الكتب الإسلامية ، بيروت ، سنة 1985 ، ص: 180

[87] أنظر تحليل رضوان السيد لواقع صراع العصبيات على السلطة في تلك الفترة ، و يستند للأقصوصة التي كتبها سهل بن هارون ، و عنوانها " كتاب النمر و الثعلب " رضوان السيد ، المرجع السابق ، ص ص : 112 ـ 113 =

= سهل بن هارون : **كتاب النمر و الثعلب** ، تـ عبد القادر المهيري ، د ط ، منشورا ت الجامعة التونسية ، تونس ، سنة 1973 ، ص : 173

[88] فاروق عمر : المرجع السابق ، ص : 335

[89] ابن خلدون : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 547

[90]* **سامرا** : مدينة عظيمة كانت على طرفي شرق دجلة بين بغداد و تكريت . القزويني : **المصدر السابق** ، ص : 385

ياقوت الحموي : **معجم البلدان** ،المصدر السابق ، ص: 174 . جاء فيه :

لقد كانت علاقة المعتصم بأهل بغداد سيئة ، حيث أنه لم يكن يجد انسجاما بـين نزوعـه الفطري و العسكري للشدة و روح الفروسية ، و ما كانت عليه بغداد من ترف و لين ، فوجد ما كان يرجوه في الأرومة التركية ، الأمر الذي استاء له العرب و دفعهم إلى محاولة اغتياله والانقلاب على حكمه و مبايعة العباس بن المأمون سنة 222هـ إلا أن هذه المغامرة بـاءت بالفشل و نتج عنها أخطر مما كان يشكو منه العرب ؛ إذ عاقبهم بإسقاطهم من ديوان العطاء حيث لم تقم لهم قائمة بعد[91] . و استبد الترك بمقدرات الخلافة و قوي نفوذهم خاصة بعد أن فضل الواثق[92] الاستمرار على ذات السياسة ، للحد الذي جعله يعين أشناس التركي نائبا لـه مدة غيابه عن العاصمة .

جاء المتوكل[93] إلى عرش الخلافة و في برنامجه التقليص مـن سـلطة التـرك[94] ، و إعادة الاعتبار لمؤسسة الخلافة و هيبة الخليفة و التحرر من التضييق و الاستبداد الذي ظل يمارسه هؤلاء في الدولة و عليه[95] ، فعمل على إبعاد نفسه منهم من خلال تركه لسـامراء و رغبته في الإقامة في دمشق ، لكنها كانت محاولة فاشلة ، أفضت به إلى بناء المتوكلية[96]* و ربط الصلة بالقوة الحقيقية التي كانت تحضى بالدعم الشعبي في بغداد وهي قـوة الفقهـاء و المحدثين السنة فكان الانقلاب السني الذي اخذ صورة التصحيح على مستوى العقيدة ، هـو

« ...وكان لما ضاقت بغداد عن عسكر ه؛ وكان إذا ركب يموت جماعة من العميان والضعفاء لازدحام الخيل وضغطها ، فاجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا : إما أن تخرج من بغداد فإن الناس قد تأذوا بعسكرك أو نحاربك ، فقال : كيف تحاربونني ؟ قالوا : نحاربك بسهام السحر ، قال : وما سهام السحر ؟ قالوا : ندعو عليك ، فقال المعتصم : لا طاقة لي بذلك وخرج من بغداد ونزل سامراء ...»

المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 64 ــ 66

[91] فاروق عمر ، المرجع السابق ، ص ص: 336 ــ 337

[92] **الواثق** :هارون بن محمد بن هارون ، تولى الخلافة بعد المعتصم سنة 227هـ و توفي سنة 232هـ .

المسعودي : المصدر السابق ، ج 4، ص : 79

[93] **المتوكل** : جعفر بن محمد بن هارون تولى الخلافة سنة 232هـ بعد وفاة أخيه الواثق و قتل سنة 247هـ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 4، ص : 103

[94] فاروق عمر: المرجع السابق ، ص : 338

[95] يوسف العش : المرجع السابق ، ص ص : 92 ــ 93

H.gibb: government and islam under theEarly Abbasids,the poltical collapse of islam, in Lelaboration delislam, paris:Centers detudes superiors specializes pressesUniversitaires de france , 1984, pp:120 ,121

[96] * **المتوكلية** : مدينة بناها المتوكل على الله قرب سامرا ، بنى فيها قصرا سماه الجعفري وبها قتل في فانتقل الناس عنها إلى سامرا ، وخربت . ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 5 ، ص: 53

طلب لقوة و دعم وشرعية على صعيد السياسة ، لوقف الاستبداد التركي ، و تحويل قاعدة الأمان للدولة من الجند التركي المحارب إلى أن تصير العامة المتسننة عبر رموزها و قادتها هي التي تسند الدولة وتحميها ، الأمر الذي يمنحنا فهم المسلكية السياسية للمتوكل و ما عرف به من لين و تساهل وتلطف بله و تَحَنّن و تقَرّب للعوام و الفئات الشعبية من أهل السنة خاصة [97] .

لكن سياسة المتوكل لم يقدر لها النجاح ، فراح ضحية انتباه القادة العسكريين الأتراك لما يخططه لهم فتآمروا عليه مع ابنه المنتصر[98] لتنتهي به محاولته مجندلا في دمه ، و ليستأنف هؤلاء أكثر مشاهد التاريخ الإسلامي عبثية و فساد و سوء استغلال للنفوذ و استهتار بمنصب الخلافة و شخص الخليفة و المصلحة العامة للرعية[99] .

ـ المعارضة السياسية للحكّم العبّاسي في دوره الأول :

لقد ورث العباسيون التركيبة نفسها من المعارضة التي شهدها العهد الأموي ؛ كالشيعة والخوارج ، كذا الخلافات العصبية بين القبائل العربية الكبيرة و التي تؤدي في بعض من الأحيان إلى صراعات دموية . كما شهد هذا العصر جملة أخرى من الثورات و الانتفاضات نستعرض أهمها فيما يلي :

1 ــ النزاعات والعصّبيات القبليّة :

نَجَمَتْ العصبيّة الجاهليّة بقرنها بعد رحيل رسول الله صلّى الله عليه وآله، وتفاقمت حتّى آتت ثمارها المُرّة في حكم الخليفة الثالث عثمان ، وتمثّلت في أجلى صورها خلال تمكن بني أمية من الوصول إلى عرش الخلافة و الإشراف على مقدّرات الأمة الإسلامية ّ.

---

[97] أنظر التحليل العميق في : فاروق عمر : المصدر نفسه ، ص : 338

[98] **المنتصر** : محمد بن جعفر تولى الخلافة اثر مقتل أبيه المتوكل سنة 247هـ ومات سنة 248هـ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 4، ص : 157

[99] عصام محمد شبارو : **السلاطين في المشرق العربي** ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة 1994 ، ص : 10

وأَقام الأمويّون دولتهم على أساسٍ من العصبيّات القبليّة، ثمّ انهار سلطانهم بسبب منها ، و لم يُقَصّر الدعاة للرضا من آل محمد في الإفادة منها ؛ ولعل أوضح صورة لـذلك تتجلـى خلال تفاصيل نشاط أبي مسلم الخراساني. حيث ينقل المؤرّخون عبارة له تفصح عن مـدى سروره بهذه الاختلافات بين طائفتين كبيرتين من الأمويّين في خراسان، حيث قال :« اللهـمّ أفرِغ عليهما الصبر، وانزعْ منهما النصر »[100].

لكن هذه العصبيّة ظلت حية تعمل عملها حتى بعد نجاح الثورة ، فاشـتعلت فـي زمـن الخلفاء العباسيين الأوائل منهم الخلافات والنزاعات القبليّة . ونقل المؤرخـون أنّ الحـرب دارت في الشام بين المضريّة واليمانيّة، فسقط لهم أعداد كبيـرة مـن الطـرفَين قتلـى[101]؛ وظهرت العصبيّة بحمص*[102] و هي المركز الثاني لبلاد الشام[103].

وحدثت فتنة عطّاف بن سفيان الأزدي[104] من قبائل عـرب الجنـوب ، فقـد ثـار فـي الموصل*[105]سنة 177 هـ ــ 793م ، وأجبر هارون على التحرّك لمساعدة عاملـه علـى الموصل و كانت نتيجة ذلك تدمير برج الموصل وتخريبها وإخمـاد فتنـة الأزدي، فسـار عطاف إلى أرمينية[106]* ثمّ إلى الرقّة*[107] فأقام فيها[108].

واشتعلت الفتنة في مصر، وظهرت العصبيّات القبليّة، وتمرّدت قبائل قـيس وقُضـاعة ؛ فاضطرّ الرشيد إلى إرسال قائده هَرثمة بن أعيَن لإخماد الفتنة[109] . و هكذا اشتعلت الخلافات بين العصبيات المختلفة وعمّت النزاعات القبليّة أرجاء خراسان فـي عصـر هـارون[110] ،

---

[100] اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 341

[101] حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ج 2 ، ص : 47

[102] * **حمـص** : مدينة بأرض الشام كانت حصينة ، وهي أصح بلاد الشام هواء و تربة. القزويني : آثار البلاد ، المصدر السابق ، ص : 184

[103] اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 410

[104] لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة للطبقات عدا ما يرد ذكره في الأحداث .

[105] * **الموصل** : المدينة العظيمة المشهورة بالقرب من نهر دجلة بالعراق. القزويني : ، المصدر السابق ، ص : 361

[106] * **أرمينية** : ناحية بين أذربيجان و الروم ذات مدن و قرى وقلاع كثيرة . القزويني : ، المصدر السابق ، ص : 495

[107] * **الرقـة** : مدينة مشهورة على الفرات ، بينها و بين حران ثلاثة أيام ، تقع على الجانب الشرقي من الفرات .
ياقوت الحموي : معجم ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 59

[108] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 144. و ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 69

[109] ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 467

[110] ابن كثير : المصدر السابق ، ص ص : 154 ــ 153

ونشبت الصراعات بينها لتستعيد سيرتها كما كانت أيام بني أمية ، و تصنع ذات الخطر الذي صنعته للدولة حينها .

2 ـــ ثورات العلويّين :

شهد عهد المنصور سوء علاقة بين الدولة و آل البيت ، نظرا لسببين :

أولا : تخَوّف المنصور من قيامهم بالمطالبة بحقهم في الخلافة لأنها تحققت بفضل شعبيتهم ؛ إذ أن البيعة الأولى كانت أساسا لمحمد بن عبد الله المكنى بذي النفس الزكية .

ثانيا : عزم أبناء عبد الله بن الحسن على الاستمرار في المطالبة بحقهم التاريخي و الشرعي ، بمقتضى البيعة التي بادر إليها المنصور ذاته للنفس الزكية . لذلك سلكت الدولـــة مســـلك المراقبة المستمرة و التضييق الدائم لتحركات العلويين و آل الحسن بوجه خاص . فكان ما خشيه المنصور ، حيث ثار محمد في المدينة مع طائفة من العلويّين وجماعة من أتباعه ، و جرت بينها مكاتبات تدور في مجملها حول الحق الشرعي في الخلافة و المآخذ التي يأخـــذها كل طرف على الآخر[111] ، و امتدت الثورة إلى البصرة و منها إلى الكوفـــة بقيـــادة أخيـــه إبراهيم حيث التقى بجيش المنصور ودارت بينهما وقائع كادت أن تعصف بالمنصور ذاته لكن إبراهيم قُتل وفشلت ثورته[112] .

ثم كانت ثورة الحسين بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، وكان حسن الســـيرة ، كاملاً فاضلاً، ثار على الهادي سنة 169 هــ ــ 785م إثر موسم الحجّ ، لكنّ ثورته قُمعـــت في منطقة **فخ**[113]* قرب مكّة[114] ، وهرب الأخ الثالث يحيى بن عبد الله بعد قتل محمّد النفس الزكيّة متخفّياً من بلد إلى بلد، ثمّ طرق سمع الرشيد أنّ يحيى في بلاد الـــدَّيْلَم[115]* ، فعـــيّن

---

[111] الطبري : المصدر السابق ، ج 9 ، ص ص : 211 ــ 212

محمد عبد الغني حسن : **دراسات في الأدب العربي و التاريخ** ، د ط ، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة ، د تـــ ص : 262 ــ 263

[112] المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 373 ــ 376

[113] * **فـــخ** : واد بمكة ، قتل فيه الحسين بن علي بن الحسن .ياقوت الحموي : معجم ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 237

[114] محمد الخضري بك : المرجع السابق ، ص : 92 . و عبد المنعم ماجد : العصر العباسي ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص : 186

[115] ***الديلـــم** : بلاد قرب قزوين ، كثيرة الجبال و الوهاد . القزويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 330

الفضلَ بن يحيى بن خالد البرمكي[116]* حاكماً على خراسان وشمال إيران وأمره بقتله، فجهّز الفضل جيشاً قوامه خمسون ألف رجل وتوجّه إلى جرجان و طبرستان[117]* . ولمّا رأى يحيى عجزه عن مقابلة جيش الفضل ذَاكَرَه وطلب منه أن يأخذ له أماناً من هارون ، فآمنه الرشيد . ثمّ إنّ يحيى بن عبد الله قَدِم مع الفضل إلى بغداد ، فأكرمه الرشيد ، ثمّ ألقاه في السجن[118] .

لقد غدا مجرّد الاتّهام بمناصرة العلويين وأهل البيت كافياً لتعريض المتّهَم للمراقبة. فاستخدمّ الاتّهام بالزندقة أحياناً لقمع أنصار أهل البيت ، وسبق أنّ ذكرنا أن المهدي العبّاسي بدأ حكمه بتخفيف الوطء عن أهل البيت والطالبيّين إلى حدٍّ ما ، لكنّه لم يلبث إلاّ يسيراً حتّى شدّد النكير عليهم ، فصار الاتّهام بالزندقة كافياً لتعريض حتّى المقرّبين للحاكم للحبس والقتل . يقول المسعودي : « ... ثمّ اختصّ المهديُّ يعقوبَ بن داود السلمي[119]*، وخرج كتابه إلى الدواوين « أن أميرَ المُؤمنين قَدْ آخَاه » ، وكان يعقوب يصل إليه في كلّ وقت دون الناس كلّهم، ثمّ اتّهمه بشيءٍ من الطالبيّين فهمّ بقتله ...» ، ثمّ حبسه فبقي في حبسه إلى أيّام الرشيد، فأطلقه الرشيد[120].

ونقل الكثير من المؤرّخين قصّة الْبَرَامِكة : يحيى ووَلَدَيه الفضل وجعفر، وتحدّثوا عن النفوذ الواسع الذي اكتسبوه في بلاط هارون الرشيد، و أنّ اقتدار هارون وشوكته ترجع إلى جهودهم. ثمّ ذكر هؤلاء المؤرخون أنّ أحد أسباب سقوط البرامكة اتّهامهم بمناصرة العلويّين ، حيث أُدِين الفضل ــ بصورة خاصّة ــ بهذا الاتّهام . وربما حاك خصوم البرامكة هذه التهمة في ظل التنافس الفارسي ــ العربي على السلطة[121] .

---

116 ***الفضل بن يحيى*** : أبو العباس البرمكي ، من أكثر البرامكة كرما و جودا ، توفي في السجن منكوبا من طرف الرشيد سنة193 هــ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 27 ــ 36

117 * **طبرستان** : ناحية بين العراق و خراسان ذات مدن و قرى كثيرة . القزويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 219

118 نفس المصدر ، ص : 106

. ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 19 ــ 26

119 * **يعقوب بن داود** : أحد رجال الدولة العباسية في عهد المهدي قبل أن ينكبه و يحبسه حتى أطلقه الرشيد ، توفي سنة 182هــ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 19 ــ 26

120 المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 395

121 يوسف العش : المرجع السابق : ص : 58

و خرج كذلك محمد بن إبراهيم بن الفضل الحسني المكنى بأبي السرايا على عهد المأمون سنة 199هـ ـ 814م[122] ، و خرج باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر ستة 200هـ وقد تمكن المأمون من القضاء عليهما[123] . و استمرت ثورات العلويين تشتعل كلما و جدت ظروفا مناسبة ، حيث شهد عهد المعتصم خروج محمد بن القاسم العلوي في خراسان فكانت نهايته كسابقيه[124] ، أما عهد المتوكل ، رغم انحرافه المعلن و الاستفزازي عن آل البيت إلا أن عهده سلم من محاولاتهم ، ليستأنفوا في العهود التالية .

لست بصدد بحث ثورات العلويّين في هذه الفترة على نحو كامل، لكنّنا بصدد مناقشة موضوع ثورات العلويين بوصفه واحداً من المسائل الموجودة في المجتمع الإسلاميّ آنذاك وواحداً من المشكلات التي واجهها الحكم العبّاسي، من أجل أن نتعرّف على نحوٍ أفضل على الشرائط الاجتماعيّة الحاكمة في تلك الفترة .

3 ـ سائر الثورات

لقد تقاسم الخوارج ، و المُحمِّرة من أتباع أبي مسلم الخراساني والباطنيّة أهم الثورات التي ضايقت الحكم العباسي في هذه الفترة .

أ ـ ثورات الخوارج :

اشتهر الخوارج بثوراتهم على الحكم الأمويّ، وقد استمرت ثوراتهم على العبّاسيين في عصر الحكم العبّاسي أيضاً، فسبّبوا له مشكلات عديدة .

والملاحظ في هذه الفترة أنّ أهمّ ثورات الخوارج قد حدثت في خراسان ، ربما مرده للكيفية التي كان حاكم خراسان عليّ بن عيسى بن ماهان يدير بها الوضع هناك ، و قد عُرف علي بقسوته وفظاظته ، كما كان وضع خراسان في تلك الفترة مضطربا بعد تحملها عبء الثورة على الحكم الأموي[125] .

---

122 عبد المنعم ماجد : **العصر العباسي الأول** ، د ط ، ج 1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، سنة 1973 ، ص: 308

123 محمد الخضري بك : المرجع السابق ، ص ص : 162 ـ 164

124 المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 62

125 ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 120 ـ 121

أمّا الخوارج فقد ثاروا في خراسان سنة 177 هـ ـ 793م بقيادة رجل منهم يُدعى الحُصين الخارجي ـ وكان من الموالي ـ فتمكّن من السيطرة على نواحي بوشنج[126]* و هرات[127]* وسائر بلاد الشرق الإسلامي، ثمّ قُتل في النهاية على يد عامل خراسان[128] .

وثار في سنة 179 هـ ـ 795م حمزة بن أترك السجستاني على عليّ بن عيسى وعمّاله في خراسان وهرات وبوشنج ثمّ انهزم جيشه أمام القادة الذين أرسلهم هارون ـ ومن بينهم عليّ بن عيسى ـ وقُمعت ثورته. و قد استطاعت هذه الثورات أن تشكّل تهديداً جديّاً للحكم القائم، وأنّ تكسب تعاطفا نسبيا معها[129] .

ب ـ ثورات المُحمِّرة، الباطنيّة، وسواها :

نظراً لموقع شمال بلاد فارس الطبيعيّ المتميز بصعوبة مسالكه و وعورة أرضه ، فإنه غدا مناسبا لكل من تسول له نفسه الثورة على الدولة القائمة ، إذْ لم تكن السيطرة على تلك المناطق أمراً ميسوراً للولاة والعمّال . فثار المحمّرة في جُرجان[130]* سنة 162 هـ ـ 779م زمن المهدي ، وكانوا يلقّبون بأصحاب الراية الحمراء، فاتّحدوا مع الخُرَّميّة[131] وقالوا إنّ أبا مسلم الخراساني حيّ يُرزق، وطالبوا باسترجاع المُلك، وأمّروا عليهم أحد أبناء أبي مسلم الخراساني[132]

كما ثارت الخُرَّميّة والباطنيّة في أصفهان[133]* و همدان[134]* في عهد الرشيد ، فتغلّب عليهم ، وأوقع فيهم مقتلة عظيمة، وساق ذراريهم سبايا إلى بغداد[135] .

---

[126] * **بوشنج** : مدينة كبيرة من مدن خراسان ذات مياه و بساتين كثيرة . القزويني : المصدر السابق ، ص : 337

[127] ***هرات** : مدينة بفارس قرب اصطخر كثيرة البساتين والخيرات . القزويني : المصدر نفسه، ص : 281

[128] محمود شاكر : المرجع السابق ، ص : 167

[129] الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 69 ـ 72

[130] * **جرجان** : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان فبعض ،قيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة . القزويني : المصدر السابق : ص : 348 . و ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 119

[131] **الخرمية** : وهي الفرقة التي تتولى أبا مسلم وتدعى بالمسلمية القائلون بأبي مسلم وإمامته، وقد تنازعوا في ذلك بعد وفاته فمنهم من راى إنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الأرض عدلاً، وفرقة قطعت بموته وقالت بإمامة ابنته فاطمة، وهؤلاء يُدْعَوْنَ الفاطمية . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 371

[132] الطبري : المصدر السابق ، ج 9 ، 342 . و اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 397

[133] * **أصفهان** : مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ويسرفون في وصف عظمها حتى يتجاوزوا حد الاقتصاد إلى غاية الإسراف . وأصبهان اسم للإقليم بأسره ، وكانت مدينتها أولا جيا ثم صارت اليهودية ، وهي من نواحي الجبل

ج ــ الانتفــاضات :

حصلت في طول الفترة التاريخية لهذا العصر جملة من الانتفاضات في أصقاع متعــددة من الرقعة الإسلامية ، كخراسان و الموصل و الشام و مصر و الجزيــرة[136]* و غيرهــا ، احتجاجا على أمر عديدة أهمها قضايا العصبية و ميل الولاة و العمال لقبيلة دون الأخــرى ، و جباية الخراج و عَسْف الولاة و سوء المعاملة وأمور أخرى ، فكان من بينها ثورة ثــروان بن سيف بسواد العراق سنة 191هــ ، و ثورة أهل خراسان على علي بن عيسى و التفّافهم حول رافع بن نصر (أو رافع بن الليث) سنة 190هــ ــ 806م، إذ تبعه منهم عدد كبيــر وعَلَا أَمْرُهم حتّى أُجبر الرشيد على السفر بنفسه إلى خراسان[137] وغيرها[138].

الوجه الحضاري الدنيوي للحكم العباسي :

نستطيع ملاحظة صدق نظرية ابن خلدون في مراحل تشكل الدولة التي تبدأ من الثــورة التي يكون جيلها من القادة موسومين بالقوة و الصلابة و الجلد لغاية استقرارها و قوتها

و قد كان عصر السفّاح والمنصور و المهدي عصر البنــاء و التثبيــت ، تــلاهَ عصــرُ الاستمتاع بالحكم وقطف ثماره، وهو عصر بلغ أوجَه في زمن هارون الرشيد.

وقد امتازت طريقة العيش ــ وخاصّة لدى الحكّام ــ بكونها خليطاً من حياة سَكَنة الحجاز وبلاد فارس الساسانيّة، فقد جسّدت بعض وجوه الحياة في ذلك العصر عادات البادية، بينمــا

كانت مساحة وأصبهان ثمانين فرسخا في مثلها وهي ستة عشر رستاقا كل رستاق ثلاثمائة وستون قرية قديمة سوى المحدثة .

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص: 206 ــ 207

[134] * **همــذان** : مدينة مشهورة من مدن الجبال ، لها رقعة واسعة لم تزل محل سرير الملوك ، كثيرة البرد .

القزويني : المصدر السابق : ص : 483

[135] اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 397

[136] * **الجزيرة** : بلاد تشتمل على ديار بكر و مضرو ربيعة ، و إنما سميت بالجزيرة لأنها بين دجلة والفرات .

القزويني : آثار البلاد ، المصدر السابق ، ص : 351

[137] : « وفيها (في سنة 191 هــ) غلظ أمر رافع بن ليث بسمرقند ، وفيها كتب أهل « نَسَف » إلى رافع يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجّه إليهم مَن يُعينهم على قتل عيسى بن علي.. فأتوا عيسى بن عليّ فأحدقوا به وقتلوه... » .

الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 100

[138] مثل: ثورة نصر بن شيث بحلب على المأمون ، و بني نمير في اليمامة على المعتصم. أنظر :

جمال سرور : االحياة السياسية ، لمرجع السابق ، ص : 227 . والخضري بك : المرجع السابق ، ص : 228

امتازت الوجوه الأخرى ــ إثر نفوذ الفرس في البلاط ــ بالرفاهيّة والترف الذي اشتهر بــه الملوك الساسانيّون . و شاع اتّخاذ الجواري ، والقِيَان و المَحْضِيَات . الأمر الذي أفرز ثقافة كاملة و أدبيات اختصت في الحديث عن التفاصيل التي عجت بها القصــور المنتزهــات و مجالس الطرب و الأنس ، بحيث نستطيع أن نجعله العصر الذي أسس لمجمل ما نطلق عليه الحضارة الإسلامية و نعني الوجه المادي لها .

فجاء هارون الرشيد وحاشيته نموذجاً لأخلاق الناس في عصره ، و كان أصدق صورة لما عرفه تطور الحياة ، الأمر الذي صنع أسطورته المستقرة في ذاكرة التاريخ و الحضارة الإسلامية ، فكانت سيرته مثار التساؤل و الاستغراب ، للمتناقضــات التــي وجــدت لهــا اصطلاحا في شخصيته ، أين يجتمع سرور المتعة في دهاليز القصر و المقصــورات مــع البكاءً الحار لدى سماع أشعار أبي العتاهية و و عظ الوعاظ [139]، و قــد تــواتر النقــل أنّ هارون كان يصلّي مائة ركعة في اليوم، وأنّه سار على قدميه إلى مكّة للحــجّ فــي إحــدى السنوات، وأنّه كان إذا حجّ اصطحب معه مائة نفر من الفقهاء، وأنّه إذا لم يتمكّن من الحــجّ سنةً أرسل ثلاثمائة فقيهاً للحجّ على نفقته بالنفقة السابغة و الكسوة التامة[140] .

أما الصورة الأخرى فقد توسع المسعودي في وصف تفاصيلها ؛ بحيــث تــرك انطباعــا يختلف اختلافا جذريا عن صورته حاجا غازيا[141] ، و ذكر غيره من المــؤرّخين أنّ قصــر هارون كان يعج بالجواري المجيدات لكل صنوف المتعة و اللهو ، و ذكــروا كثيــرا مــن قصص السمر وحكايات الترف ، وكان الولاة يتقرّبون إلى « الخليفة » بإرسال الهدايا الثمينة بلا حساب، وكانت هداياهم تتناسب مع ذوق الخليفة وتلبّي رغبات البلاط وتنسجم مع الجــوّ السائد في بغداد[142]. وفي زمن هارون مات محمّد بن سليمان والي البصرة، وكان هارون قد نقم عليه بدسيسة من أخيه جعفر، فقبض أمواله بالبصرة فكان مبلغها نيفا و خمسين ألف ألف درهم سوى الضِّياع والدُّور والمستغلاّت، كما نقل المسعودي أنّه كان يغلّ كلّ يوم مائة ألف

---

139 أبو سعيد الآبي : **نثر الدر** ، تــ عثمان بو غانمي ، د ط ، الدار التونسي للنشر ، تونس ، سنة 1983 ص : 114

140 ابن كثير : المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 178

141 المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 456 ــ 457

« ... وكان أبو صدقة يوقع بالقضيب ، مطبوعاً حاذقاً، طيّب العشرة مليح البادرة، فاقترح الرشيد ــ وقد عَمِل فيه النبيذُ ــ صوتاً فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يُغنّيه، ففعل ، فلم يطرب عليه... » . أنظر كذلك صفحة 455 ــ 456

142 ابن عاصم الغرناطي : حدائق الأزاهر ، تــ عبد اللطيف عبد الحليم ، د ط ، المكتبة العصرية ، بيروت ، سنة 1992 ، ص : 383

درهم[143] . و جاءت الروايات عن البرامكة في هذا الصدد ما يكاد يقترب من الأساطير، خاصة منها المتعلقة بجعفر البرمكي ؛ حيث جاء عنه في باب الترف و المتعة أنه : « ... اشترى جارية بأربعين ألف دينار... » و «... كانت أمه ترسل إليه كل يوم جمعة جارية بكرا عذراء ، وكان لا يطأ الجارية حتى يأخذ شيئا من النبيذ ... »[144]. وقد أشار اليعقوبي في تاريخه إلى بعض السبل المتعسفة التي اتّبعها الرشيد في كسب هذه الثروات العظيمة، فقال: « ... وأخَذَ الرشيدُ العُمَّال والبُناة والدَّهاقين وأصحاب الضياع والمُبْتَاعين للغلاّت والمقبّلين ــ وكان عليهم أموال مجتمعة ــ فولّى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم بن سلم[145] فطلبهم بصنوفٍ من العذاب ... »[146] .

و يقص المؤرخون كيف أن عليّ بن عيسى أرسل للرشيد هديّة لم يُرسلها أحد قبله ، فلمّا عُرضت هديّته على الرشيد بُهت وتحيّر وسُرّ سروراً كبيراً ، ثمّ قال لجعفر البرمكي : أين كانت هذه أيام أخيك ؟ ، فأجابه جعفر معرضا بالظلم الحاصل من علي : كانت في منازل أربابها فلم تُعجِب هارونَ إجابةُ جعفر[147] .

وقد افرز العصر مجموعة الشعراء الذين عرفوا بالتهتك و الخلاعة و رقة الدين ، و كان أبو نواس ممثلا لها و الذائد عن مذهبها في جل أشعاره ، حيث كان يدور بجماعته على الحانات وأديرة أطراف بغداد، حيث يُعاقرون الخمرة ويرتكبون فُنون المجون ليصفها في شعره[148] .

---

143 المصدر نفسه ، ص : 428

144 ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 332 ــ 333

145 لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة

146 اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 415

147 ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 344

148 إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني : المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبذة و الخمور : تــ عبد الحفيظ منصور ،

د ط ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، سنة 1976 ، ص : 220 ــ 234

حامد حفني داود : تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ط 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1993 ، ص ص : 23 ــ 24

مصطفى بيطام : مظاهر المجتمع و ملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1995 ، ص ص :75 ــ 88

و قد جهد ابن خلدون في ــ خضم سيل النصوص و الأخبار التي عجت بهــا المجــاميع الأدبية بخاصة ــ في الدفاع عن هارون ، مؤولا ما لم يستطع دفعه من الروايات مــع مــا يتناسب مع مسلكية خليفة يغزو و يحج و يعاشر الفقهاء و يسامر الزهاد[149] .

وعلى أيّ حال ، كان عصر هارون عصر الحكايات الخياليّة لألف ليلة وليلة، وكان عصر الملذّات التي لا حصر لها ، لكنه أيضا عصر القوة و صــلابة الدولــة ، و وفــرة الرخــاء الاقتصادي . حيث المال يبحث عن مصادر صرفه[150] ، و حيث رقة الدين مدعاة لتطــوير أشكال المتع حتى ما يعارض الفطرة السوية منها .

أهل السنة و الجماعة ؛ النشأة و التكوين :

المفهــــوم :

* تعريف السنة لغة : " الطريقة المسلوكة وأصلها من قولهم ســننت الشــيء بالمســن إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنا أي طريا وقيل هي الطريقة المعتادة سواء كانــت حســنة أو سيئة ، كما في الحديث الصحيح : " مَنْ سَنّ سُنَةً حَسَنَة فَلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إِلــى يَوْمِ القِيَامَة ، ومَن سَنَّ سُنَةً سَيئَة كَان عَلَيْه وِزْرُها و وِزْر من عمل بها إلى يوم القيامة "[151]

---

[149] ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص ص : 39 ــ 30

[150] حسن أحمد محمود و آخرون : **العالم الإسلامي في العصر العباسي** ، د ط ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د تــ ، ص : 171

أحمد عبد الرزاق أحمد : **الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى** ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة 1999 ص ص : 150 ــ 151

[151] الحديث صحيح ورد في صحيح مسلم أنظر : مسلم بن الحجاج النيسابوري : **صحيح مسلم** ، ت محمد فؤاد عبد الباقي ، دط، ج 4 ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، د ت ، ص : 2059

.

وتطلق في عرف الفقهاء على ما يقابل البدعة ، ويراد بها كل حكم يستند إلى أصول الشريعة . في مقابل البدعة فإنها تطلق على " ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة "[152] . أما عند الأصوليين فهم متفقون على صدقها على " ما صدر عن النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير[153].

من خلال هذه التعريفات يتبين أن لـ " السنة " في الاصطلاح مفهومين أو معنيين :

الأول : ما يقابل البدعة أو ما ليس له أساس في الشرع[154] .

الثاني : قول الرسول وفعله وتقريره . أما قولنا " أهل السنة " أي أصحاب أو أتباع المقتدون بسنة النبي من فعل وقول وتقرير[155] .

النشأة التاريخية :

لقد كانت الفتنة وما صاحبها من أحداث ثم ما تلاها من وقائع ؛ المنبع الذي صدرت عنه مختلف الاتجاهات الإسلامية التي أخذت في المدونات الكلامية مسمى الفرق فأفرزت ما كان يعتمل ببطء في أعماق المجتمع الإسلامي ، وما ظل يتأسس منذ نجاح حركة الفتوح

---

[152] سليمان الندوي : **تحقيق معنى السنة** ، تـ عبد الجبار الدهلوي ، د ط ، دار الفجر دمشق ، د ت ، ص ص : 71 ـ 74

[153] نفس المرجع ، نفس الصفحة

عبد الكريم الرد يني : **مباحث في تاريخ الحديث و مصطلحه** ، دط ، شركة شهاب ، الجزائر ، د ت ، ص ص : 12 ـ 15

أنظر وجهة نظر حديثة : محمد أركون : **الفكر الإسلامي نقد و اجتهاد** ، تـ هاشم صالح ، ط 3 ، دار الساقي ، المغرب سنة 1998 ، ص ص: 101 ـ 102

[154] أبو محمد حسن بن علي البربهاري : **شرح السنة** ، د ط ، دار الإمام مالك ، الجزائر ، سنة 2003 ، ص ص : 14ـ 15

[155] جلال الدين السيوطي: **مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة** ، ط 2 ، مطابع الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، سنة 1408هـ ص : 72

التي أورثت الأمة الإسلامية تركة الإمبراطوريتين الفارسية و الرومانية ، وما كان مستطاعا استيعاب الوتيرة المتسارعة التي تحققت بها الفتوحات وما كانت تقتضيها من تدابير ورؤى.

لقد كان عمر بابا مقفلا على الفتنة ، و كأنها كانت تنتظر مقتله لِيَهِيج هَيْجُها[156]، وما كان بمستطاع عثمان وقد سلك سياسة مرنة منفتحة أن يستوعب الصراع الذي كان قد بدأ يحتدم في الأمصار، إذ أخذت بذور الشقاق و الاختلاف تنمو بادئة من صميم القرآن ، حيث أرسل إليه أحد الصحابة[157] :«...أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كاختلاف اليهود والنصارى...»[158]. في الحين الذي ذاعت فيه صيحات التذمر و النقد مستهدفة مسلكيته[159] ، متهمة إياه تهما شتى . وتوالت الأحداث و تطورت بوتيرة متسارعة في جو لا يخلو من غموض ؛ مما يوحي بوجود أصابع مغرضة كانت تعبث بمكتسبات الأمة لتجهضها ، سواء من الفرس الموتورين أو من اليهود الذين أجلاهم عمر من الجزيرة العربية دون رجعة .[160] يعضد هذه الأهداف الأجنبية رغبة أموية في احتكار خيرات السواد وعوائد الغنائم و الفيء ممن أعشت خضرة السواد أعينهم عن الوفاء بمبدأ المساواة الإسلامي «...إِن هَذَا السَّواد بُسْتَان لقريش...»[161]. و ينتهي عثمان نهاية دموية بعد حصار مرير في داره بعد أن أطلق نبوءته المنذرة : « ... فوا لله لئن قتلتموني لا تُحَارِبُون بعدي جَمِيعًا ، و لا تُصَلون بعدي جميعا ، ولا تقاتلون بعدي جميعا عدوًا أبدا ...»[162] . وتطورت الأحداث لتصل إلى الصراع

---

[156] نفس المصدر ، ص : 219

[157] هو الصحابي حذيفة بن اليمان

[158] ابن كثير : المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 174

[159] عبد الله بن مسلم بن قتيبة : **الإمامة و السياسة** ، د ط ، ج 1 ، تـ طه محمد الزيني ، دار المعرفة ، بيروت ، د ت ص : 35

[160] لقد قتل عمر على يد أبي لؤلؤة المجوسي ثأرا للفرس ، أما اليهود فيحضرون ممثلين في شخصية عبد الله بن سبأ الغريبة .

[161] المسعودي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 401 ــ 402 . جاء فيه : « ... فلما دخل سعيد الكوفة والياَ أبى أن يصعد المنبر حتى يُغْسَل ، وأمر بغَسْلِهِ ، وقال: إن الوليد كان نجساً رجساً، فلما أتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة فاستبد بالأموال، وقال في بعض الأيام أو كتب به عثمان : إنما هذا السواد قطين لقريش، فقال له الأشتر، وهو مالك بن الحارث النخعي: أتجعل ما أفاء اللّه علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك؟ ثم خرج إلى عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة فذكروا سوء سيرة سعيد بن العاص، وسألوا عَزْلَه عنهم...»
ابن كثير: المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص ص : 133 ــ 134

[162] ابن كثير : المصدر السابق ، ص : 148

بين الإمام علي و معاوية للحد الذي غدا مستعصيا على التفاهم إلا من خلال السيف ، لأن علي ظل مصرا على استحصال الطاعة من معاوية و من معه من أهل الشام بمقتضى حق الخلافة[163] ، في الوقت الذي استمر معاوية يطالب فيه بالمبادرة بالثأر من قتلة عثمان و اتهام علي بحمايتهم[164] ، الأمر الذي جر غالبية الأمة إلى الوقوف إما على جانب علي أو معاوية ، في الوقت الذي فضل بعض كبار الصحابة و صغارهم اعتزال الصراع وانتظار النتيجة التي ينكشف عنها[165] .

و كانت الأفكار تصاحب الأحداث و تتطور بتطورها[166] ، و كان صف علي أكثر تنوعا و أقل انسجاما ، الشيء الذي عرضه لانقسامات عديدة في صفوفه ، جعلته يخضع من غير رضا منه إلى الحل السلمي عبر ما عرف بـ " التحكيم "[167] ، لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح فعاد ينظم صفوفه للاستمرار في نضاله ، لكن الإختلالات العميقة في صفه أدت في النهاية إلى إفراز جماعة من القراء المتعنتين الذين حملوا بعد ذلك مسمى " الخوارج " [168]؛ و بلغ اختلافه معهم لحد الصدام المسلح[169] حيث انتصر عليهم ، فولت فلولهم تدبر مكيدة

---

[163] ابن قتيبة : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 48 ــ 49

[164] سالم البهنساوي : **الخلافة و الخلفاء الراشدون بين الشورى و الديمقراطية** ، ط 1 ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة

سنة 1991 ، ص ص : 277 ــ 278

[165] أبو محمد بن قتيبة : **الإمامة و السياسة** ، ت طه محمد الزيني ، د ط ، دار المعرفة ، بيروت ، د ت

ص ص : 89 ــ 91

[166] موسى لقبال : " **الخلافة أساس الفكر السياسي و الحزبية في المجتمع الإسلامي في عصوره الأولى**" ، مجلة **الدراسات التاريخية** ، جامعة الجزائر ، العدد الرابع ، سنة 1988 ، ص ص : 23 ــ 28

[167] أبو بكر بن العربي : **العواصم من القواصم** ، تــ عمار طالبي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، دت ، ص ص : 418 ــ 421

[168] المسعودي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 487 ــ 490

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي : **خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** ، ط 2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1996

عمار طالبي : **آراء الخوارج الكلامية** ، ، د ط ، ج1 ، المكتب المصري الحديث للطباعة و النشر ، الإسكندرية ، د ت ،

ص : 16

إحسان عباس : **ديوان شعر الخوارج** ، ط 4 ، دار الشروق ، بيروت ، سنة 1982 ، ص ص : 43ــ 44

[169] محمد علي أبو ريان : **تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام** ، ط 2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة 1976 ، ص ص : 124 ــ 125

الخلاص ممن اعتبروهم رؤوس الفتنة ؛ علي و معاوية و عمرو بن العاص ، و هكذا قتل علي و نجا الآخران . وقد دفعت النهاية المأساوية للإمام علي و ما تلاها من أحداث فريق آخر من مناصريه و محبيه إلى الالتزام بقضيته و التأكيد على فضله و أحقيته ، هذا الفريق الذي شكل بذرة للتيار الذي سيعرف فيما بعد مسمى " الشيعة "[170] ، أما في الجهة الأخرى ؛ في أرض الشام فقد كانت الانتماء الأموي آخذا في التعمق و الرسوخ انطلاقا من " العثمانية " التي تمتلك تبرير وجودها في ذكرى الخليفة المقتول ، إلى التعلق بـ " القبيلة " القرشية العريقة في الشرف والوجاهة [171] . و هكذا انقسمت وحدة الجماعة الإسلامية إلى فرق أقرب في مضمونها إلى الأحزاب السياسية المعاصرة لكونها تتبنى مطالب سياسية وتدعي حقوقا في السلطة مغلفة بالمقولات و المبررات الدينية .

وإثر مقتل علي آلت خلافته لابنه الحسن ، و يبدو أن للحسن رأي يختلف عن رأي أبيه في فهم الصراع و الآليات التي تحكمه ، و له رأي في طبيعة الجيش الذي أصبح يقوده ، كما يبدو أنه يملك طبيعة شخصية تختلف عن طبيعة والده ، فلم يكن يحبذ الاستمرار في القتال ، خاصة مع التخاذل الموجود في صفه ، فجنح للحل السلمي[172] ؛ و قد تم في العام الأربعين من الهجرة ؛ الذي أخذ اسم " **عام الجماعة** " ، احتفاء بعودة الأمة إلى وحدتها ، و إن ظلت منقوصة الأطراف ، لإصرار الخوارج على استعمال السلاح و منابذة الأمة ، و

1**الشيعة** : هي الفئة من المسلمين التي ناصرت عليا في مطالبته بالخلافة ثم تطورت عبر الأحداث و من خلال التضييق الأموي الى فرقة كلامية لها أفكارها ثم ما فتئت تتطور و تتعمق ابان الحكم العباسي لتشكل جمهورا من المسلمين يقابل في العادة جمهور السنة . دي بور: **تاريخ الفلسفة في الإسلام** ، تـ محمد عبد الهادي أبو ريدة ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، د ت ، ص : 28

ديلاسي أوليري : **الفكر العربي و مكانته في التاريخ** ، تـ تمام حسان ، د ط ، عالم الكتب ، القاهرة ، د ت ، ص : 110

حسين أحمد أمين : **دليل المسلم الحزين** ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر ، د ت ، ص ص : 115 ـ 120

ي . هل : **الحضارة العربية** ، تـ إبراهيم العدوي ، د ط ، مكتبة الأنجلو مصرية ، مصر ، د ت ، ص : 63

[171] المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 36 ـ 37

[172] نفس المصدر ، ج 2 ، ص ص : 521 ـ 523 .

ابن قتيبة : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 140 ـ 141

محمد أمين غالب الطويل : **تاريخ العلويين** ، ط 4 ، دار النفائس ، بيروت ، سنة 1981 ، ص : 177 =

= لقد جاءت أحاديث عن النبي صلى الله عليه و سلم تبشر و تنوه بفعل الحسن ، و هي من قبيل النبوءات . راجع :

ابو العباس أحمد بن تيمية : **الخلافة و الملك** ، تـ حماد سلامة ، د ط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، د ت ، ص : 84

تأكيد شيعة علي على حقه و حق أبنائه في الخلافة ، و رفض شرعية السلطة الأموية ، و مضى الاتجاهان للتطور والتعمق ، حيث خاض الخوارج سلسلة طويلة من الثورات و الغارات على طول تاريخ الحكم الأموي ؛ أرهقت الدولة و عجلت بسقوطه[173] ، و اتجه الشيعة إلى تطوير جملة من الأفكار الغالية لم تكن معزولة عن الأحداث المأساوية التي شهدها آل البيت طيلة الحكم الأموي ، والقيام ببعض الانتفاضات الفاشلة التي زادت في التضييق و المتابعة الأموية لكل من يدعي الهوى العلوي . أما الجمهور الأعظم فقد التف حول الدولة بدرجات مختلفة من القرب و البعد مدفوعا ببواعث و علل ونوايا متنوعة و متباينة .

إذن لقد أفصحت الفتنة و ما نتج عنها على اتجاهات ثلاثة : الاتجاه الخارجي ، و الاتجاه الشيعي ، و بقية الأمة " الجمهور الأعظم " . و ضم كل اتجاه في داخله جملة متباينة من القناعات و الرؤى و الإجتهادت ، حيث تطورت إلى انقسامات و انشقاقات لم تتورع عن الوصول إلى الصراع المسلح .

ولقد كان الجمهور الأعظم جبة فضفاضة واسعة[174] ؛ غير متجانسة و غير منسجمة ، يجمع عناصرها الخضوع للدولة مجسدة في شخص معاوية و أنصاره و يفرقها الدواعي الضرورات المختلفة لهذا الخضوع ، بحيث نستطيع من خلال استقراء الروايات و الآثار إجمال هذه الدواعي في التالي :

ــ قسم وقف مع معاوية منذ البداية ملتزم بالولاء له و الطاعة : يمثله العائلة الأموية وقطاع مهم من قريش و أهل الشام الذين شكلوا " عصبة الحكم " .

ــ قسم تحول إلى صف معاوية بعد مقتل علي :و هذا القسم يتوزع على فئات مختلفة يجمعها اعترافها بالدولة القائمة و تفرقها النوايا المختلفة ، و هي كالتالي :

---

[173] لقد حاول عمر بن عبد العزيز رأب الصدع ، إلا أن قصر مدة حكمه حال دون نجاح ذلك . أنظر :

أبو محمد عبد الله بن الحكم : **عمر بن عبد العزيز** ، د ط ، تــ أحمد عبيد ، دار الهدى ، مليلة ، سنة 1996 ، ص : 130

عبد الرحمن الشرقاوي : **خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز** ، ط 1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1987 ، ص ص : 223 ــ 228

[174] إبراهيم رحماني : **محاضرات في المدخل للتشريع الإسلامي** ، ط 1 ، شركة مزوار الوادي ــ الجزائر ، سنة 2005 ص : 71

• فئة استمرت مع علي و ابنه الحسن لغاية تنازله ، ثم انخرطت في صف معاوية طلبا لثمرات الحكم التي لوح إليها معاوية في خطابه الشهير بالمدينة ؛ و التي أخذت صفة المشاربة الحسنة و المؤاكلة الجميلة ، و يمثل هؤلاء زياد بن أبيه عامل علي على بلاد فارس .

• فئة وقفت مع علي و الحسن حتى النهاية ، ثم انخرطت في الدولة بمقتضى اتفاق الجماعة بين الحسن و معاوية طلبا لرأب الصدع و تجاوز الفتنة[175] .

• فئة كانت قد اعتزلت الصراع خشية الخوض في الدماء ثم عادت لتدعم الدولة كضرورة لاستتباب الأمن و ضمان مصالح الأمة الدينية و الدنيوية ، و من بين هؤلاء عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو و غيرهما .

ويجمع فئات هذا القسم مساندة الدولة الأموية القائمة لمقتضى الضرورة أو الاتفاق ويفرقها أيضا مسلكيتها و علاقتها المباشرة مع جهاز الدولة ؛ إذ يكشف استقراء النصوص المتعلق بهذا القسم عن التمييز بين : فريق ساند الدولة و لم يجد غضاضة في العمل لها ومبادلتها المنافع والمصالح المادية كبعض الأشراف و الأعيان و وجوه الناس الذين حفظ لهم معاوية مكانتهم في خطته لإعادة هيكلة الأمة و استيعابها[176] ، و فريق آخر فضل

---

[175] و يمثل هؤلاء الأحنف بن قيس سيد بني تميم : «...كان من جلة التابعين وأكابرهم، وكان سيد قومه، موصوفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم، روى عن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وروى عنه الحسن البصري وأهل البصرة، وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين، ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين...». «...ولما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوماً فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة، فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدن من الحرب فتراً ندن منها شبراً، وإن تمش إليها نهرول إليها، ثم قام وخرج. وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين، من هذا الذي يتهدد ويتوعد قال: هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب ...» . أنظر :

ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 499ـ500

[176] مثل زياد ابن أبيه الذي كان عاملا لعلي في بلاد فارس ثم قبل العمل في دولة معاوية بعدما أالحقه معاوية بنسب أبي سفيان «...ولما استلحق معاوية زياداً وقربه وأحسن إليه وولاه ، صار من أكبر الأعوان على بني علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه،... » .

ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 6 ، ص ص : 359 =

= ويورد ابن خلكان أيضا النص التالي «...ثم إن عبيد الله جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية .. فقال لهم معاوية: اشهدوا علي أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون

الاعتراف بالدولة انطلاقا من كونها ضرورة لازمة للعودة بالأمة إلى و حدتها و تجاوز انقساماتها ، فانحصر تعامله مع جهاز الدولة في دائرة الضرورة و الضرورة تقدر بقدرها ؛ و قدرها لدى هؤلاء في الاكتفاء بتأييد الدولة مع الإصرار على اعتزال دوائر السلطة ، و التوقف نهائيا في أمر مشاركتها في السياسة و الحكم ، و صرف الوقت في العبادة و الجهاد و تعليم الناس[177] . في حين اكتفى فريق آخر بقبول بعض الوظائف الدينية اللازمة كالقضاء من غير مشاركة في التمتع بثمرات الحكم والتمرغ في نعمته[178] .

يعني هذا أن الدولة الأموية لم يقدر لها الحصول على إجماع الأمة الإسلامية على قبولها ومساندتها و الرضا بحكمها ، فأخذ الصراع السياسي منذ البداية طابع الجدل الديني ؛ بحيث كان الموقف السياسي عادة ما يعرض في صيغة الحكم الشرعي ، و استعرض الاختلاف السياسي نفسه في الساحة الإسلامية في صورة الفرق الكلامية ؛ بحيث كان واضحا المعنى السياسي لكل من الخوارج و الشيعة والجمهور الأعظم الذي أخذ مسمى " أهل السنة والجماعة " المتحَدِّد بالموقف من الدولة الأموية قبولا و رفضا و بهوية صاحب الحق في أن يكون على عرش الخلافة ، و خاضت هذه الاتجاهات جدلا كلاميا قاسيا مفعما بالتكفير و التبديع و التفسيق والإخراج من الملة و تطبيق هذه الأحكام في الواقع[179] ، لكن لم تمنع القسوة من حصول بعض مستويات الجدل الهادئ و النقاش والحوار العميق ، حيث نتج عنه

إلي بعد ثلاثة أيام. فلما خرجوا من عنده **كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة** لأنفسهم وفيهم من عين غيره وسعوا في السر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه فجعل كل واحد يذكر شخصاً، وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت ... » .

ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص :503

[177] مثل عبد الله بن عمر و عبد الله بن عمرو

[178] مثل القاضي شريح «...استقضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة، فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير، واستعفى الحجاج بن يوسف من القضاء فأعفاه... »

ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص :460

[179] عبد القاهر البغدادي : **كتاب الملل و النحل** ، تـ ألبير نصري نادر ، ط 2 ، دار المشرق ، بيروت ، د ت ، ص ص : 154 ــ 159

أحمد بن يحيى المرتضى : **المنية و الأمل في شرح كتاب الملل والنحل** ، تـ توما أرنولد ، د ط ، دار صادر بيروت ، سنة 1316 هـ ، ص : 20

تكون اتجاه القدرية[180] الذي تطور في بداية العهد العباسي و أخذ مسمى " المعتزلة " ، و جاء في بدايته نتاجا لتداخل سني ــ شيعي[181] ، و تكون اتجاه " الإباضية " الذي جاء نتاج تداخل سني ــ خارجي[182] ، و نشوء اتجاه " الزيدية " الذي كان نتاج تداخل سني ــ معتزلي ــ شيعي[183] .

وظلت الاتجاهات المناوئة للدولة تنشط في الأمصار القاصية عن دمشق عاصمة الدولة نشاطا مسلحا ظاهرا كثيرا ما استطاعت الدولة تطويقه و التغلب العسكري عليه ، لكن نشاطا آخر كان يتنامى مستغلا هامش الحرية الكلامية التي أقرها معاوية لتجد فيه المعارضة الفاشلة أو الخائفة مجالا لممارسة السياسة على صعيد العلم و القول الديني ، و قد تناول الكلام بداية جملة من المسائل العقدية التي أفرزتها أوضاع ما بعد عثمان ، و تمس مفاهيم : الإيمان والإسلام و الكفر و الفسق و النفاق و الحكم في مرتكبي الذنوب و المعاصي ، و الفرق بين الصغائر و الكبائر ، و قد كانت هذه المسائل غارقة في صميم الراهن التاريخي ، صادرة عن انشغال ديني ــ سياسي ، رغم أنها تبدو متعالية و منفصلة وبعيدة عن الواقع . و لما كان كل اتجاه يعتقد انه يمتلك الحقيقة و الصواب و حق تقريرهما دون غيره و لما كانت الحقيقة في ذلك الوقت لا تعني شيئا غير الإسلام ؛ فقد نتج عن ذلك دعاوى احتكار كل اتجاه للإسلام ، مما يعني أن الآخرين فاسقين أو منافقين أو مارقين أو كفرة ؛ الأمر الذي

---

[180] **القدرية** : فرقة نشأت في العراق ، سميت كذلك لقول أصحابها بحرية إرادة الإنسان ، و يقال أن اول من تكلم بالقدر هو
غيلان الدمشقي ، و قد تطورت في أواخر الحكم الأموي لتصير ما عرف بالمعتزلة ، على يد واصل بن عطاء و صاحبه عمرو بن عبيد ، و واضح أن قولها بالحرية ردة فعل على فكرة الجبر التي حاول بنو أمية نشرها لتبرير وصولهم للحكم . ويلاحظ ثمة تأثير متبادل بين الشيعة و المعتزلة ، إذ تأثر شيوخ المعتزلة بأئمة آل البيت في البداية ، ثم عاد الشيعة ليقتبسوا من أفكار المعتزلة ، ولعل دليل ذلك العلاقة الوطيدة بين الزيدية و المعتزلة . أنظر : =

= جمال الدين بن نباتة المصري : **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون** ، تــ محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ط ، دار الفكر العربي ، د مكان النشر ، د ت ، ص ص : 289 ــ 290

حسن إبراهيم حسن : **تاريخ الإسلام السياسي والديني و الثقافي والاجتماعي** ، ط 14 ، ج 2 دار الجيل ، بيروت ، سنة 1996 ، ص ص : 11 ــ 12

[181] نفس المصدر ، ص ص : 83 ــ 84

[182] يحي محمد بكوش : **فقه الإمام جابر بن زيد** ، ط 2 ، ج 1 ، دون ذكر دار النشر، سنة 1988 ، ص ص: 26 ــ 29

عمار طالبي : المرجع السابق ، ص ص : 206 ــ 210 ، ص ص : 215 ــ 220

[183] علي سامي النشار : **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام** ، ط 4 ، ج 2 ، دار المعارف ، مصر ، سنة 1969 ، ص: 149

توضحه المسيرة التاريخية للخوارج الذين استباح بعضهم قتل أولاد و نساء المسلمين و استحلال دمائهم وأموالهم فضلا عن الرجال ، في حين أعطوا الأمان و الحماية للكافرين حقيقة[184] ، وما تكشفهالعلاقات المتوترة بين الشيعة و من ظل مساندا للدولة الأموية معترفا بها ، كذا المطاردات و الملاحقات التي شنها فقهاء الجمهور لمُتَكَلمي الاتجاهات الأخرى عبر الفتاوى والأحكام[185] .

إذن يمكننا أن نقول أن تيار أهل السنة و الجماعة تحدد في البداية من خلال موقف الولاء للخلفاء الصحابة الأربعة دون فرق[186] ، ثم للخضوع السياسي للحكم الأموي و الاعتراف بالدولة الأموية ، و كان ذلك هو موقف جمهور المسلمين في مقدمتهم بقية صحابة النبي صلى الله عليه و سلم ، بغض النظر عن الممارسات الخاطئة و الباطلة لجهاز الدولة ، في سياق البحث عن تسوية سياسية تتجاوز الفتنة و تعود بالأمة إلى وحدة صفها[187] ، الأمر الذي يبدو في تميز أهل السنة عن غيرهم بقناعات عديدة منها : تولي جميع الصحابة و الترحم عليهم و ترك الخوض في أخطائهم واعتبار ما صدر عنهم أيام الفتة محض اجتهاد لا ينفكون فيه من أجر أو اثنين[188] ، وتجويز الصلاة و الجهاد مع الحاكم الفاسق و أداء الزكاة

---

[184] عمر سليمان الأشقر : **الأضواء السنية** ، د ط ، دار الشهاب ، الجزائر ، د ت ، ص ص : 16 ـــ 17

[185] علي مصطفى الغرابي : **تاريخ الفرق الإسلامية** ، د ط ، مطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة ، د ت ، ص ص : 21 ـــ 22

[186] أبو العباس أحمد بن تيمية : **منهاج السنة النبوية** ، تـــ محمد رشاد سالم ، ط 1 ، ج 2 ، مؤسسة قرطبة ، بيروت ، ، سنة 1406 هـــ ، ص : 221 . و فيه: « ... فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة ، فيدخل في ذلك جميع الطوائف ، إلا الرافضة ، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ، ويقول إن القرآن غير مخلوق ، وإن الله يرى في الآخرة ويثبت القدر وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة ...» .

انظر : محمد عابد الجابري : **تكوين العقل العربي** ، ط 2 ، دار الطليعة بيروت ، سنة 1985 ، ص ص: 107 ـــ 109

[187] الفضل شـــلق : **الأمـــة و الدولـــة** ـــ جدليات الجماعة و السلطة في المجال العربي الإسلامي ـــ ، ط1 ، دار المنتخب ، بيروت سنة 1993 ، ص ص : 24 ـــ 25

[188] ابن تيمية : **الخلافة** ، المصدر السابق ، ص : 60

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني : **ســنن أبي داود** ، تـــ محمد محي الدين عبد الحميد ، د ط ، ج 4 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ص ص : 214 ـــ 215

محمد عابد الجابري : التكوين ، المرجع السابق ، نفس الصفحة

إليه ، و النفـور مـن التمرد و الثورة ، و غيرها من الآراء التي اتخذت في عصور لاحقة مسمى " العقائد "[189]

إذن لقد كان القول في العقائد هو الذي أعطى لكل اتجاه خصوصيته و اسمه ؛ والارتبـاط الذي سلف التنبيه إليه بين العقيدة و السياسة يمكننا من الوصول إلى القول أن الكـلام فـي السياسة هو المسؤول على التفرق الذي نخر في الأمة ، و لما كان الجمهور الأعظـم الـذي اتخذ فيما بعد اسم " أهل السنة و الجماعة " قد وقف إلى جانب الدولة الأموية فإن ذلك يجعله صاحب السلطة بشكل أو بآخر ؛ الأمر الذي يعني أن مهمته إزاء الدولة تتحدد بالمسـاندة و الدعم المطلق والدفاع عنها و في أسوء أحوال العلاقة بينهما لا يصل الأمـر إلـى مسـاندة أعدائها ، الشيء الذي كان سببا في تأخر أهل السنة عن القول المنظم العلمي فـي مسـالة " الإمامة " بالقياس إلى غيرهم كالشيعة بأطيافها و المعتزلة و غيرهما[190] .

لابد من الانتباه لحقيقة أن تفاصيل الأفكار والعقائد لم تنشأ مرة واحدة مكتملة كما تعرض في مصنفات المتكلمين المتأخرة ، و إنما جاءت متتالية متأثرة بالأحداث و الوقائع و خاضعة لسنة التاريخ في التغير و التطور و مستجيبة للجدل و الكلام الذي كان سـمة العصـر ، و محاولة النظر فيها و إعادة بنائها تقتضي جهدا كبيرا مركزا في جمع النصوص و تحقيقها و مقابلتها لبعضها ؛ و تحاشي الوقوع في أسر المبالغات و التهم و جميع صـور التخـوين و التكفير ، كذا إعـادة ربط المقـولات النظرية بتربـتها الواقعية التي أفرزتها و عشـشت

---

[189] راجع :عبد الملك علي الكليب : **صفات التابعين** ، تـ اشرف بن عبد المقصود ، د ط ، دار الشهـاب ، الجزائـر د ت ، ص ص : 72 ـ 86

: أبو جعفر أحمد الطحاوي : **العقيدة الطحاوية** ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993 ، ص ص : 19 ـ 22

: ابوحامد الغزالي : **قواعد العقائد** ، ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993 ، ص : 21 =

= : ابو حفص عمر بن محمد النسفي : **العقائد النسفية** ، ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بـيروت ، 1993 ، ص ص : 28 ـ 30

: ابن أبي زيد القيرواني : **العقيدة الإسلامية التي ينشأ عليها الصغار** ، تـ عبد الفاتح أبو غدة ، ط 3 ، دار السلام ، مصر سنة 2001 ، ص ص : 53 ـ 58

[190] الجابري ، التكوين ، المرجع السابق ، ص : 108

هي فيها[191] ، الأمر الذي يوضح الظروف و الملابسات التي ساهمت في ظهور الشيعة و الخوارج ثم القدرية والمرجئة و الجبرية[192] و... . وقد ظهر كل اتجاه من هذه الاتجاهات في إقليم معين و في ظروف خاصة و استجابة لحيثيات معينة[193] ، و تأثر و تكيف بمؤثرات مختلفة تبعا لطبيعة الإقليم و موقعه الجغرافي و طبيعة الفئات الاجتماعية التي تقطنه ، مع الانتباه لرسوخ " القبيلة " كوحدة ناظمة لأغلب المجتمعات الإسلامية آنذاك ، و نوعية علاقات الزعامات التي تحكمها بجهاز الدولة ، لكن هذا الافتراق و التوزع ، وحدة الصراع أحيانا لم يمنع من حدوث تقارب و تأثير و تأثر كلما كانت مساحة الحوار واسعة و اللقاء الهادي مضمونا ؛ الأمر الذي تؤكد الروايات حدوثه[194].

---

[191] تبذل الآن مجهودات مهمة في هذا السياق رغم ما تكتنفها من صعوبات منهجية و شك من طرف االتصورات السائدة الموروثة عن الماضي ، من ذلك أعمال كل من : محمد عابد الجابري و محمد أركون و حسن حنفي و فهمي جدعان و عبد الله العروي و علي أومليل و كمال عبد اللطيف و محمود إسماعيل و...و غيرهم كثير .

[192] **الجبـــرية** : المراد بالجبر هو كون العبد مسير بالإرادة الإلهية تسييرا مطلقا لا يملك أي قدرة و لا لإرادة على أي شيء ، و أول من نادى بهذه الفكرة هو جهم بن صفوان ونشرها في بلخ و ترمذ و سمرقند قبل أن تنتشر في طول العالم الإسلامي و عرضه . أنظر :

علي سامي النشار : نشأة ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص : 473

يوسف فرحات : **الفلسفة الإسلامية و أعلامها** ، ط 1 ، الشركة الشرقية للمطبوعات ، د كان النشر ، سنة 1986 ، ص : 27

[193] يتضح ذلك في وصف الإمام محمد بن علي العباسي للأهواء السائدة في عصره : « ... أما الكوفة و سواها فشيعة علي ، و أما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، و أما الجزيرة فحرورية و أعراب كأعلاج .. و أما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية و طاعة بني أمية و عداوة راسخة و جهل متراكم و أما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر و عمر ...» .

حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص : 15 ــ 16

[194] أبو بكر الخطيب البغدادي : **الكفاية في علم الرواية** ، تـــ احمد عمر هاشم ، ط 2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1986 ، ص: 153 . آثرت نقل هذا النص منه رغم طوله لأهميته ، فيه أسماء أعلام من أهل السنة وبيان تأثرهم بآراء الفرق الأخرى :

« ... اشتهر من قبول الصحابة أخبار الخوارج وشهاداتهم ومن جرى مجراهم من الفساق بالتأويل ، ثم استمرار عمل التابعين والخالفين بعدهم على ذلك ؛ لما رأوا من تحريهم الصدق وتعظيمهم الكذب وحفظهم أنفسهم عن المحظورات من الأفعال وإنكارهم على أهل الريب والطرائق المذمومة ، ورواياتهم الأحاديث التي تخالف آراءهم ، ويتعلق بها مخالفوهم في الاحتجاج فاحتجوا برواية عمران بن حطان ، وهو من الخوارج ، وعمرو بن دينار وكان ممن يذهب الى القدر والتشيع ، وكان عكرمة إباضيا ، وابن أبى نجيح وكان معتزليا ، وعبد الوارث بن سعيد وشبل بن عباد وسيف بن سليمان وهشام الدستوائى وسعيد بن أبى عروبة وسلام بن مسكين ، وكانوا قدرية ، علقمة بن مرثد وعمرو بن مرة ومسعر بن كدام ، وكانوا مرجئة ، وعبيد الله بن موسى وخالد بن مخلد وعبد الرزاق بن همام ،وكانوا يذهبون إلى التشيع في خلق كثير يتسع ذكرهم ، دون أهل العلم قديما وحديثا رواياتهم واحتجوا بأخبارهم فصار ذلك كالإجماع منهم وهو أكبر الحجج في هذا الباب وبه يقوى الظن في مقاربة الصواب ...»

كل الذي سبق التعرض له من الشقاق و النزاع و الاختلاف الذي قصم ظهر الأمة و فرق الملة كان يحتدم على ساحة الكلام في الاعتقاد و الذي كان قولا في السياسة أيضا ، إذ لا نجد صداه في علم ديني عملي بالأساس ، هو الفقه ، إذ يبدو أن الفقه كان ملكية خالصة لأهل السنة لم ينازعهم فيها إلا الشيعة في مرحلة تالية لما استقر و اكتمل تدوين العلوم و المعارف .وما كان تفرقه العقائد كانت تجمعه مذاهب الفقه [195].

الفقهاء :

الفقه لغة يعني الفهم والفطنة ، و في الحديث :« مَنْ يُرد الله بِهِ خَيْرًا يفقهَه فِي الدين »[196]. وهو ملكة تمكن صاحبها من فهم مراد الشارع فيما يخص المأمورات و المنهيات [197]

ويحتل الفقيه منزلة الوساطة بين مضامين الدين كما جاءت في الكتاب و السنة و بين الأمة المتلقية لتحقيق هذه المضامين في الواقع ، وتأتي هذه المنزلة مبينة في الآية : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُل فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَة لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدين ولِيُنْذِرُوا قَومَهُم إذا رَجَعُوا إلَيْهم لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون ﴾[198] وفي ما وصلنا من أحاديث النبي و سنته[199] .

---

[195] لقد درس مؤسسوا الفرق على يد الصحابة و كبار التابعين ، و عنهم أخذوا الأحكام الفقهية ، و لم يكن لهم طريق للوصول إلى أغراض الشرع و مطالبه السلوكية غيره .

[196] أبو القاسم جار الله الزمخشري : **أساس البلاغة** ، د ط ، دار الفكر للطباع و النشر ، بيروت ، سنة 2000 ، ص : 479 الخطيب البغدادي : **صحيح الفقيه و المتفقه** ، تعليق عادل العزازي ، ط 1 ، دار الوطن ، الرياض ، سنة 1997 ص : 36

أبو عبد الله محمد الحكيم الترمذي : **نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول** ، د ط ، دار صادر، بيروت ، د ت ، ص ص : 365 ــ 366

الحديث صحيح ، أنظر : مسلم ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 718

[197] محمد مصطفى شلبي : **أصول الفقه الإسلامي** ، ط 2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة 1978 ، ص : 17

عبد الوهاب خلاف : **علم أصول الفقه** ، ط 12 ، دار القلم للطباعة و النشر ، الكويت ، سنة 1978 ، ص : 15

[198] سورة التوبة / 122

[199] انظر على سبيل المثال: ابن رجب الحنبلي : **ورثة الأنبياء** ، تـ أشرف بن عبد المقصود ، دط ، دار الشهاب ، الجزائر

د ت ، ص ص : 19 ــ 21 .

و أبو حامد محمد الغزالي : **إحياء علوم الدين** ، ط 1 ، ج 1 ، دار القلم ، بيروت ، د ت ، ص ص : 10 ــ 18

وظهور هذه الوظيفة أمر لازم تحتمه طبيعة الإسلام بما هو دين قائم على كتاب محفوظ وعلى مأثورات نبيه الشارحة و المفسرة للكتاب ، ثم الميزة الأخرى و هي وفرة المطالب العملية السلوكية التي تشمل جميع فعاليات المسلم في حياته من أبسط الأمور إلى أكثرها أهمية ، الشيء الذي يقتضي بحثا وطلبا و استخبارا ، و يستلزم تخصصا و جهدا[200] ، و قد تميز بعض الصحابة في حياة النبي صلى الله عليه و سلم بامتلاك هذه الملكة حتى شهد لهم بها، و مارسوها دون [201]غيرهم و عرفوا بها[202] .

ومع نجاح حركة الفتوح واتساعها الجغرافي شكل ذلك تحديا لمؤسسة الخلافة الشيء الذي يعني ضرورة استيعاب الأوضاع و المشاكل التي أفرزتها الانتصارات كإدارة الغنائم و الفيء وضبط الأمور الاقتصادية و مراقبة تطبيق مضامين العهود و المواثيق التي أبرمت مع الشعوب المفتوحة واختلاف أحكام الأرض المفتوحة عنوة عن تلك المفتوحة صلحا وما أشبه ذلك فتجلت استجابة الجماعة الإسلامية و على رأسها الخليفة عمر لهذه التحديات بتفعيل آلية الاجتهاد[203] وإنتاج الأحكام فيما لم تكن له سابقة في حياة النبي وما لم يرد فيه نص ، هذا من وجه ومن وجه آخر حرص عمر على إرسال فئة من كبار فقهاء الصحابة إلى الأمصار كمشرفين على تطبيق الأحكام من مواقعهم كولاة وعمال ، أو كمعلمين و مقرئين[204] ، ويذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن عمر كان مشغولا بفكرة إنشاء كوادر للدولة ممثلين فيما أطلق عليه مسمى " القُرَّاء " يجمعون بين الفقه في الدين والكفاءة

---

[200] عبد الوهاب خلاف : المرجع السابق ، ص : 15. و محمد حسين فضل الله : " **موقع الفقيه في الدولة الإسلامية** " ، **مجلة المنطلق** ، الإتحاد اللبناني للطلبة المسلمين ، العدد 64 ، آذار 1990

201201

[202] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : **صحيح البخاري** ، تــ قاسم الشماعي ، ط 1 ، ج 3 ، دار القلم ، بيروت ، سنة 1987 ، ص ص 107 ــ 108

[203] انظر رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري في القضاء في : أبو الحسن علي بن محمد الماوردي : **الأحكام السلطانية و الولايات الدينية** ، تــ خالد السبع ، ط 3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1999 ، ص ص : 139 ــ 140

جبر محمود الفضيلات : **القضاء في صــدر الإسلام** ، د ط شركة الشهاب ، الجزائر ، سنة 1987 ، ص : 175

حسني محمد غيطاس : **الدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه** ، ط 1 ، المكتب الإسلامي بيروت ، سنة 1985 ، ص ص : 120 ــ 137

صالح أحمد العلي : **الإدارة في العهود الإسلامية الأولى** ، ط 1 ، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر ، بيروت ، سنة 2001 ص ص : 120 ــ 121

[204] غالب عبد الكافي القرشي : **أوليات الفاروق السياسية** ، ط 1 ، دار الوفاء للطباعة و النشر ، المنصورة ، سنة 1990 ، ص ص : 116 ــ 117

الإدارية حتى يساهموا في إنجاح مشروع أَسْلَمَة الشعوب المفتوحة و استيعاب المشاكل المستحدثة[205] .

و باستيطان هؤلاء الفقهاء في الأمصار التي بعثوا إليها و مباشرتهم مهامهم داخل المساجد تكونت مجموعات من طلبة العلم لحفظ القرآن و سماع الحديث من أفواه هؤلاء الصحابة ، ثم لم يلبثوا حتى سنوا الرحلة في طلب العلم استدراكا لما فاتهم منه ، و بفناء جيل الصحابة تصدر هؤلاء الطلبة للتعليم و نشر الفقه وأخذوا لذلك مسمى " التَّابِعِين " . ولم يكن الفقه في ذلك العصر علما منظما مبوبا قائما بذاته ، ومضى الأمر على ذلك حتى شهد القرن الثاني الهجري ظهور مدرستين أساسيتين في الفقه الإسلامي، هما: مدرسة الرأي ومدرسة الحديث ، نشأت المدرسة الأولى في العراق، وهي امتداد لفقه عبد الله بن مسعود الذي أقام هناك، وحمل أصحابه علمه وقاموا بنشره، وكان ابن مسعود متأثرًا بمنهج عمر بن الخطاب في الأخذ بالرأي، والبحث في علل الأحكام حين لا يوجد نص من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن أشهر تلامذة ابن مسعود الذين أخذوا عنه: علقمة بن قيس النخعي[206]*، والأسود بن يزيد النخعي[207]*، ومسروق بن الأجدع الهمذاني[208]*، و شريح القاضي[209]* وهؤلاء كانوا من أبرز فقهاء القرن الأول الهجري.

ثم تزعم مدرسة الرأي بعدهم إبراهيم بن يزيد النخعي[210]* فقيه العراق بلا منازع، وعلى يديه تتلمذ حماد بن سليمان[211]* ، وخلفه في درسه، وكان إمامًا مجتهدًا، كانت له

---

205 رضوان السيد : " **السلطة و المعرفة في التاريخ العربي الإسلامي** " ، مجلة **دراسات عربية** ، دار الطليعة ، بيروت ، العدد 11 السنة 15 ، سبتمبر 1979 ، ص ص : 25 – 26

206 * **علقمة بن قيس** : النخعي خال إبراهيم النخعي ، من سادات التابعين بالكوفة ، مات سنة 62 هـ .
ابو إسحاق الشيرازي : **طبقات الفقهاء** ، تـ إحسان عباس ، ط 2 ، دار الرائد العربي ، بيروت ، سنة 1981 ، ص : 79

207 * **الأسود بن يزيد** : أحد أعلام التابعين بالكوفة ، مات سنة 75 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر نفسه ، ص : 79

208 * **مسروق الأجدع** : أحد أعلام التابعيين بالكوفة ، مات سنة 63 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر نفسه، ص : 79

209 * **شريح** : قضى لعمر بن الخطاب و ظل على القضاء أكثر من سبعين سنة ، توفي سنة 82 هـ .
الشيرازي : الطبقات ، المصدر نفسه ، ص : 80

210 * **إبراهيم النخعي** : أحد أئمة الكوفة المشاهير ، من التابعين ، يعتبر امام مدرسة الرأي ، توفي سنة 95 هـ .

بالكوفة حلقة عظيمة يؤمها طلاب العلم، وكان من بينهم أبو حنيفة النعمان الذي فاق أقرانه، وانتهت إليه رئاسة الفقه، وتقلد زعامة مدرسة الرأي من بعد شيخه، والتف حوله الراغبون في تعلم الفقه وبرز منهم تلاميذ بررة، على رأسهم أبو يوسف القاضي[212]، ومحمد بن الحسن[213] وزفر[214]*وغيرهم وعلى يد هؤلاء تبلورت طريقة مدرسة الرأي واستقر أمرها ووضح منهجها ، وكون الكوفة هي المصر الذي شهد ظهور و تطور هذه المدرسة ؛ فإن ذلك يعود لأسباب عدة بعضها تاريخي و بعضها الآخر جغرافي منحتها خصوصية ليست لغيرها إذ كانت البلد الذي احتضن منذ البدايات الأولى لتمصيرها العناصر و الفئات و القوى الاجتماعية و الإثنية المختلفة والمتباينة والمتعارضة أيضا في توجهاتها و مصالحها[215] و أفصحت منذ تلك البدايات عن وجهها الحقيقي وسمتها التي ستظل تتصف بها و تشكل شاغلا للدولة منذ أيام عمر بن الخطاب الذي اضطر أكثر من مرة لتغيير ولاته و عماله عليها بطلب من أهلها[216] ، إلى أيام عثمان حيث كانت هي الأرض التي بذرت فيها بذور الانشقاق و التمرد ثم الثورة على الخليفة[217]، وكان تجبر بعض الولاة من أسباب استمرار الغليان و التذمر ثم تحولت إلى عاصمة للإمام علي و مقرا لإدارته وقيادته[218] ، فحفلت أرضها

ابن خلكان : الوفيات ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص ص : 25

[211] **حماد بن سليمان** : أحد فقهاء الكوفة ، تتلمذ على إبراهيم النخعي ، توفي سنة 120 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 83

[212] ستأتي ترجمته في الفصل الثالث

[213] أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني أحد تلامذة الإمام أبي حنيفة ، ولد سنة 132هـ و توفي سنة 189هـ و تولى القضاء للرشيد. ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 185

[214] **زفر** : أبو الهذيل زفر بن الهذيل كان من أصحاب الحديث ثم غلب عليه الرأي ، و هو ممن جمع بين العلم و العبادة ، ولد سنة 110 هـ و توفي سنة 158 خـ . ابن خلكان : المصدر انفسه ، ج 2 ، ص : 317 ــ 319

[215] محمد عبد الحي محمد شعبان : **صدر الإسلام و الدولة الأموية** ، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت ، سنة 1983 ، ص: 55

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 317 ــ 319

[216] أبو الحسن البلاذري : **فتوح البلدان** ، تــ رضوان محمد رضوان ، دط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1978 ص ص : 277 ــ 278

ابو عمر أحمد بن عبد ربه : **العقد الفريد** ، تــ أحمد أمين و آخرون ، د ط ، ج 4 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة 1962 ، ص ص : 306 ــ 307

[217] ابن كثير : المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 133 . أنظر فيه حوادث سنة 32 هـ

[218] ابن عبد ربه : المصدر السابق ، ص : 337

بمختلف العناصر والاتجاهات والفئات المختلفة [219] ؛ حيث خرج من جيش الكوفة أولى الفرق الكلامية التي ستوجه و تكيف التاريخ الإسلامي بعدها ، ألا هي الخوارج و الشيعة وقد اعتمد كلاهما سياسة المعارضة الدائمة للدولة في دمشق إبان العهد الأموي ثم بغداد أيام الدولة العباسية ، كما جعل كلاهما السيف ووسيلة من وسائل إبداء الرفض و الثورة .

إذن تحققت في الكوفة جميع المواصفات التي جعلتها مصرا معارضا بامتياز ، ولم تكن معارضة ساكنة نائمة و إنما كانت فاعلة و نشطة لم تكف عن التوتر و الغليان حتى في ظل حكم أعتى الولاة[220] .

ولما كانت السلطة في الإسلام تأخذ مشروعيتها من الدين بمصدريه القرآن و السنة ، فإنه كان لزاما على من يريد استلام السلطة أن يؤسس شرعية حكمه بناء على الدين ، بمعنى تقديم قراءة للدين و تأويلا لنصوصه ، بحيث تمكنه من استصدار قبول و تأييد الجماعة الإسلامية ، الأمر الذي حرص الأمويون على القيام به بمساندة بعض الفقهاء ، فلم يكن غريبا أن تلجأ الدولة الأموية إلى نشر و إذاعة نصوصا بعينها من القرآن و الحديث الشريف تجعل من حكم الأمويين حقيقة قدرية أرادها الله و جبرا لا مناص من قبوله و الرضا به[221] ، وتصف أي محاولة للخروج عليه ضربا للوحدة و شقا لعصا الجماعة و استدراجا للفتنة و البغي و الفساد ، وعليه فإن على أي معارضة جادة أن تجد قراءة أخرى و تأويلا آخر في الدين مختلفا عن مستند الدولة القائمة ، لذلك اتجه التيار المناهض للأمويين في الكوفة إلى الاستثمار السياسي في العلم الذي كان يعني فقه الكتاب و الحديث الشريف[222] .

إن احتضان الكوفة للمعارضة السياسية من بعض أسباب نشاط العلم بها وخصوصيته فيها إذ أمدها موقعها الجغرافي ميزة مهمة جعلتها تختلف عن مكة وعن المدينة عاصمة رسول

---

[219] محمد عبد الحي شعبا ن : صدر الإسلام ، المصدر السابق ، ص :80 . صالح أحمد العلي ، عمر ، المرجع السابق ، ص : 234

شاكر الفحام : **الفــرزدق** ، د ط ، دار الفكر ، دمشق ، سنة 1977 ، ص ص : 50 ـــ 52

[220] إبراهــيم بيضون : **تكون الاتجاهات السياسية في الإســلام الأول** من دولة عمر إلى دولة عبد الملك ، ط 2 ، دار اقرأ بيروت ، سنة 1986 ، ص ص: 152 ـــ 153

شاكر الفحام : المرجع السابق ، ص : 50

[221] رضوان السيد : : **الأمة و الجماعة و السلطة** ـــ دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي ـــ ، ط 2 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986 ، ص : 129

[222] نفس المرجع ، ص ص: 132 ـــ 134

الله صلى الله عليه وسلم وعاصمة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل ، التي ظلت حافظة لتراث النبي و آثاره و سنته التي غدت عرفا جعل فقيها كبيرا كمالك يعتمده كمصدر من مصادر التشريع ، حيث رسخ في الاعتقاد أن علم أهل المدينة هو الأكثر ثقة فيما يخص رواية الحديث و فقه المناسك من بقية الأمصار ، و الأوفر عددا و الأكثر أهمية ، كما تختلف الكوفة عن الشام عاصمة بني أمية و بني مروان و محل العصبية الأموية ، وعن مصر ثم بلاد المغرب بعد فتحها[223] .

فطبع علم الكوفة بطابع خاص ، حيث تميز الكوفيين باستعمال العقل في مجال الفقه ؛ الإجراء الذي أخذ مسمى " الرأي "[224] مقابل " الحديث " و" الأثر " و" النقل "[225] ، وأثار نزاعا شديدا داخل دائرة أهل السنة ، ولدى علماء المدينة بوجه خاص ، ولم يكن توسع الكوفيين في الرأي إلا نتيجة طبيعية لواقع الكوفة الحافل بمختلف الاتجاهات الدينية ـ السياسية ، إذ من الطبيعي أن تنشط في ظل مثل هذا الوسط جميع وسائل استغلال النصوص الدينية ، بما فيها وضع الحديث و الكذب على النبي وأصحابه ، الأمر الذي زرع الريبة و التشدد في قبول الحديث و الاستعاضة عنه بالتوسع في الرأي[226] . كذلك اعتماد الكوفيين على ميراث علي و ابن مسعود بصفة الأول إمام المسلمين و الثاني خازن بيت المال و مفتي

---

[223] جورج طرابيشي : **إشكاليات العقل العربي** ، ط 2 ، دار الساقي ، بيروت ، سنة 2002 ، ص : 42

[224] « ... وإنما سموا أصحاب الرأي لأن أكثر عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام ، وبناء الحوادث عليها ، وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار...» . أنظر :

محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : **الملل والنحل** ، تـ محمد سيد كيلاني ، د ط ، ج 1 ، دار المعرفة ، بيروت ، ص: 207

[225] الجابري : التكوين ، المرجع السابق ، ص : 106

[226] طه جابر فياض العلواني : **أدب الإختلاف في الإسلام** : د ط ، دار الشهاب ، باتنة ، سنة : 1985 ، ص ص : 79ـ 81

ابو محمد عبد القادر القرشي : **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ، د ط ، مير محمد كتب خانة ، كراتشي ، د ت ، ص: 31 . أنظر تعليلا لقلة رواية أبي حنيفة للحديث :

« ... املأ علينا أبو يوسف قال : قال أبو حنيفة : لا ينبغي للرجل أن يحدث من الحديث إلا بما حفظه من يوم سمعه إلى يوم يحدث به .. ولهذا قلت رواية أبي حنيفة لهذه العلة لا لعلة أخرى زعمها المتحملون عليه ...» .

مصطفى الشكعة : **الإمام الأعظم ابو حنيفة النعمان** ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة 1983 ، ص ص : 166 ـ 170

عبد الرحمن بن خلدون : **المقدمــة** ، ط 1 ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بيروت ، سنة 2004 ، ص ص : 465 ـ 466

الكوفة و فقيهها و مقرئها أيام عمر و عثمان[227] ، و قد عرف كلاهما بالاجتهاد وعمق الفقه و استعمال الرأي[228] .

وأما مدرسة الحديث، فقد نشأت بالحجاز، وهي امتداد لمدرسة عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعائشة وغيرهم من فقهاء الصحابة الذين أقاموا بمكة والمدينة، وكان يمثلها عدد كبير من كبار الأئمة، منهم سعيد بن المسيب[229]* ، وعروة بن الزبير[230]* ، وابن شهاب الزهري[231]* ، والليث بن سعد، ومالك بن أنس. وتمتاز تلك المدرسة بالوقوف عند نصوص الكتاب والسنة، فإن لم تجد التمست آثار الصحابة، ولم تلجئهم مستجدات الحوادث التي كانت قليلة في الحجاز إلى التوسع في الاستنباط بخلاف ما كان عليه الحال في أهل السنة ، وجاء الشافعي والجدل مشتعل بين المدرسين فأخذ موقفًا وسطا، وحسم الجدل الفقهي القائم بينهما بما تيسر له من الجمع بين المدرستين، بعد أن تلقى العلم وتتلمذ على كبار أعلامهما مثل مالك بن أنس من مدرسة الحديث، ومحمد بن الحسن الشيباني من مدرسة الرأي[232].

---

[227] صالح أحمد العلي : **الإدارة في العهود الإسلامية الأولى** ، ط 1 ، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر ، سنة 2001
ص : 349

[228] الذهبي: **سير أعلام النبلاء** ج:5 ، ص: 236 «... فأفقه أهل الكوفة علي وابن مسعود وأفقه أصحابهما علقمة وأفقه أصحابه إبراهيم وأفقه أصحاب إبراهيم حماد وأفقه أصحاب حماد أبو حنيفة وأفقه أصحابه أبو يوسف وانتشر أصحاب أبي يوسف في الآفاق ...»

[229] * **سعيد بن المسيب** : أبو محمد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، و هو سيد التابعين ، جمع بين العلم و العبادة ، توفي بالمدينة سنة 91 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 378 - 378

[230] * **عروة بن الزبير :** ولد سنة 26 ه ت و مات سنة 94 هـ يعد من كبار تابعي المدينة . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 58

[231] * **الزهري** : أبو بكر محمد بن مسلم ، أحد أعلام المدينة من الفقهاء و المحدثين ، و المقربين إلى خلفاء بني أمية ، ولد سنة 51 هـ ، و توفي بالمدينة سنة 124 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 177 - 178

[232] ولي الله الدهلوي : **الإنصاف في بيان أسباب الإختلاف** ، تـ عبد الفتاح أبو غدة ، ط 8 ، دار النفائس ، بيروت ، سنة 1977 ص ص : 41 – 42
محمد أركون : **تاريخية الفكر العربي الإسلامي** ، تـ هاشم صالح ، ط 3 ، لمركز الثقافي العربي ، المغرب ، سنة 1998 ص ص : 75– 78

الفصل الأول

الطاعة اعتقادا و المفاصلة سلوكا :

ـ توطئـــة :

أورد الفيروزآبادي في القاموس المحيط أن الفَصْلُ : هو الحاجِزُ بين الشَّيْئَيْنِ، و فَاصَـلَ الرجل شَرِيكَه بَايَنَه[233] ، من هنا ارتأيت استعمال دلالة هذا اللفظ لوصف مضمون العلاقــة التي كانت بين جماعة من الفقهاء و بين الدولة العباسية في هذا العصر ؛ حيث المفاصلة هي المباينة و ما نسميه بلغة عصرنا بالقطيعة .

نستطيع أن نقول منذ البداية بأن المواجهة بين الطرفين أمــر لا يمكــن تلافيــه ، إذ أن خصوصيـــة التاريخ الإسلامي و طبيعته هي التي جعلت من الفقهاء هم الوكلاء الشــرعيين لهذا الدين و الناطقين باسمه ؛ و من ثمة هم قادة الجماعة الإسلامية التي أسســها الــدين و صاغتها تشريعاته ، و في المراحل الانتقالية و التحولات الكبرى التي تتميز بالاضــطراب و الاهتزاز كذا فقدان الأمن السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي كالذي حصل إبــان الثــورة العباسية على الحكم الأموي ، حينها يتحول الدين إلى مصدر عزاء و أمــان للخــائفين ، أو طاقة دافعة للحركات الثورية التي ترغب في استثمار مثل هذه الأوضاع ، و يــزداد تشــبث المجتمعات الإسلامية بالفقهاء ، و لما كان كل من السياسي و الفقيه يجتمعان فــي أن كــلا منهما يتخذ من المجتمع موضوعا لفعله و تأثيره فإن المواجهة بينهما كانت حتمية .

إن الذي أعنيه بالمفاصلة هو واقع القطيعة في العلاقة بين بعض الفقهاء المنتسبين لأهــل السنة و الجماعة و بين رجال الدولة على رأسهم الخليفة ؛ القطيعة التي يهمنا التنبيه الــى أن هؤلاء الفقهاء المقاطعين هم الذين بدءوا بها و بادروا إليها و تحملوا تبعاتها ، إذ أن الخلفاء العباسيين كانوا بحاجة لدعم كبار الفقهاء السنة لتحقيق كامل الشرعية لسلطانهم ؛ الذي كــان يترنح تحت مطالبات العلويين الشرعية و التاريخية بحقهم في الخلافة ، و تحت شكل الوسيلة التي أوصلتهم إلى الحكم ، و هي الثورة ؛ البعيدة عن الأساليب التي أقرها الإسلام و تحققت بها الخلافة الراشدة . خاصة و أن مستند الحركة الناجحة التي سحبت الحكم من تحت بنــي أمية إنما استمدت قوتها من خلال التأكيد على ضلال التجربــة الأمويــة و انحرافهــا عــن

---

[233] مجد الدين الفيروزآبادي : **القاموس المحيط** ، د ط ، دار العلم للجميع ، بيروت ، د ت ، ج 4 ، ص : 30

مقتضيات الدين فلم يأت أداء العباسيين مختلفا عن الأداء الأموي ، بل لقد و صف أحد الفقهاء في البلاط العباسي الأمويين بأنهم كانوا : « ... أَنْفَعُ للناس ...» ؛ و إن عاد ليرفع الحرج أمام الخليفة الذي كان يسمع هذه الشهادة بأن يصف بني العباس بأنهم كانوا :« ... أَقْوَمُ لِلصلاة ...»[234] . إذن فليست من مصلحة العباسيين نبذ الفقهاء ؛ خاصة السنة لأنهم اعتمدوا الاتجاه السني عقيدة للدولة ؛ بما أن القاعدة العريضة من المسلمين كانوا سنة . ثم لم يكن ثمة بديل آخر عن السنة غير التشيع ، و هو عقيدة الذين صنفهم العباسيون في خانة العدو . أما الفقهاء فقد بادروا إلى هذا الموقف لاعتبارات عدة لا تخرج عن مقتضيات دينية صرفة : كالزهد و الورع و ضمان استقلالية الرأي و الفتوى[235] ، ثم أمر آخر هو النظر إلى الحكم العباسي كحالة اشتباه ، منشؤه الطريقة التي وصل بها العباسيون للحكم ؛ و هي بعيدة عن أن تكون شورى و اختيار حر من الأمة ، كذا الاشتباه في كثير من تفاصيل الملك ؛ كشكل و مضمون الأداء السياسي الذي لم يكن في مستوى الشعارات التي طالما رفعها الثوار إبان الحكم الأموي " العدل في القضية و القسمة بالسوية " . فجاءت المفاصلة من طرف هذا الفريق من الفقهاء ذات مضمون نقدي ؛ يعلن عن نفسه لا من طريق الفعل السياسي و الثورة و التحريض و ما أشبه ، و إنما من طريق الهجر والكف و الامتناع و اصطناع أسلوب الدعاء و الصبر ، بعبارة أخرى اعتبار الواقع " شر لا بد منه " و ضرورة تبيح محضور القبول بها ، لكنها كضرورة تقدر بقدرها ، و قدرها هو الاعتراف بالدولة القائمة مراعاة للمصلحة العامة للأمة و صيانة لدماء و أموال المسلمين وحماية للمصالح الدينية و الدنيوية[236] .

---

[234] ابن كثير :البداية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص 47

[235] لقد قال أبو حازم لأبي شهاب الزهري الفقيه المحدث في لقاء جمعه به يعاتبه على « ... إن العلماء كانوا يفرون من السلطان و هو يطلبهم و إنهم اليوم يأتون أبواب السلاطين و السلطان يفرمنهم ... » .

و قال أبو قلابة ينصح صديقا له : « ... إياك و أبواب السلطان و إياك و مجالسة أصحاب الأهواء و ألزم السوق فانه من العافية ... »

أبو عمر يوسف بن عبد البر : **جامع بيان العلم و فضله و ما ينبغي في روايته و حمله** ، د ط ، ج 1 ، دار الكتب العلمية بيروت ، د ت ، ص : 164

[236] محمد بن خلف وكيع : **أخبار القضاة** ، د ط ، ج 3 ، عالم الكتب ، بيروت ، د ت ، ص: 154 « ... ذكر لعباد بن العوام رجل ولي القضاء من عفافه وصلاحه، فقال عباد: من ظن أنه يلي لهؤلاء شيئاً فيخلون بينه وبين العدل فبئسما ظن...» .

لقد سادت في الأدبيات الدينية و الأدبية رؤيا قاتمة فيما يخص حياة الساسة ، و هي قاتمة بالنسبة للصورة التي يرغب بعض من الفقهاء و المحدثين أن يعيشوها وفقا لما يتبنونه من تعاليم و أخلاق و قيم ، حيث أن عالم السلطة يعني بمقتضى هذه الرؤيا عالم الدنيا و الشهوة التي حذر الله و رسوله من الوقوع في سحرها[237] ، ثم إن التجربة التاريخية كما عايشها بعضهم تحت الحكم الأموي أو رواها و نقل أخبارها البعض الآخر تعزز هذا المذهب[238] ، حيث تعني السلطة متعة الجاه و المال و المكانة الاجتماعية و قوة النفوذ و التأثير و القدرة على امتلاك وسائل الترف في المأكل و المشرب و المطعم و الملبس و المنكح . و هي ما حرص هؤلاء على تحاشيه « ... اللهم لي ديني و لهم دنياهم ... »[239]، وتجلى هذا التذمر في الإيقاع السريع الذي تمت فيه بلورة كثير من الأفكار و المفاهيم التي تدور حول رفض الدنيا و الإقبال على الآخرة و ما يساعد على هذه المهمة كالعزلة و الورع و الصبر و الرضا و الفقر و الجوع والسهر و مكابدة العبادات و... .

ولقد كان سفيان الثوري من أهم هؤلاء ، و رويت عنه أقوالا و أفعالا تنم عن حدة شديدة ورفض صارم غير قابل للمساومة ، حيث ورد أنه : كان يرى أن النظر إلى وجه الظالم خطيئة و أن معاملة اليهود و النصارى أحب إليه من معاملة الأمراء و أن النظر في وجه الأيمة الظالين من غير إنكار قلب إحباط للعمل[240] ، و جعل من قبول أعطيات الحكام

---

237 قال الصحابي ابن مسعود : « ... إن على أبواب السلاطين فتنا كمبارك الإبل و الذي نفسي بيده لا يصيبون من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينهم مثله ... » . ابن عبد البر : الجامع ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص :167

238 المصدر نفسه ، ص : 163 ــ 167

مر الحسن البصري ببعض القراء على أبواب بعض السلاطين فقال : فرطحتم بغالكم و جئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم فزهدوا فيكم .. تفرقوا فرق الله بين أعضائكم ...» . أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : **صفة الصفوة** ، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط 3 ، م 2 ، ج 3 ، دار الفكر ، بيروت ، 1419 هــ ، ص : 129

239 تأمل النص التالي : «... مر طارق صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسري في موكبه فقال ابن شبرمة :

أراها و إن كانت تحب كأنها سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لي ديني و لهم دنياهم ، فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر أتذكر قولك يوم كذا .. فقال : يا بني إنهم يجدون مثل أبيك و إن أباك لا يجد مثلهم ، إن أباك أكل من حلوائهم فحط في أهوائهم ...»

أبو الحسن الماوردي : **أدب الدين و الدنيا** ، ت محمد كريم راجح ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986 ، ص : 32

240 أبو بكر الخلال : **كتاب الورع** ، ت محمد السيد زغلول ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1988 ص ص : 75 ــ 79 .

استحلال لمحارم الله ، و أن التبسم في وجوههم علامة الرضا ، و إدمان النظر إليهم يميت القلب ، وأوصى صديقا له :« ... لا تكن من قراء الملوك ، و لا تكن فقيه السوق ، و ما أقبح قراءة ليس معها زهد ، و إن دعاك الملوك إلى أن تقرأ عليهم " قل هو الله احد " فلا تفعل ...»[241]، كما كان شديد التحذير من شهوة الرئاسة و يراها أصعب شهوة : « ... ترى الرجل يزهد في الثياب و المال و المطعم ، فإذا نوزع في الرئاسة حامى عليها و عادى ... »[242] ، و انتهر تلميذه وكيع بن الجراح[243]* لما رفع رأسه يشاهد دارا مشيدة عالية بإعجاب : « ... لا ترفع رَأْسَكَ تَنْظُر إِلَيْها إِنما بَنُوها لِأَجْل هذا ... »[244] ، و قال لرجل عليه سمت الصلاح أرسله إليه شريك القاضي في بعض الأمور:« ... إن كانت سَجَّادتُك هذه لله فَيَنْبَغي أَنْ لا تُكَلم شَرِيكًا ، و إن كانت لشريك فينبغي لي أن لا أُكَلمُكَ ... »[245] ، و علق متأسفا على قبول شريك لقضاء الكوفة : « ... أيُّ رَجُلٍ أَفْسدوا ... »[246] و كانت له مواقف مع المنصور و المهدي في غاية الحدة و الصرامة من ذلك أنه دخل على المهدي و رأى ما هيأه للحج ، فقال له : ما هذا ؟ حج عمر بن الخطاب فأنفق ستة عشر دينارا فغضب المهدي و قال له : « ... تريد أن أكون مثل الذي أنت فيه ؟ فقال الثوري : إذا لم تكن في مثل أنا فيه ففي دون ما أنت فيه ، فقال المهدي : قد جاءتنا كتبك فأَنْفَذْتُها ، فقال سفيان : ما كتبت إليك شيئا قط... »[247]. مثل هذه المواقف أفضت به إلى الهرب و

وقال : «... من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فهو شريكهم في كل دم كان في المشرق و المغرب ...» و قال ينصح تلميذا له : «... لا تجالس القاضي ، إذا قلت له عافاك الله فهو يرى أنك رضيت عمله ...» و قال : «... ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال...» . المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

[241] و كان سفيان كثيرا ما يقول : «... في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك ..» . أنظر : ابن عبد البر : الجامع ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 165

[242] أبو بكر الخلال : الورع ، المصدر السابق ، ص ص : 75 ــ 79

[243] * **وكيع :** أحد كبار فقهاء و محدثي الكوفة ،توفي سنة 179 هـ .

عبد الحي بن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، د ط ، م 1 ،ج1 ، المكتب التجاري للطباعة و النشر بيروت ، د ت ، ص : 349

[244] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[245] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[246] وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 163

[247] أبو نعيم الأصبهاني : **حلية الأولياء و طبقات الأصفياء** ، ط 3 ، م3 ، ج 6 ، دار الكتاب العربي ، بيروت سنة 1980 ص : 377

الفرار[248] و انتهت حياته مختفيا مطاردا من عيون المهدي ؛ ينادى عليه في المواسم بمكة يتنقل من دار إلى دار .[249]

و قد استطاع سفيان بمسلكيته هذه أن يكون نموذجا احتذى حذوه طلبته و محبوه و المعجبون بأخلاقه و علمه و تحول إلى أسوة مهمة سار على نهجه أعلام كثيرون كأحمد بن حنبل و غيره كما سيأتي . و قد مضى تلميذه وكيع بن الجراح على أثره ؛ حيث يروى أن الرشيد طلب كلا من وكيع و عبد الله بن إدريس و حفص بن غياث[250]* ليوليهم القضاء : « ... فأما ابن إدريس فقال : السلام عليكم و طَرَح نفْسَه كَالْمَفْلوج ، فقال هارون خذوا بيد الشيخ لا فَضْلَ في هذا ، و أما وكيع فأشار إلى عينه و قال : ما أبْصَرْت بها منذ سنة ، و وضع أصبعه على عينه و عنى أصبعه فأعفاه و أما حفص بن غياث فقال : لولا غَلَبَة الدَّيْن و العِيَال ما وَلّيْت ...»[251]، وكانت نتيجة قبوله القضاء أن هجره كلاهما . و يعبر شعيب بن حرب[252]* عن نفسية هذا النمط من الفقهاء فيما يرويه عن نفسه ، و ذلك لما رأى الرشيد بطريق مكة : « ... فقلت في نفسي : قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فخوّفتني فقالت : إنه الآن يضرب عنقك فقلت لا بد من ذلك فناديته فقلت : يا هارون : قد أتعبت الأمة والبهائم ، فقال : خذوه ، فأدخلت عليه .. وهو جالس على كرسي ، فقال : ممن الرجل ؟ فقلت : رجل من المسلمين ، فقال : ثكلتك أمك ممن أنت ؟ ...» ، و هكذا يستمر الحوار بينهما و يحسن فيه شعيب التخلص و امتصاص غضب الرشيد[253] ، و قد كان الرشيد أوسع خلفاء بني العباس صدرا في مواجهته لمثل هذه المواقف و تحفل المصادر بحكايات كثيرة في هذا المجال و أحيانا تكون فيها شخصية الواعظ مجهولة مثل هذه الرواية : « ... وبينما الرشيد يطوف يوما بالبيت إذ عرض له رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة ، فقال : لا ولا نعمت عين ، قد بعث الله من هو خير منك إلى من

---

[248] ابن قتيبة : الإمامة ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 143 ــ 144

[249] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[250] * **حفص بن غياث** : ولد سنة 117 هـ ، ولاه هارون القضاء ببغداد، ثم الكوفة و مات بها سنة 194 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 390

[251] الخطيب البغدادي : التاريخ ، ج 9 ، ص : 419

[252] * **شعيب بن حرب** : أبو صالح من أبناء خراسان مذكور بالعبادة و الصلاح و الخير ، مات بمكة سنة 199 هـ .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 470 ــ 471

[253] ابن كثير : البداية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 180

هو شر مني فأمره أن يقول له قولا ليِّنًا ... »[254]. و طلب مرة من حاجبه لقاء الفضيل بن عياض[255]* فوعظه الفضيل وعظا قاسيا طويلا قال له فيه : يا صبيح الوجه إنك مسئول عن هؤلاء كلهم وقد قال تعالى : وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَاب[256] أي الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ، فبكى الرشيد[257] ، و لقيه مرة أخرى فوعظه و رفض أخذ ما أعطاه له من المال فلما طلب منه ابن عيينة أن يقبلها و يفرقها على الفقراء أجابه : « ... يا أبا محمد أنت فقيه البلد و تغلط هذا الغلط ، لو طابت لأولئك طابت لي ... »[258] .

و لما حج المهدي دخل المسجد النبوي فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب ، فقيل له : قم هذا أمير المؤمنين ، فقال : إنما يقوم الناس لرب العالمين ، فقال المهدي : دعه فلقد قامت كل شعرة في رأسي ، و سبق لابن أبي ذئب أن واجه المنصور بقوله : « ... قد هلك الناس فلو أعنتهم من الفيء ، فقال : ويلك لولا ما سَدَدْتُ من الثغُور لكُنْتَ تُؤْتى في منزلك فَتُذْبَح ، فقال ابن أبي ذئب : قد سد الثغور و أعطى الناس من هو خير منك ؛ عمر رضي الله عنه ، فنكس المنصور رأسه و قال : هذا خير أهل الحجاز... »[259]، و قال للمنصور مرة أخرى : « ... الظلم ببابك فَاشٍ ... »[260]. و كان حماد بن سلمة على هذا النهج من المفاصلة ، وكان يقول كما قال الثوري :« ... إن دعاك الأمير أن تقرأ : قل هو الله أحد فلا تأته ، و قد روي أنه دعاه السلطان فقال : أحمل لحية حمراء إلى هؤلاء ، و الله لا فعلت ... »[261] .

---

[254] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[255] * **الفضيل بن عياض** : أبو علي الزاهد المشهور ، ولد بأبيورد و سكن مكة و توفي بها ، سنة 187 هـ .
ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 47 ـ 49

[256] سورة البقرة ، الآية 166

[257] السيوطي : التاريخ ، المصدر السابق ، ص : 285

[258] الحنبلي : شذرات الذهب ،المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 279

[259] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 144

[260] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[261] السيوطي : **طبقات الحفاظ** ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1983 ، ص : 95

و لعل الصورة الأشد تعبيرا عن مسلكية هذا الفريق و الذي يختزل و يكثف حدة مواقفه مـــا صدر عن ابن المبارك[262]* و هو يجود بنفسه فاشتهى سويقا فلم يوجد إلا عند رجـــل كـــان يعمل للسلطان فذكر له ذلك فقال : « ... دعوه ، فمات و لم يشربه ... »[263] .

أبو حنيفــــــة :

الإمام الأعظم ، النعمان بن ثابت ، الفارسي الصميم « ... من أبنـــاء فـــارس الأحـــرار ...»[264] منشئ أولى المذاهب السنية[265] المعتمدة في الإسلام، و كبير الفقهاء المسلمين .

ولد بالكوفة عام ثمانين للهجرة ــ 80 هـ ــ 699م[266] ، ونشأ بها و ترعرع في أكنافها و بين جنباتها ، و تفتحت عيناه و أذناه ليرى و يصغي إلى ما كانت تعج بــه الكوفــة مــن اتجاهات سياسية و ثقافية و دينية متباينة تصل أحيانا لحد التضارب و التصادم[267] ، في ذلك الوقت الذي كان فيه الشأن السياسي يتداخل مع الديني ، وكانـــت المرامـــي الاجتماعيـــة و السياسية و الثقافية لا تجد تعبيرا لها إلا في الدين و من خلاله ، حيث كان الدين هو القاعــدة

---

[262] * **ابن المبارك** : عبد الله أبو عبد الرحمن المروزي ، أحد أعلام السنة جمع بين العلم و العبادة ، و كان شاعرا ، ولد بمرو سنة 118 هــ و توفي سنة 181 هــ بهيت . ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 34. ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 372

[263] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 332

[264] ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ، ج: 5 ، ص: 405

الذهبي : **سير أعلام النبلاء** ،ج: 6 ، ص: 390

ابن النديم: المصدر السابق ، ص: 28

[265] قال أبو حنيفة : « ... لقيت عطاء بمكة فسألته عن شيء فقال : من أين أنت ؟ قلت من أهل الكوفة ، قال : أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا ، قلت : نعم ، قال : فمن أي الأصناف أنت ؟ قلت : ممن لا يسب السلف و يؤمن بالقدر و لا يكفر أحدا بذنب ، فقال لي عطاء : عرفت فألزم ... » . أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 3 ، ص : 314

[266] الذهبي : السير، المصدر السابق ، ص: 391

[267] شاكر الفحام : المرجع السابق ، ص ص : 50 ــ 52

التي تقوم عليها الحياة جميعها و الأساس الذي يَتَقَوّم به أي نشاط ، و المرجعية التي يستند إليها أي مطلب و هدف وغاية[268] .

في هذا المصر المتميز ولد أبو حنيفة و تلقى معارفه و علومه ، وفيه قضى جل عمره وأكثر حياته ، ولم أجد في المصادر التي اطلعت عليها ما يشير بالتفصيل و لا الإجمال لظروف نشأته في طفولته و شبابه ، ولعل أسرته كانت على شيء من اليسار و سعة العيش ، إذ لا تتردد أصداء الفقر و الحرمان في التفاصيل المعروفة من حياته ، إضافة إلى كونه قد عرف مبكرا الطريق إلى السوق و التجارة مما يمنحنا إمكانية احتمال أن يكون قد ورث هذه المهنة عن والده . أما نزوعه العلمي فقد جاءت فيه روايات متعددة لا تخلو من اضطراب وتباين ، تصف السبب و الكيفية التي تحول بها الشاب التاجر الباحث عن الربح و الثراء إلى الفقيه المجتهد ، من ذلك الرواية التالية :

قال أبو حنيفة« ... مررت يوما على الشعبي[269]* و هو جالس فدعاني ، فقال لي: إلى مَنْ تَخْتَلِف فقلت : أختلف إلى السوق ، فقال : لم أَعْنِ الاختلاف إلى السوق ، عنيت الاختلاف إلى العلماء فقلت : أنا قليل الاختلاف إليهم ، فقال لي : لا تَغْفَل ، و عليك بالنظر في العلم فإني أرى فيك يقظة و حركة ، فوقع في قلبي من قوله ، فتركت الاختلاف إلى السوق و أخذت في العلم ...»[270]

وثمة رواية أخرى تصف علة اختياره التخصص في الفقه دون بقية العلوم لا تخلو من الوضع

وقد طعن في صحتها الذهبي بعد أن أوردها كاملة[271].

على أنها ليست الرواية الوحيدة التي تصف رحلته العلمية قبل أن يتخذ من الفقه اختصاصا له إذ ورد عنه في أحد الأخبار قوله : «... كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغا كان

---

[268] محمد عابد الجابري : **العقل السياسي العربي** ، ط 6 ، دار النشر المغربية ، المغرب ، سنة 2003 ، ص : 16

[269] * **الشعبي** : أبو عمرو عامر بن شراحيل ، أحد كبار التابعين ، توفي بالكوفة سنة 103 هـ .ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 12 ـــ 15

[270] ابو اليزيد ابو زيد العجمي : **الفقهاء و بحوث العقيدة الإسلامية** ، ص ص: 78 ـــ 79

[271] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص: 396 - 397

يشار إليَّ فيه بالأصابع ...»[272]. كذلك ما نقله أحد الرواة : «... سمعت إبراهيم الحربي[273]* يقول كان أبو حنيفة طلب النحو في أول أمره فذهب يقيس فلم يجئ وأراد أن يكون فيه أستاذا فقال قلب وقلوب وكلب وكلوب فقيل له كلب وكلاب فتركه ووقع في الفقه فكان يقيس...»[274].

أما توجهه النهائي للاختصاص في الفقه فله قصة طريفة يرويها أبو حنيفة بنفسه ، قال :

« ... كنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان فجاءتني امرأة يوما فقالت لي : رجل له امرأة أمة أراد أن يطلقها للسنة كم يطلقها ؟ فلم أدر ما أقول ، فأمرتها أن تسأل حمادا ثم ترجع تخبرني...» و تمضي الرواية متتابعة«...فرجعت فأخبرتني ، فقلت لا حاجة لي في الكلام وأخذت نعلي فجلست إلى حماد ، فكنت أسمع مسائله فأحفظ قوله ثم يعيدها من الغد فأحفظها ويخطى أصحابه فقال : لا يجلس في صَدْرِ الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة...» . وقد دامت صحبته لحماد ثمانية عشرة سنة[275] ، كان فيها أبو حنيفة يتضلع من علم حماد وطريقته في الفتوى حتى بلغ مبلغا انس فيه من نفسه القدرة على الاستقلال و إنشاء حلقة خاصة به كما أفصحت عنه الرواية التالية :

« ...فصحبته عشر سنين ثم نازعتني نفسي الطلب للرئاسة ، فأحببت أن أعتزله وأجلس في حلقة لنفسي ، فخرجت يوما بالعشي وعزمي أن أفعل ، فلما رأيته لم تطب نفسي أن أعتزله...»[276]، وظل تلميذا له إلى آخر يوم في حياة الشيخ ، وقد ظهر نبوغه و تميزه و دقة نظره و سعة عقله في حياة أستاذه ، الشيء الذي مكن له محبة في قلبه تصفها الرواية التالية : «... سمعت إسماعيل بن حماد بن أبي سليمان يقول: غاب أبي غيبة في سفر له ثم

---

[272] الخطيب البغدادي : **تاريخ بغداد** ، ج 13 ، 333

مصطفى الشكعة : **الإمام الأعظم** ، **المرجع السابق** ، ص : 13

[273] * **إبراهيم الحربي** : إمام في الحديث ، بغدادي ، توفي سنة 285 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 171

[274] الخطيب البغدادي **تاريخ بغداد** ، المصدر السابق ، ص : 332

[275] الشيرازي : المصدر السابق ، ص : 86

[276] الذهبي : السير، المصدر السابق ، ج 6 ، ص: 398

عبد الحي بن العماد الحنبلي: الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج1 ، ص: 228 . جاء فيه :«...وتفقه على حماد بن سليمان وكان من أذكياء بني آدم في الفقه والعبادة والورع والسخاء...»

قدم فقلت له يا أبت إلى أيِّ شيء كنتَ أَشْوَق ، قال وأنا أرى أنه يقول إلى ابني فقال : إلى أبي حنيفة ولو أمكنني أن لا أرفع طرفي عنه فعلت...»[277]، وإثر وفاة حماد أجمع تلامذته على تقديم أبي حنيفة لأن يخلفه في التعليم و الإشراف على شؤون الجماعة العلمية ، فكانت تلك الحلقة هي النواة لما سيتوسع في قابل السنين ليصير مدرسة و منهجا و مذهبا كاملا يعتبر أشهر مذهب في فقه الإسلام .

ورغم الحملة الشرسة التي شنها بعض من كبار المحدثين على منهجية أبي حنيفة في التعامل مع النصوص النبوية ، و إغراقه في القياس ، و ما يبدو إهمالا للحديث و الآثار المروية[278]، إلا أنه يظل أحد كبار رجال السنة الذين قرروا المذهب العقدي و بينوه و نافحوا عنه و ردوا على الفرق و المذاهب الأخرى ؛ يتضح ذلك في الاحترام الذي ناله في العصور اللاحقة من طرف فقهاء الحديث أنفسهم ؛ و قد جاءت روايات تجمل مذهب أبي حنيفة من أهم المسائل التي كانت محل جدال في عصره من ذلك ما سجله أحد مرتاديه : «... قال : سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر قال لا تكفر أحدا بذنب ولا تنفي أحدا من الإيمان وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولا تَتَبَرأ من أحد من أصحاب رسول الله ولا توالي أحدا دون أحد وأن ترد أمر عثمان وعلي رضي الله عنهما إلى الله تعالى...»[279]

---

[277] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ص : 335

[278] انظر : محمد بن زاهد الكوثري : **تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب** ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1981 ، ص : 14

وهبي سليمان الألباني : **منن الرحمن على التابعي أبي حنيفة النعمان** ، ط1 ، مكتبة الإمام أبي حنيفة ، بيروت ، سنة 1994 ، ص : 15

[279] محمد بن أبي يكربن قيم الجوزية : **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية** ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1984 ، ص ص: 73 - 74 . جاء فيه : « ... ... قلت : فأخبرني عن أفضل الفقه قال يتعلم الرجل الإيمان والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأئمة وذكر مسائل في الإيمان ثم ذكر مسائل في القدر...» .

«...سمعت أبا عصمة يقول : سألت أبا حنيفة : من أهل الجماعة ؟ قال : من فضل أبا بكر وعمر وأحب عليا وعثمان وآمن بالقدر خيره وشره من الله ومسح على الخفين ولم يكفر مؤمنا بذنب ولم يتكلم في الله بشيء...» . أنظر :

أحمد بن الحسين البيهقي : **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث** ، تـ أحمد عصام الكاتب دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة 1401 هـ ، ص: 163

هاك نموذجا عن التهم التي تعرض لها .

«...عن سفيان الثوري رضي الله عنه قال : قال لي حماد بن أبي سليمان : أبلغ أبا حنيفة المشرك أنى منه بريء . قال سليمان ثم قال سفيان : لأنه كان يقول القرآن مخلوق . وحاشى الإمام الأعظم أبو حنيفة رضي الله عنه من هذا القول ، بل هو زور وباطل ، فإن أبا

ويبدو أن أبا حنيفة مع لزومه العلم و التفقه ثم الإشراف على الحلقة و تسييرها لم يقطع صلته بالتجارة ، خاصة إذا انتبهنا إلى أن العلم في ذلك الوقت كان عملا من أعمال القربات من الله ، لا يبتغي العالم منه المال ، ولم تنشأ بعد المدارس التي تجعل للمعلم معلوما ، فكان على العالم أن يسلك طريقين : إما الالتزام بالزهد في حياته الشخصية و قبول ما يأتيه من هبات وهدايا من أصدقائه أو من رجال الدولة لينفقها على من هم تحت كنفه ، أو يجد نفسه مضطرا للامتهان و العمل . و قد كان أبو حنيفة من الصنف الذي يجد رغبة في التجمل وسعة العش والاهتمام بمظهره ، فظل على صلة بالتجارة ينفق منها على أهله ويتصدق منها و يبر بها من حوله من طلبته و الوافدين عليه ، حتى كان ذلك من الخصال التي شهرته و رفعته بين العامة في الكوفة و حببت فيه أهلها [280]، ولم أقع في جملة الروايات التي عجت بالطعن في طريقته الفقهية أو خياراته في فتاواه وأقضيته أي طعن على مسلكيته الاجتماعية ، بل كان كرمه وتنزهه وورعه وبره و خيره مما ضربت به الأمثال ، و أقر به العدو و الصديق [281].

و خلال ثلاثين سنة من العمل الدءوب كانت حلقة أبي حنيفة تتوسع ويزداد عدد المنتسبين إليها من الدائمين أو من العابرين ، ومن خلال التنوع الجغرافي ضمن المتتلمذين عليه ؛ هؤلاء الذين تختلف مدة ملازمتهم له و لغيره حسب حاجاتهم و ظروفهم ، كانوا يعودون إلى

حنيفة من أفضل أهل السنة ...» . أنظر : أبو الحسن الأشعري : **الإبانة عن أصول الديانة** : د ط ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، د ت ، ص ص : 27 - 28

[280] تجلت ثقة الناس في أبي حنيفة في الودائع الكثيرة التي كان يتحملها للناس. وقد جاء في ترجمة حماد بن أبي حنيفة :

«... ولما توفي أبوه كانت عنده ودائع كثيرة من ذهب وفضة وغير ذلك وأربابها غائبون...»

ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 2 ، ص: 205 . =

= و يتجلى رفعة قدره لدى العامة و حسن سيرته عندهم في النص التالي :«... وروى بشر بن الوليد عن القاضي أبي يوسف قال : بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة إذ سمعت رجلا يقول لآخر هذا أبو حنيفة لا ينام الليل. فقال أبو حنفية : والله لا يتحدث عني بما لم أفعل ، فكان يحيى الليل صلاة وتضرعا ودعاء ...» . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ص: 39

[281] انظر الروايات التالية : جاء في حكاية إنفاق أبي حنيفة على تلميذه أبي يوسف « ... كان يتعاهد ني وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاد شيء وكأنه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت ...» . أبن خلكان : المصدر السابق ج: 6 ، ص: 380

«... وعن حماد بن أبي حنيفة : قال كان أبي جميلا تعلوه سمرة وله هيئة كثير التعطر هيوبا لا يتكلم إلا جوابا ولا يخوض رحمه الله فيما لا يعنيه . وعن ابن المبارك قال ما رأيت رجلا أوقر في مجلسه ولا أحسن سمتا وحلما من أبي حنيفة . عن إبراهيم بن سعيد الجوهري عن المثنى بن رجاء قال : جعل أبو حنيفة على نفسه إن حلف بالله صادقا أن يتصدق بدينار وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها ...» . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص: 399 - 400

أمصارهم يحملون علم الإمام و مناقبه ، فيستحثون بذلك غيرهم للوفود عليه و الأخذ منه . ورغم قسوة بعض الاتهامات التي تعرض لها من طرف المتشددين من كبارا لمحدثين[282] ، إلا أن ذلك لم يمنع المعجبين بفقهه و قدرته على الاستبطان وبراعة أجوبته في معضلات المسائل ، خاصة الباب الذي برع فيه حتى غدا ملتصقا به ، وهو "باب الحِيَل" من الفقه .وقد عزز موقع الكوفة الجغرافي بوصفها أحد طرق الحج المهمة من مهمة ذيوع المذهب و انتشاره ، حتى قبل أن تكرسه الدولة ممثلا في شخص كل من أبي يوسف قاضي القضاة و محمد بن الحسن الشيباني وغيريهما من أساطين المذهب الحنفي .

ولما لم يكن غرض البحث التوسع في تفاصيل حياة الإمام و أخباره وعلاقاته المختلفة والمتباينة مع علماء عصره من مختلف الطوائف ، و التي تتدرج من الحب و التقدير والإعجاب و الثناء[283] إلى اللامبالاة و التجاهل بل لغاية الكره الكبير و المقت الشديد و الأحكام الظالمة و صنوف التهم المختلفة ، فإنني أجد نفسي مضطرا لركوب متن الاختصار الشديد .

لقد عاصر أبو حنيفة الدولة الأموية وعاش أغلب عمره تحت حكمها ، إذ كان عمره لما نجح العباسيون في ثورتهم يفوق الخمسين سنة ، ثم عاش في ظل الدولة العباسية دون العشرين سنة ولقد حاولت كلتا الدولتين الزج به كعامل من عمالها في المجال الذي يحسنه و هو القضاء ، و ذلك لمكانته و علمه و بعد صيته و استطالة شهرته ، إذ كان مشهورا بالذكاء وحسن النظر إبان العهد الأموي ، خاصة إذا علمنا أن رآسته للحلقة كان قبل سقوط

---

[282] أبو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص: 258 - 259 . جاء فيه :

«... حدثني أخي إسحاق بن عيسى قال كنا عند حماد بن زيد ومعنا وهب ابن جرير، فذكرنا شيئا من قول أبي حنيفة ، قال حماد بن زيد :اسكت لا يزال الرجل منكم داحضا في بوله يذكر أهل البدع في مجلس عشيرته حتى يسقط من أعينهم ، ثم أقبل علينا حماد فقال : أتدرون ما كان أبو حنيفة إنما كان يخاصم في الأرجاء ، فلما تخوف على مهجته تكلم في الرأي ، فقاس سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضها ببعض ليبطلها وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقاس...» .

المصدر نفسه : **ج:** 6 ، ص: 259

و قد شحن كل من أبي نعيم و الخطيب البغدادي كتابيهما بجملة وافرة من آراء الذين انتقدوه و شنعوا عليه ولا يخفى تعصبهما عليه لانتسابهما لمدرسة أهل الحديث .

[283] «...قال سمعت بن المبارك قال إن كان الأثر قد عرف واحتيج إلى الرأي فرأي مالك وسفيان وأبي حنيفة وأبو حنيفة أحسنهم وأدقهم فطنة واغوصهم على الفقه وهو أفقه الثلاثة ...» «... قال سمعت شداد بن حكيم يقول: ما رأيت أعلم من أبي حنيفة .. سمعت مكي بن إبراهيم ذكر أبا حنيفة فقال : كان أعلم أهل زمانه .. سمعت مليح بن وكيع يقول سمعت أبي يقول : ما لقيت أحدا أفقه من أبي حنيفة ولا أحسن صلاة منه .. سمعت النضر بن شميل يقول: كان الناس نياما عن الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة بما فتقه وبينه...» . الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج 13 ، ص : 345

الدولة الأموية بأكثر من عشرة سنين ، ثم أدركته الدولة العباسية و قد استقام إماما كبيرا من أهم أئمة الإسلام و أعمقهم أثرا ، إلا انه كان شديد النفور من أجواء السلطة ، عميق الحساسية لكرامته و حريته وسلامة ما يصدره من أحكام و فتاوى ، يعلم الثمن الذي يدفعه من كل ذلك إذا استجاب لإغراءاتها ؛ فكان أن رضي بما يجلبه عليه موقفه من نارها لينتظم كأحد البارزين في تاريخ من أمتحن في الإسلام .

هذا وأن نصيبا كبيرا من العنت الذي تعرض له ، يعود بصورة أساسية لرأيه و قناعته الفقهية في مسألة الإمامة و شرعية الخلافة و ما يستتبع ذلك من مواقف عملية لا تعجب الدولة و سأحاول عرض مذهبه السياسي و مواقفه التاريخية مما يندرج في صلب البحث .

فقــهه السياسي :

يشرح الجصاص مذهب أبي حنيفة في مسألة الخروج على إمام المسلمين إذا تحقق فسقه وعم ظلمه ، بقوله : «... و كان مذهبه مشهورا في قتال الظلمة و أئمة الجور و لذلك قال الأوزاعي : احتملنا أبا حنيفة على كل شيء حتى جاءنا بالسيف فلم نحتمله ، و كان من قوله وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فرض فإن لم يؤمر له فبالسيف ...»[284] . وينقل أيضا في موضع آخر على لسان أبي حنيفة مناظرة جرت بينه و بين أحد فقهاء خراسان في مسالة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في الأيام التي شهدت نجاحات أبي مسلم الخراساني في التمهيد للدولة العباسية ، وقد بلغ شأوا بعيدا في العسف و الظلم والقتل على الريبة : « ...فسألني عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، إلى أن اتفقنا على أنه فريضة من الله تعالى فقال لي : مد يدك حتى أبايعك ، فأظلمت الدنيا بيني و بينه...» وقد أوضح علة ذلك بقوله : « دعاني إلى حق من حقوق الله فامتنعت عليه ، وقلت له إن قام به رجل وحده قتل و لم يصلح للناس أمر ، و لكن إن وجد عليه أعوانا صالحين ورجلا يرأس عليهم مأمونا على دين الله لا يحول .. هذا أمر لا يصلح بواحد ، ما أطاقته الأنبياء حتى عقدت عليه من السماء ...» ثم يوضح فكرته بقوله :«...وهذه فريضة ليست كسائر الفرائض لأن سائر الفرائض يقوم بها الرجل وحده ، وهذا متى أمر بها رجل وحده أشاط

[284] ابو بكر الجصاص : **أحكام القرآن** ، د ط ، ج 1 ، البهية ، مصر ، سنة 1347 هـ ، ص : 81

بدمه و عرض نفسه للقتل فأخافان يعين على قتل نفسه، وإذا قتل الرجل لم يجترئ غيـره أن يعرض نفسه .»[285]

وثمة نصوص أخرى ، تزيد الأمر وضوحا من ذلك ما ذكره أحد طلبته : «... فقلت فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيتبعه على ذلك ناس فيخرج عن الجماعة هل ترى ذلك قال لا قلت ولم وقد أمر الله تعالى رسوله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فريضة واجبة فقال كذلك لكن ما يفسدون أكثر ممن يصلحون من سفك الدماء واستحلال الحرام ...»[286]

وقد تجلت قناعة أبي حنيفة في هذه المسالة في موقفه العملي الفعلي من أهم الثورات التي شهدها ، سواء منها التي قامت في وجه الأمويين أو التي اشتعلت على عهد بني العباس ، من أهمها ثورة زيد بن علي سنة 122 هـ ـ 740م [287] ، في عهد هشام بن عبد الملك ، وملخصها أن زيدا وفد الكوفة فاجتمع عليه شيعتها من اجل أن يقودهم في الثورة على الحكم الأموي و قالوا له : «... لنرجو أن يكون هذا الزمان الذي تهلك فيه بنو أمية ، و جعلوا يبايعونه سرا . فبايعه أربعة عشر ألفا على جهاد الظالمين و الرفع عن المستضعفين ...»[288] . لكنهم رجعوا يسألونه في مسائل تمس اعتقادهم في الصحابة : «... فقالوا ما تقول في أبي بكر و عمر . قال : ما أقول فيهما إلا خيرا . فتبرؤوا منه و نكثوا بيعته ...»[289] و قالوا له : «...فلم تطلب بدم آل البيت؟ فقال: إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر ، و لكن القوم استأثروا علينا به و دفعونا عنه و لم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا ، و قد ولوا فعدلوا و عملوا بالكتاب و

---

[285] الجصاص ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص : 39

[286] راجع ما كتبه إبن حزم : «...وذهبت طوائف من أهل السنة وجميع المعتزلة وجميع الخوارج و الزيدية إلى أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك قالوا فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا ييئسون من الظفر ففرض عليهم ذلك وإن كانوا في عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر كانوا في سعة من ترك التغيير باليد وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكل من معه من الصحابة .. ومن خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن وهاشم بن بشر ومطر ومن أخرج مع إبراهيم بن عبد الله وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة و الحسن بن حيي ...» . أبو محمد علي بن حزم : **الفصل في الملل والأهواء و النحل** ، ت محمد إبراهيم المصري و آخرون د ط ، ج 5 دار الجيل بيروت ، سنة 1985 ، ص : 20

[287] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 273 ـ 274

[288] غريغوريوس الملطي ابن العبري : **مختصر تاريخ الدول** ، د ط ،المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، سنة 1958 ، ص : 116

[289] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

السنة ...» فلم يعجبهم هذا الجواب المعتدل فعادوا يستفسرونه قالوا : فلم تقاتل هؤلاء إذا ؟ قال : « إن هؤلاء ليسوا كأولئك ، إن هؤلاء ظلموا الناس و ظلموا أنفسهم ، و إني أدعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم و إحياء السنن و إماتة البدع ، فإن تسمعوا يكن خيرا لكم ولي ، و إن تأبوا فلست عليكم بوكيل ...»[290] فتبرؤوا منه و سعوا به و لم يبق معه إلا عدد قليل .وبلغ خبره أسماع الدولة فاستعدت لخروجه استعدادا تاما، حيث انتهى أمره مقتولا ناعيا على شيعة الكوفة الخذلان قائلا: « ... جعلتموها حسينية ...»[291] .

والروايات تذكر أن أبا حنيفة ساعد زيدا في خروجه هذا و أمده بالمال و كان ينصح الناس ويشير عليهم بالخروج معه ، وشبه خروجه بخروج رسول الله في بدر ، في أهليته و وضوح الحق فيه . لكن لما جاءته رسالة زيد يطلب فيها العون منه ، قال لحاملها : «... لو علمت أن الناس لا يخذلونه و يقومون معه قيام صدق ، لكنت أتبعه و أجاهد معه من خالفه ، إنه إمام صدق ، و لكني أخاف أن يخذلوه كما خذلوا أباه ؛، لكني أعينه بمالي فيتقوى به على من خالفه .»[292] . و هذا الموقف منه يتطابق و يتماثل مع ما سلف ذكره في الجانب النظري من رأيه إذ كان أبو حنيفة يتوقع لثورة زيد المآل الذي انتهت إليه لضعف تنظيمها الداخلي ، وانحصارها داخل الكوفة ، وقلة عدد ثوارها ، إضافة إلى قلة الإمداد المادي الذي لا مناص منه لثورة تطمح لقلب نظام الحكم في عهد هشام الذي يعد من أحزم خلفاء بني أمية . كذلك سوء رأيه في شيعة الكوفة و علمه بتاريخ خذلانهم لآل البيت .إضافة إلى أن أبا حنيفة لم يكن قد بلغ في هذه الفترة المنزلة التي تسنمها بعد ذلك ، لأنه لم يكن في هذا التاريخ قد مر عليه أكثر من سنتين على موت حماد و جلوسه مكانه في الحلقة .

---

[290] ابن كثير : المصدر السابق ، نفس الصفحة

[291] ابن العبري : المصدر السابق ، نفس الصفحة . راجع تفاصيل هذه الثورة في كل من :

المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 256 ــ 258

ابن عبد ربه : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 482ــ 483 .

ابن قتيبة : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 104 . باختلاف ملحوظ فيما بينها

علي سامي النشار : نشأة ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص : 150 ــ 159

محمد إبراهيم الفيومي : **الفرق الإسلامية و حق الأمة السياسي** ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت ، سنة 1998، ص : 105

[292] حافظ الدين الكردي : **مناقب أبي حنيفة** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1401 هـ ، ص : 440

أما الثورة الثانية التي عاصرها أبو حنيفة و كان له منها موقفا واضحا ، فهي ثورة محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية و أخيه إبراهيم ، وهما من أولاد الحسن بن الحسن بن علي ، وقد حدثت ثورتهما عام 145هـ ـ 762م، في الوقت الذي كان أبو حنيفة قد بلغ غاية الشهرة والسؤدد .

وتعود جذور هذه الثورة العلوية إلى العهد الأموي ضمن مخطط الانقلاب على الدولة الأموية بواسطة التأكيد على الحق العلوي في الخلافة ، في السياق العام الذي كانت تسير فيه الحركة الشيعية بمختلف أطيافها و اتجاهاتها . فقد سبق أن قدم المنصور ذاته بيعته لمحمد ذي النفس الزكية في الأيام التي كان فيها التحالف العلوي و العباسي يعمل في السر لإنجاح الثورة تحت شعار " الدعوة للرضا من آل البيت " . فلما تحقق للثورة مبتغاها و تحولت في ظروف لا تخلو من غموض إلى أن يحتكرها البيت العباسي رفض ذو النفس الزكية و أخوه وغيرهما من المتحمسين لحق البيت العلوي في الحكم الاعتراف بالأمر الواقع ، و فضلوا مواصلة العمل ومضوا على سنة الاختفاء و الكتمان شأن كل عمل سياسي لا ترضاه الدولة القائمة ، و قاموا ببث الدعوة في مختلف الأمصار كخراسان و الجزيرة و الري*[293] و طبرستان و اليمن و شمال إفريقيا ، وجعل النفس الزكية مركزه بالحجاز كما استطاع ضمان نصرة مائة ألف يحمون ظهره ، الأمر الذي اقض مضجع المنصور ، و نغص عليه هناءته لما يعلم من عمق الحب و التقدير الذي يحضى به خصمه في أوساط الناس . و قرر النفس الزكية أن يخرج في رجب من سنة 145 هـ بعد أن أرهقته مطاردات المنصور ، وجعل من المدينة مركز نشاطه وأرسل أخوه إبراهيم إلى البصرة . فترك المنصور بناء بغداد ووجه جهده للقضاء على خصمه و اعتبر الأمر مصيريا[294] ، حيث تذكر الروايات مقدار الهم الذي ركب المنصور حتى شغله عن مطعمه و هيأته و عن أهله ، بل بلغ به الأمر إلى تجهيز كتيبة من الفرسان ليستظهر بهم حال انهزامه و فراره ، لكن الثورة آلت للفشل لإعتبارت عدة ليس أقلها سوء التخطيط و قصور التدبير كعادة الثورات الشيعية السابقة وانتهى النفس الزكية و أخاه مجندلين في المدينة و الكوفة . ذكرت أن أبا حنيفة شهد تفاصيل تلك الثورة وكان له فيها موقف علني ، إذ تورد الروايات

---

293 * الري : مدينة مشهورة من أمهات البلاد كثيرة الخيرات وافرة الغلات قديمة البناء .

القوزيني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 375

294 الطبري : المصدر السابق ، ج 9 ، ص ص:212ـ 220

التاريخية انه كان ينصح الناس ويحضهم عل مساندة الثورة ، و أفتى بـان الخـروج معهـا أفضل من الحج النفل خمسين أو سبعين مرة و قال لرجل اسمه أبو إسحاق الفـزاري*[295] : «... مَخْرَج أخيك أحب إلي مِن مَخْرَجِك ...» وكان اخو الفزاري ممن ساند النفس الزكية و أخاه ، في حين كان مخرج الفزاري لجهاد الكافرين في الثّغور[296] .

يعني موقفه هذا أن الجهاد لتخليص الأمة الإسلامية من سطوة الخليفة الفاسق أو الظـالم أولى و أفضل من قتال الكفار[297] .و كانت عين المنصور غير نائمة عما يدور في مجـالس أبي حنيفة فكان يرسل من يتقصى خبره ، و كان هذا من الأمور التي أججت غيظه عليه[298] .

لقد جاء موقفه هذا مسايرا لنظريته التي تنص على وجوب الخروج على الخليفة إذا علـم فسقه و جوره و عم ظلمه ، مع العلم انه لم ينفرد برأيه هذا في ثورة النفس الزكية خصوصا إذ كان للإمام مالك نفس الموقف التي تجلت في فتواه الشهيرة في بطلان طلاق المكـره ، و حلف المكره و بيعة المكره . الأمر الذي عرضه لغضب والي المدينة فقام بجلده و التشهير به .

ولعل الأمر يزداد وضوحا فيما يخص آراء أبي حنيفة و مواقفه التاريخية التي تمس مسألة الخلافة إذا استعرضنا بقية مواقفه و الحوادث التي حصلت له سواء في العهد الأمـوي أو العباسي ؛ إذ أن استقراء الروايات يتجه نحو تصويره في صورة الذي يرفض أن يتـولى أي عمل لكلا الدولتين ، و في كلتيهما يتعرض لمحنة الضرب و الحبس .

---

[295]* **الفزاري** : ثقة فاضل نزل الجزيرة ، صاحب سنة وغزو ، مات بالمصيصة سنة 188 هـ

ابن سعد : **الطبقات الكبرى** ، د ط ، ج 7 ، دار صادر ، بيروت ، د ت ، ص : 313

[296] الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج13 ، ص: 397 - 398

[297] محمد علي قطب : **الأئمة الأربعة** ، د ط ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، د ت ، ص : 49

احمد الشرباصي : **الأئمة الأربعة** ، د ط ، دار الجيل ، بيروت ، د ت ، ص ص : 41 ــ 43

[298] عرض ابن حزم لهذا الأمر و لخصه كالتالي : « ... الإمام محمد بن عبدا لله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبـي طالب وكان أبو حنيفة رحمه الله على بيعته و من جملة شيعته ، حتى رفع الأمر إلى المنصور فحبسه حـبس الأبـد ، حتى مات في الحبس . وقيل إنه إنما بايع محمد بن عبدا لله الإمام في أيام المنصور . ولما قتل محمد بالمدينة بقي الإمـام أبو حنيفة على تلك البيعة ، يعتقد موالاة أهل البيت ، فرفع حاله إلى المنصور ...» . ابن حزم : الفصل ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 158

روي حفيده قال : «... مررت مع أبي بالكناسة فبكى فقلت له يا أبت ما يبكيك فقال يا بني في هذا الموضع ضُرب أبي عشرة أيام في كل يوم عشرة أسواط على أن يلي القضاء فلم يفعل والكناسة بضم الكاف موضع بالكوفة...»[299]. كان ذلك أيام الدولة الأموية ، أما في العهد العباسي فتكاد الروايات تجمع على محنته مع المنصور و التي سأجملها طلبا للاختصار ، إذ مفادها أن أبا جعفر المنصور نقله من الكوفة إلى بغداد فأراده على أن يوليه القضاء فأبى فحلف عليه ليفعلن فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل فحلف المنصور ليفعلن فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل «...وقال إني لن أصلح للقضاء فقال حاجب المنصور: ألا ترى أمير المؤمنين يحْلِف ، فقال أبو حنيفة : أمير المؤمنين على كَفَّارة أَيْمَانه أقدر مني على كفارة أيماني وأبى أن يلي فأمر به إلى الحبس في الوقت...»[300] . ثم يورد ابن خلكان خبرا آخر مفاده أن المنصور استعمله على عد اللبن المستعمل في بناء بغداد تكفيرا عن يمينه .

---

[299] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 5 ، ص: 408

ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق ، ج 1 ، ص: 228

«...ولقد ضربه ابن هبيرة على القضاء فأبى أن يكون قاضيا ...» . أنظر : الذهبي : السير، المصدر السابق ، ج6 ، ص: 395

[300] ابن خلكان : المصدر السابق ، ص : 408

الراغب الأصفهاني : **محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء البلغاء** ، ط 2 ، دار الجيل ، بيروت ، سنة 1986 ، ص: 84

. « ...وقال الربيع رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول اتق الله ولا ترعي أمانتك إلا من يخاف الله والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك ثم تهددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق و لك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك فقال له كذبت أنت تصلح فقال له قد حكمت لي على نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضيا على أمانتك وهو كذاب...» .

ابن خلكان : نفس المصدر، ج 5 ، ص ص: 407 - 408

«...وتوفي في رجب وقيل في شعبان سنة خمسين و مائة وقيل لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من السنة وقيل سنة إحدى وخمسين وقيل ثلاث وخمسين والأول أصح وكانت وفاته ببغداد في السجن ليلي القضاء فلم يفعل هذا هو الصحيح...»

ابن خلكان : نفس المصدر ، ص: 414

انظر : القزويني : **آثار البلاد** ، المصدر السابق ، ص : 252 . كذلك : الذهبي : السير، المصدر السابق ، ج 6 ، ص: 401 ــ 402

لكنه يعلق عليه :«... ولم يصح هذا من جهة النقل...»[301] . وتذهب بعض الأخبار إلى أنـــه مات في سجنه ببغداد كما ذهب أخرى إلى أنه قضى نحبه مسموما ، سمه المنصـــور عقابـــا على مواقفه التاريخية خصوصا دوره في ثورة النفس الزكية .

الأوزاعـــــي :

---

[301] ابن خلكان : المصدر السابق ، ص : 408 . لكن ذات الرواية نجدها لدى الطبري:
«...أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القضاء فامتنع من ذلك فحلف المنصور أن يتولى له وحلف أبو حنيفة ألا يفعل فولاه القيام ببناء المدينة وضرب اللبن وعده وأخذ الرجال بالعمل قال وإنما فعل المنصور ذلك ليخرج من يمينه قال وكان أبو حنيفة المتولي لذلك حتى فرغ ...» انظر : الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 24

عبد الرحمن الشرقاوي : **أئمة الفقه التسعة** ، ط 3 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986 ، ص ص : 70 - 71

أحد الأئمة الأعلام الذين أنجبتهم بلاد الشام ، وأحد أبرز رجال السنة ، و واحد من الذين استطاعوا بفضل سعة علمهم أن يؤسسوا لأنفسهم مذهبا فقهيا مستقلا بذاته ، لكن لم يقدر لمذهبه الذيوع و الانتشار كما قدر للمذاهب المشهورة .

حلاه أبو نعيم الأصفهاني بقوله : « ... العَلَمُ المَنْشور والحَكَم المشهور الإمام المُبَجل والمِقْدَام المفضل عبد الرحمن بن عمرو أبو عمر الأوزاعي رضي الله تعالى عنه .. كان ممن لا يخاف في الله لومة لائم مِقْوَالا بالحق لا يخاف سَطْوَةَ العظائم ...»[302] . و زكاه الذهبي في الترجمة الحافلة التي وضعها له فقال : «... شيخ الإسلام وعالم أهل الشام أبو عمرو الأوزاعي كان يسكن بمحلة الأوزاع وهي العقيبة الصغيرة ظاهر باب الفراديس بدمشق ثم تحول إلى بيروت مرابطا بها إلى أن مات...» «...وقيل كان مولده ببعلبك* سنة ثمان وثمانين وكان خيرا فاضلا مأمونا كثير العلم والحديث والفقه حجة توفي سنة سبع وخمسين و مائة ، وأما البخاري فقال لم يكن من الأوزاع بل نزل فيهم ...»[303]. و ذكر اختلافا في تاريخ ميلاده لكن الراجح في ذلك ما جاء في النص ، بحيث تؤكده شهادة صاحب الترجمة ذاته : «... كنت محتلما أو شبيها بالمحتلم في خلافة عمر بن عبد العزيز...»[304]. فإذا أخذنا في الحساب تاريخ خلافة عمر من سنة 99 هـ إلى سنة 101 هـ[305] مع اعتبار معنى الشبيه بالمحتلم الذي ذكره استقام لنا الارتياح إلى التاريخ المعتمد ؛ و هو 88 هـ ــ 707م. الأمر الذي يعني أنه ولد في لسنتين خلتا من وفاة عبد الملك بن مروان[306] و اعتلاء الوليد بن عبد الملك عرش الخلافة فعاصر خلافة سليمان بن عبد الملك حتى آخر خليفة

---

[302] أبو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ج 6 ، ص: 135

- **بعلبك** : مدينة مشهورة بقرب دمشق و هي قديمة ، بنقل منها الميرة الى بلاد الشام . القزويني : آثار البلاد ، المصدر السابق ، ص : 156

[303] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص ص:107 ــ 109 . و يتوسع الذهبي في إيراد مختلف الروايات التي تدور حول أصل الأوزاعي و نسبه من بينها : « ... قال ضمرة بن ربيعة الأوزاع اسم وقع على موضع مشهور بربض دمشق سمي بذلك لأنه سكنه بقايا من قبائل شتى الأوزاع الفرق تقول وزعته أي فرقته قال أبو زرعة الدمشقي اسم الأوزاعي عبد العزيز بن عمرو بن أبي عمرو فسمى نفسه عبد الرحمن وكان أصله من سبي السند نزل في الأوزاع فغلب عليه ذلك وكان فقيه أهل الشام وكانت صنعته الكتابة والترسل ورسائله تؤثر...»

[304] نفس المصدر ، نفس الصفحة

[305] 717م ــ 719 . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 225

[306] توفي عبد الملك سنة 86 هـ . أنظر : ابن كثير : المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 55. ابن العبري : التاريخ ، المصدر السابق ، ص : 113

أموي وهو مروان بن محمد الجعدي فعدد من عاصره من خلفاء بني أمية تسعة[307]. أما عدد الذين عاصرهم من خلفاء بني العباس فهم السفاح و المنصور .

نشأ يتيم الأب في كفالة أحد أصدقاء أبيه ؛ إذ توفي والده سنة 93 هـ ــ 712م و سنه لا تتجاوز الخامسة ، فكفلته أمه مدة قصيرة . و لابد أن أوضاعها لم تكن مستقرة إذ يصف ابن كثير مدة كونه معها بالاضطراب : « ... وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد ...»[308] . و ربما كانت من الفقر و الحاجة ما أعجزها عن تحمل أعباء صغيرها ؛ إذ جاء في إحدى الروايات على لسان أحد شهود طفولته : « ...فما رأيت أبي يتَعَجَّب من شيء في الدنيا تعجبه من الأوزاعي ، فكان يقول : سُبْحَانك تَفْعَلُ ما تشَاء ؛ كان الأوزاعي يتِيما فقيرا في حِجْر أمه تَنْقُلُه من بلد إلى بلد ، و قد جَرى حكْمُك أَنْ بَلَّغْتَه حيث رأيتُه .. عَجَزَت الملوك أن تؤّدب نفسها وأولادها وضَوْءُ الأوزاعي في نفسه ...»[309] ثم سلمته للأحد أصدقاء والده فأحسن كفالته وتربيته و تعليمه : « ... فذهب بي إلى بيته فكنت معه حتى بلغت فألحقني بالديوان ... »[310] .

وقد بدت تباشير النجابة و النبوغ عليه منذ صغره ؛ حيث : «... تَأَدب بنفسه فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء و الوزراء و التجار و غيرهم أعقل منه و لا أورع و لا أعلم و لا أفصح و لا أوقر و لا أحلم و لا أكثر صمتا منه ، و كان يُعَاين الرسائل و الكتابة...»[311]

ولا يبدو أن الأوزاعي كان يعي هدفه في بداية حياته و لا كان يطمح للمصير الذي انتهى إليه كعلم من أعلام الدين ؛ إذ يبدو أن ولعه العلمي الذي أصفاه عمره جاء أشبه بالصدفة غير المحسوبة . فوجد للعلم حلاوة و أنس من نفسه استعدادا فحمل عصا الرحيل إلى المدينة بين عامي 110 هـ و 113هـ[312] ؛ حيث دخلها طلبا للعلم[313] ، وهي

---

[307] وهم كالتالي : الوليد بن عبد الملك ، سليمان بن عبد الملك ، عمر بن عبد العزيز ، يزيد بن عبد الملك ، هشام بن عبد الملك

الوليد بن يزيد ، يزيد بن الوليد ، إبراهيم بن الوليد ، مروان بن محمد .

[308] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ،ص : 94

[309] ابو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ج 6 ، 134

[310] ابن كثير : المصدر السابق ، ص :94

[311] نفس المصدر ، نفس الصفحة

[312] 728م ــ 731م

بلد السنة بامتياز حيث لا تزال ذكرى النبي صلى الله عليه و سلم ندية رطبة ؛ محفوظة و مروية ، فالتقى بالجلة من علمائها الموثوقين منهم و المعروفين بالتثبت في الرواية و الفتوى و لم يفوت فرص الحج ؛ إذ كان يشد رحاله ييمم شطر مكة حتى يتسنى له لقاء من لم يلقه و سماع ما فاته من الحديث الشريف و الفقه و المناسك والمغازي ؛ حتى غدا علما من أعلام المسلمين في الشام و في غيرها . فشهد له بذلك شيوخه و أقرانه و نظراءه و حرصوا على لقائه و الاجتماع به .

لقد كان الأوزاعي سنيا متعصبا ــ إذا صح التعبير ــ شديد التمسك بسنيته معتدا بها ، كثير التنبيه لأهمية الانتماء السني على مستوى الخلاص الآخروي « ... قال : رأيت رب العزة في المنام فقال لي يا عبد الرحمن أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر قلت بفضلك يا رب فقلت يا رب اَمِتْنِي على الإسلام فقال وعلى السنة ...»[314]. و قال : «... كان يقال خمس كان عليها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والتابعون بإحسان لزوم الجماعة وإتباع السنة وعمارة المسجد وتلاوة القرآن والجهاد في سبيل الله ...»[315] . وقد جاءت حكايات عديدة عنه تلمح إلى ما كان يسلكه في حياته من التزام بالسنة والدعوة إليها و منابذة كل من يرى أو يسمع عنه شيئا من الانحراف عليها . فيروى أن : «... ثَوْرًا [316]لقي الأوزاعي فَمَد يده إليه فأبى الأوزاعي أن يمد يده إليه وقال يا ثور لو كانت الدنيا لكانت

---

[313] « ... قال: قدمت المدينة في خلافة هشام فقلت من هاهنا من العلماء قالوا هاهنا محمد بن المنكدر ومحمد بن كعب القرظي ومحمد بن علي بن عبدا لله بن عباس ومحمد بن علي بن الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت والله

لأبدأن بهذا قبلكم...» . أبو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ص: 146

[314] ابو نعيم : المصدر نفسه ، ص ص : 142 - 143 . لقد كان يخشى أن يشهد الوقت الذي يبطل فيه العمل بالسنة ، وكان يتنبأ بشيء مثل هذا لشدة اهتمامه بهذا الأمر : « ... كان يقال : يأتي على الناس زمان أقل شيء فيه أخ مؤنس أو درهم من حلال أو عمل في السنة ...» .

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ، ص : 181

[315] أبو نعيم : المصدر السابق ، نفس الصفحة . راجع عقيدته بوضوح في النص التالي : «... اصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم وقل بما قالوا وكف عما كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم ، ولا يستقيم الإيمان إلا بالقول ، ولا يستقيم القول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بالنية موافقة للسنة ، وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل ؛ العمل من الإيمان والإيمان من العمل...» . نفس المصدر ، نفس الصفحة .

[316] * **ثور بن يزيد** : أبو يزيد الكلاعي المحدث الفقيه عالم حمص . قال أحمد : كان ثور يرى القدر وليس به بأس ، ولرأيه في القدر أخرجوه وأحرقوا داره لكلامه في القدر قال ابن سعد توفي ثور ببيت المقدس سنة ثلاث وخمسين و مائة وقيل سنة خمس وخمسين و مائة . أنظر : الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 344

المُقَارَبة ولكنه الدين وقال أحمد بن حنبل كان ثور يرى القدر...»[317]. و آخر يعد من شيوخه قاطعه و ترك صحبته لأمر فيه مخالفة للسنة آخذه عليه : «... قال محمد بن الحجاج : خرجت أريد الساحل فقال لي : زرعة[318] : إذا أتيت الأوزاعي فأقرئه مني السلام وقل له : يقول لك زرعة مَنْ عَلَّمَكَ علمك الذي تُحْسِنه ؟ قال فاجتمعت الأوزاعي و أخبرته بذلك فقال : إذا لقيته فأقرئه السلام و قل له : صدقت تَعلمنا منك فلما أَحْدَثتَ تركنا علمك ...»[319]

وكان شديد التحوط في معاملاته مع الناس من كل ما قد يخدش كرامته ، أو يعيب نزاهته أو يمس وقار العلم و هيبة الإمامة و شرف الاستقامة ، و كان إلى ذلك شديد الانتباه لكونه قدوة لغيره . و قد أثر عنه قوله : « ... كنا نَمْزَح ونضحك فأما إذا صرنا يقتدى بنا ما أرى يَسَعُنا التّبسم ...»[320]. وقال : «... لو قَبِلْنا من الناس كُلما يعطونا لَهُنَّا عليهم ...»[321]

يرجع لهذا الصدق في الالتزام الذي طبع به مسلكه مع نفسه و مع الناس كل التقدير والاحترام و الإعجاب الذين حضي بهما بين العامة والخاصة[322] ، حتى و صف بأنه : « ...رَجُلُ عَامّة ...»[323] و يعود إليه الجاه و نفوذ الكلمة و جلالة الهيبة التي ميزته عن

---

317 الذهبي : المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص : 344 ــ 345

«... أخبرني عبد الرحمن بن مهدي قال ما كان بالشام أحد أعلم بالسنة من الأوزاعي .. ابن المصفى قال سمعت بقية يقول سمعت الأوزاعي يقول ندور مع السنة حيث دارت ...» . أنظر :

أبو قاسم الالكائي : **شرح أصول اعتقاد أهل السنة و الجماعة** ، تـ أحمد سعد حمدان ، د ط ، ج1 ، دار طيبة ، الرياض ، 1402 هـ ، ص: 64

318 لم أعثر على ترجمته

319 و لقد شدد على صدقة بن عبد الله السمين حيث كتب إليه رسالة في رد القول بالقدر يعظه فيها ، لأن صدقة كان من القائلين به . أنظر : الذهبي : **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** ، تــ علي حمد البجاوي ، ط 1 ، ج 2 ، دارا حياء الكتب العربية ، مصر ، سنة 1963 ص: 311

320 ابو نعيم : المصدر السابق ، ص : 143 . ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ، ص : 180

321 الذهبي : السير ، المصر السابق ، ج 6 ، ص ص : 344 - 345

322 لم يكن مقصد المسلمين المتظلمين من رجال الدولة و غيرهم فقط ، لكنه كان مقصد جميع الناس من مختلف طوائفهم « ... أهدى نصراني إلى الأوزاعي جرة عسل فقال له يا أبا عمرو تكتب لي إلى والي بعلبك فقال إن شئت رددت الجرة وكتبت لك و إلا قبلت الجرة ولم أكتب لك قال فرد الجرة وكتب له فوضع عنه ثلاثين ...»

ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ص : 180

ابن كثير : البداية ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 97

323 الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص: 113

أقرانه في بلاد الشام ، بحيث يقال أن أحد الولاة[324] غضب عليه و هم به ، فنصحه احد أصحابه : «... دعه عنك و الله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك ...»[325] . و وصفه ابن كثير : « ... و قد كان الأوزاعي في الشام معظما مكرما ، أَمْرُه أَعَز عندهم من أمر السلطان ...»[326] . لذلك كانت الولاة وعمال الدولة تخشاه وتخاف غضبته ، حتى يروى أن أحدهم جلس على قبره لما مات فقال : «... رحمك الله ، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذي ولاني ــ يعني المنصور ــ ... »[327]

علاقته الفعلية بالدولة

يبدو أن الأوزاعي رغم تشدده في الورع و امتناعه عن مخالطة السلاطين إلا أنه كان يكاتب الولاة و الخلفاء في حوائج الناس ؛ سواء كانوا مسلمين أو من أهل الذمة ، كما يظهر من حكايته مع الذمي الذي كتب له إلى والي بعلبك ليسقط عنه بعضا من الجزية ، وكما تنص عليه الرواية التالية : « ... وكان على الموسم عبد الصمد بن على الهاشمي ، فدق داق الباب قلنا : من هذا قال : الأمير ، وقام الأوزاعي فتلقاه ، فقال له عبد الصمد بن على : من أنت أيها الشيخ ؟ قال : أنا أبو عمرو الأوزاعي قال : حياك الله بالسلام أما إن كتبك كانت تأتينا فكنا نقضى حوائجك ...»[328] . لكن ذلك لم يبلغ حَد أن يقبل بتولي أي وظيفة من وظائف الدولة ؛ قضاء كان أو غيره . ولقد حدث أن حاول بنو أمية استمالته لتولي القضاء لكنه استعصى وامتنع : «... قال أبو زرعة : أُرِيدَ على القضاء في أيام يزيد الناقص فامتنع يعني الأوزاعي جلس لهم مجلسا واحدا[329]...» و جاء في خبر آخر : «... قال عقبة بن علقمة البيروتي[330] أرادوا الأوزاعي على القضاء فامتنع وأبى فتركوه[331]...» . و قد حاول

---

[324] لم يرد ذكر اسم الوالي في المصدر و لا صاحبه

[325] ابن كثير : البداية ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 97

[326] نفس المصدر ، نفس الصفحة

[327] نفس المصدر ، نفس الصفحة

[328] الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 159

[329] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 122

[330] لم أجد ترجمته

[331] الذهبي : المصدر نفسه ، ج 7 ، ص : 117

عبد الله بن علي العباسي لما غلب بني أمية على الشام استصدار موافقة منه لتولي القضاء فأبى و تلطف في الاعتذار[332].

و قد كانت أصول اللعبة بين الدولة سواء أموية أو عباسية و بين أمثال الأوزاعي في مسألة العمل لها معروفة للطرفين ، فلم يكن الأمر مجرد الرغبة في الكفاءة ، بقدر ما هو صنيع إعلامي تمتح الدولة منه ما يظل ينقصها من شرعية ، و تحاول به تغطية ما يصنع الريبة و الاشتباه الشرعي ، وكان رفضه لعروضها و إغراءاتها مفهوم في سياق رفضه المبدئي لأصول وجودها و تأكيده على نقص شرعيتها ؛ بعبارة أخرى تأكيد صفة التغلب و القهر و الامتلاك بالقوة في بنيتها و طبيعتها ، و يكون التحذير الفقهي الذي يطلقه مثل هؤلاء الفقهاء ضد الخروج و الثورة على مثل هذه الدولة المتغلبة مندرج في صفة الرضا بأهون الشرين ؛ شر التغلب أو شر الفتنة التي لا يقوم فيها أمر الدين ولا الدنيا .

فلم يكن الأوزاعي ممن يذهب إلى جواز الخروج على الخليفة لأي سبب كان من ظلم أو فسق لما يحدثه الخروج من مفاسد دينية ودنيوية يلتاث بها أمر المسلمين . و هو رأي كاد أن ينعقد عليه إجماع أهل السنة لولا ما سبق أن عرضناه من رأي أبي حنيفة وبعض الآراء المنفردة الشاذة كرأي الحسن بن صالح* [333]. و يتضح رأيه من خلال معارضته لأبي حنيفة وسوء ظنه فيه في النص التالي :« .. قال ابن المبارك : ذكرت أبا حنيفة يوما عند

---

[332] ابن كثير : المصدر السابق ، ص ص : 95 ـ 96

[333] * **الحسن بن صالح** : أحد ائمة الحديث وولد سنة 100 هـ و توفي سنة 167 هـ .

الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 85

« ... قال احمد بن حنبل : كان الحسن بن صالح إذا ذكر عثمان سكت ، يعني لم يترحم عليه ، وترك الحسن بن صالح الجمعة سبع سنين ، فأخبرنا أبو بكر المروذي : أن أبا عبدا لله ذكر الحسن بن صالح فقال : كان يرى السيف ، ولا يرضى مذهبه . وسفيان أحب إلينا منه ، وقد كان ابن صالح ترك الجمعة بآخرة ، وقد كان أفتن الناس بسكوته .. وأخبرنا أبو بكر المروذي قال حدثنا أبو هشام قال : سمعت يحيى بن آدم أيام أبي السرايا يقول : ها هنا قوم ينتحلون قول الحسن بن صالح بن حي ، قد هلكوا وسمعت الحسن بن صالح يقول : لا أخرج وإمام قائم ولا أخرج إلا في فرقة ولا أخرج إلا في جند يوازي عدوي ، لا ألقي بيدي إلى التهلكة ولا أخرج إلا مع إمام فيه شرائع السنن كلها ، إن كانت السنن مائة شريعة وكان فيه منها تسع وتسعون شريعة لم أخرج معه ...» انظر

أبو بكر الخلال : **السنة** ، تـ عطية الزهراني ، ط 1 ، دار الراية ، الرياض ، سنة 1410هـ ، ص ص : 135ـ 137

الأوزاعي فأعــرض عني فعاتبته فقـــال: تَجِيءُ إلى رجل يَرَى السّيف في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ...»[334].

وربما لأجل ذلك و لغيره كان معظما لدى الدولة ؛ سواء الدولـــة الأمويـــة التـــي أدرك أواخرها وهو رجلا ينصت لقوله ، أو الدولة العباسية التي قضى في ظلها بقية عمره . فلقد كان الخلفاء الحازمين من كلا الدولتين شديدي التنقيب و الكشف عن الآراء و الأحكام التي يضمرها أو يعلنها هذا الفقيه أو ذاك ؛ خاصة من الفقهاء أصحاب المكانة و المنزلة و التأثير في الناس ؛ أي الذين يملكون السيادة الحقيقية القائمة على الحب العميق و الاحترام الصادق ؛ السيادة التي عبرت عنها إحدى أم ولد للرشيد : «... قدم هارون الرشيد الرقة فانْجَفَل الناس خلف ابن المبارك و تَقَطّعت النِّعَال و ارتِفْعت الغَبْرة و أشْرفت أم ولد للرشيد .. قالت ما هذا ؟ قالوا عالم من خراسان يقال له عبد الله بن المبارك . فقالت هذا والله الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بِشُرَطٍ و أَعْوان ... »[335] . و التي عبر عن حسن إدراكها هـــارون الرشيد أيضا لمـــا:

« ... ورد على الرشيد كتاب من عامل هيت[336]* : أنه مات هنا غريبا يدعى عبد الله بـــن المبارك فاجتمع الناس على جنازته . فقال الرشيد لوزيره .. ائذن للناس يُعَزوننا فيه .. لقـــد كان ابن المبارك ينشد :

اللهُ يَدْفَعُ بِالسلْطَانِ مُعْضِلَةً   عَن دِينِنَا رَحْمَةً مِنْه و رِضْوَانَا
لَوْلَا الْأَئِمةُ لَمْ يَأْمَنْ لَنا سُبُلُ   وكَانَ أَضْعَـــفنَا نَهْبًا لِأَقْوَانَـــا

و من سمع منه هذا القول مع فضله و **عظمته في صدور النـــاس** كيـــف لا يعـــرف حقنـــا ...»[337]

لذلك كان الأوزاعي معظما في صدور السلاطين : « ... و قد اجتمع بالمنصـــور حـــين دخل الشام و وعظه و أحبه المنصور و عظمه ... » [338] . و لقد استمع مرة لنصيحته فلما

---

[334] الخطيب البغدادي ، التاريخ ، المصدر السابق ، ج 13 ، ص : 397

[335] ابن الجوزي ، صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ، ص : 91

[336] * **هيت** : بليدة طيبة على الفرات ذات أشجار و خيرات . القزويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 281

[337] حافظ الدين الكردي : مناقب ، المصدر السابق ، ص : 442

[338] ابن كثير البداية ، المصدر السابق ، ص : 97

انتهى منها «...أمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال أنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا كلها وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في رده ...»[339] .

و استدعاه مرة في مجلس مثوبة ، أي مجلس انبساط كان فيه المنصور مستعدا لسماع أي شيء من رجل كالأوزاعي[340]. فوجدها الأوزاعي فرصة لأن يعظ المنصور و يقول كلمة الحق بين يديه وينهي إليه مشاغل الرعية .

فهكذا كان الأوزاعي كما وصف بأنه رجل عامة بمعنى أنه كان ينشط في قضاء مصالح العوام ، ولم يكن مجرد عابد معتزل مهتم لأمر نفسه ، و لما كان المشغول بالشأن العام متعرض لا محالة لمخالطة أرباب السلطة الممسكين بمصالح الناس ،فإن هذه الحقيقة محرجة لمن هم في مكانة الأوزاعي و علمه و تورعه . و قد كان سلوكه حيالها الإقلال قدر الإمكان من الاتصال بأجواء السلطة إتباعا لتراث خطه كبار الفقهاء الجامعين بين العلم و العبادة من التابعين ، خوفا من فتنة السلطان و ضرورة المداهنة .

لكن الأوزاعي لم يسلم من الامتحان . وقد كان ذلك إثر انتصار العباسيين على آخر فلول بني أمية فكان امتحانا عسيرا جاء كأنه فحص امني في مدى ولاء الأوزاعي للدولة الجديدة وطالت المساءلة التي أرادها عبدا الله بن علي بحث الحكم الشرعي في دماء بني أمية و أموالهم و مسألة الحق العلوي ــ العباسي في الخلافة و قضية شرعية الانقلاب العلوي ــ العباسي على الأمويين . ثم انتهى بالعرض التالي : « ... ألا أُوَلِيك القضاء ؟ فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يَشُقُّون عَلَي في ذلك ، و إني أَحِب أن يَتِم ما إِبْتدؤوني به من الإحسان . فقال : كأنك تحب الانصراف ؟ .. فلما خرجت إذا برسوله من ورائي ، و إذا معه مائتا

---

[339] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 3 ، ج 6 ، ص: 140

[340] المصدر نفسه ج 6 ، ص: 135 نص الخبر كالتالي :

: « ... حدثني الأوزاعي قال : بعث إلي أبو جعفر أمير المؤمنين وأنا بالساحل ، فأتيته فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد علي واستجلسني ثم قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعي؟ قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم . قلت : يا أمير المؤمنين أنظر ولا تجهل شيئا مما أقول لك ، قال : وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وقد وجهت فيه إليك أقدمتك له ، قلت : أن تسمعه ولا تعمل به ، قال : فصاح بي الربيع ، وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة لا عقوبة ، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام...»

دينار ، فقال : يقول لك الأمير اِسْتَنْفِق هـذه . قـال : فتصـدقت بهـا ، و إنمـا **أخـذتها خوفا...»**[341]

و جاء في رواية أخرى انه قال :«... سألني عبدا لله بن علي والمُسَوِّدَة قِيَام على رؤوسنا فقال : أليس الخلافة وصية لنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل عليها على بصفين ؟ قال قلت : لو كانت وصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حكم علي الحكمـين قـال فنكس رأسه...»[342] . لكن الامتحان لم يكن عسيرا و لم يفض إلى ما لا تحمد عقباه . و ظل الأوزاعي مبجلا معظما لحين وفاته .

[341] ابن كثير : البداية ، المصدر السابق ، م5 ، ج 10 ، ص ص : 95 ــ 96

[342] المصدر نفسه ، م 5 ، ج 10 ، ص : 141 . أنظر الروايات المختلفة التي عرضها الذهبي في علاقة الأوزاعي بالدولة العباسية و تامل تعليقه عليها : «... قد كان عبد الله بن علي ملكا جبارا سفاكا للدماء صعب المراس ومع هذا فالإمام الأوزاعي =يصدعه بمر الحق كما ترى لا كخلق من علماء السوء الذين يحسنون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسف ويقلبون لهم الباطل حقا قاتلهم الله أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق ...»

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ص ص : 118 - 125

أحمد بن حنبل :

احد أئمة الحديث الكبار ورابع الفقهاء أصحاب المذاهب المعتمدين في الفقه الإسلامي ، اشتهر أحمد بحفظه للحديث ومعرفة صحيح الآثار من سقيمها ، كما عرف بالزهد و الورع والاجتهاد في العبادة .

ولد ببغداد سنة 164هـ ـ 780م يتيم الأب وبها نشأ وطلب العلم و الحديث من شيوخها ثم رحل بعد ذلك في طلب العلم إلى البلاد ، عرف منذ صباه بجده و اجتهاده وانحياشه عن اللهو و العبث ولازمه هذا المزاج لآخر يوم في حياته ؛ خلقا عرف به بين أترابه وأقرانه كما شهد له به شيوخه أيضا ، الشيء الذي يؤكده النص التالي :

« ... قال أبو عفيف[343] ـ و قد ذكر أحمد بن حنبل ـ فقال : كان في الكتاب معنا و هو غُلَيم نعرف فضله ...»[344] .

لما بلغ سن ست عشرة سنة شرع في طلب العلم على شيوخ بغداد و ما جاورها لينتقل بعدها إلى ركوب مشاق الارتحال إلى الأمصار القريبة والبعيدة ، ليستأنف ذات التقليد الذي سنه قبله رجال الحديث و الذي أكده هو أيضا في جوابه لمن سأله :«... رجل يطلب العلم يَلْزِم رجلا عِنْدَه عِلْم كثير أو يرحل ؟ قال يرحل ، يكتب عن علماء الأمصار ، فَيُشَام الناس ويتعلم منهم...»[345] و استمر في طلب العلم والرحلة للحد الذي غدا في عيون معاصريه

---

[343] لم أجد له ترجمة

[344] أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي : **مناقب الإمام أحمد بن حنبل** ، ط2 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة 1977 ص : 20

« ...قال ابو سراج بن خزيمة : كنا مع أبي عبد الله ـ يقصد أحمد ـ في الكتاب فكان النسوة يبعثن الى المعلم ابعث الينا بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم ، فكان إذا دخل إليهم لا يرفع رأسه ينظر إليهن ، قال أبو سراج : فقال أبي : أنا أنفق على ولدي و أجيئهم بالمؤدبين فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد غلام يتيم انظر كيف يخرج ؟..» نفس المصدر ، ص: 31

و« ... عن إبراهيم بن شماس قال : كنت اعرف أحمد بن حنبل وهو غلام يحيي الليل ...»

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص : 21

[345] عبد الفتاح أبو غدة : **صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم و التحصيل** ، ط3 ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، بيروت سنة1997 ، ص : 45

ظاهرة تستدعي الفحص و التساؤل«... قال ابن منيع[346] : سمعت جدي يقول : مَرَّ أحمد بن حنبل جَائِيا من الكوفة و بيده خَرِيطَةً فيها كتب فأخذت بيده فقلت : مرة إلى الكوفة ، و مرة إلى البصرة ، إلى متى ؟ إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه ؟ فسكت ، ... فقلت مائة ألف . فقال :حينئذ يعرف شيئا . قال أحمد بن منيع : فنظرنا فإذا احمد كتب ثلاثمائة ألف عن بهز بن أسد[347]* و عفان بن مسلم[348]* ...»[349] فطاف الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن و الشام والجزيرة حاملا معه محبرته يجيب كل من يطلب منه أن يرفق بنفسه وقد بلغ ما أمل من سعة العلم « ... مع المحبرة إلى المقبرة ...» ويراه احد معارفه ببغداد[350] و هو يعدو ونعلاه بيده قاصدا مجلس حديث ، فأخذ بمجامع ثوبه و قال له : « ... يا أبا عبد الله ألا تستحي على متى تعدو مع هؤلاء الصبيان . قال : إلى الموت »[351]

ومما له دلالته فيما نحن بصدد البحث فيه ، حرص أحمد على أن تظل دائرة شيوخه محصورة في الاتجاه السني فلم يؤثر عنه انه خلط علمه بمصادر أجنبية ، اعني بها الفرق من غير السنة التي كانت تعتمل في الكيان الإسلامي آنذاك وهي : " المعتزلة " و" الشيعة " و" المرجئة " و" الجهمية " و" الخوارج " وغيرها من تيارات التفكير التي وجدت لها في فضاء الدولة الإسلامية فرصة للحركة و النشاط ، فجاءت قناعاته و عقائده و فتاواه منسجمة مع ما تواضع عليه أهل السنة من أصول و قواعد حيث تلقى علومه و معارفه على يد العلماء المعتمدين لديهم و جميعهم إما محدثين أو فقهاء يوحدهم حرصهم الكبير على

---

[346] لم أجد ترجمته و لا ترجمة جده و العهدة في الرواية على ابن الجوزي

[347] * **بهز بن أسد** : ثقة كثير الحديث حجة

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 298

[348] * **عفان بن مسلم** : ثقة كثير الحديث ، ولد سنة 134 هـ و توفي ببغداد سنة 220 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 298

[349] ابن الجوزي : مناقب ، المصدر السابق ، ص : 29

[350] لم ترد هوية هذا الرجل في المصدر

[351] المصدر نفسه ، ص ص : 31 ــ 32

تلقى أحمد العلم على يد جملة من مشاهير الفقهاء و المحدثين أبرزهم : سفيان بن عيينة و شعيب بن حرب و عبد الرحمن بن مهدي و عبد الرزاق الصنعاني و الفضل بن دكين و الشافعي ونعيم بن حماد المروزي و هشيم بن بشير الواسطي و يحيى بن سعيد القطان و وكيع بن الجراح وأبو بكر بن عياش و يزيد بن هارون و عفان بن مسلم و سليمان بن حرب و غيرهم .

المصدر نفسه ، ص ص : 33 ــ 55

الحديث الذي يشكل مصدرا أساسيا في التعرف على سنة النبي عليه السلام وفي استخلاص الأحكام الفقهية منها كما يجمعهم انصرافهم عن التيارات الفكرية التي ماجت بها الساحة الإسلامية كالعلوم المترجمة والآداب الأجنبية و الاهتمامات الفلسفية والخوض في الكلام و الاتساع في التأويل والإطلاع على تراث الأمم التي فتحها الإسلام سياسيا و حاولت هي فتحه ثقافيا ، بعبارة أخرى كل هؤلاء يجسدون الوجه النقيض لنشاطات أديب طلعة كالجاحظ ، فجميعهم يتفق على السيادة المرجعية للقرآن و السنة دون إقحام أي مرجعية أخرى و على حجية السلف الأول فيما أجمعوا عليه والتأكيد على مبدأ الإتباع و الإقتداء بالجيل الأول من الصحابة و التابعين والاعتماد لضمان كل ذلك على جمع الأخبار و الروايات و التي اقتضت حتما بروز ظاهرة الرحلة والضرب في الأرض[352] ، و لعل مصطلح " علوم النقل " الذي تكرر كثيرا في المساجلات والمناظرات التي غص بها التاريخ الثقافي و الديني للإسلام أفضل أداة لتوضيح ما أنا بصدده[353]

فجاء أحمد نسخة حادة متشددة في هذا الخط ، واستطاع بمناقبه ورسوخه العلمي و سيرته المتقشفة إضافة إلى صموده وبطولته وثباته على عقيدته أيام المحنة أن يتحول إلى ذروة هامة في المنظومة السنية ظهرت تباشيرها في شبيبته و أقرها له شيوخه ، كذا بلغ به زهده وورعه وقناعته بالقليل من متاع الحياة إلى أن يحتل مكانة عزيزة لدى الخاصة و العامة في بلده بغداد وفي غيرها ، و الروايات حافلة بما يصور حب البغاددة واحترامهم له و افتخارهم به ، يمنعني ضيق المجال عن إيرادها ، هذه المكانة التي تمتع بها هي التي كانت أيضا سبب محنته التي ابتدأت في أواخر حياة المأمون واستمرت طيلة حكم المعتصم و

---

[352] دوروتيا كرافولسكي :**العرب و إيران** ، ط 1 ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، سنة 1413 هـ ـ 1993 م ، ص ص : 58 ـ 61 وانظر :أبوغدة عبد الفتاح : **الإسناد من الدين** ، ط 1 ، دار القلم ، دمشق ـ بيروت ، سنة 1413هـ ـ 1992م ، ص :27

[353] أنظر مقالة إ جنتس ، جولد زيهر : **موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل** ، ص ص : 123 ـ 124 ، ضمن كتاب

عبد الرحمن بدوي : **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية** ، ط 4 ، دار القلم ، بيروت ، سنة 1980

كلمة النقل المشحونة بمعاني الحمل والأداء و الإبلاغ و الإيصال و معنى كون المعرفة جاهزة تأتي من مصدر آخر غير الإنسان هذا الذي عليه حفظها و فهمها و نقلها من دون الاستقلالية بالعقل و الثقة المفرطة في النفس في الوصول للحق، كما يجمع بينهم في الموقف السياسي مبدأ السلامة و اتقاء الفتنة و الحرص على إضفاء الشرعية على كل من استطاع أن يبسط سلطانه على رواق دار الإسلام يحقق تملكه بالقوة و المقدرة و التغلب ؛ حقنا للدماء و نظرا لمصلحة الأمة في دينها و مكاسبها و معايشها. أنظر : البربهاري : المصدر السابق ، ص ص : 51 - 54 . د محمود إسماعيل : **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي** ، ص : 159. أحمد أمين : **ضحى الإسلام** ، ج 1 ، ص ص : 356 - 357

الواثق ليبطلها المتوكل بقرار رسمي ، المحنة التي اشتهرت في التاريخ الإسلامي بـــ " محنة خلق القرآن " ؛ وهي القول بان القرآن مخلوق وليس قديما ، وقد كان موقــف أحمــد فيهــا مصادما لإرادة الدولة ، و تلك كانت أول مواجهة له معها ، التي ظل يتحاشاها منذ شبيبته و يبتعد عن مداراتها . فقد حصل أن ذكره الشافعي يوما عند الرشيد واقترحه للقضاء فأوســعه أحد لوما و عتابا ، وجاء الخبر من طريق آخر يجعل الخليفة الأمــين بــدلا عــن هــارون الرشيد[354].

وفي هذا السياق سأعمل على إيراد آراء احمد السياسية من خلال اقو اله و ما نقل عنه ومــا دونه لأتبعها بما صدر عنه من سلوكات و مواقف حتى نقترب من ضــبط حقيقــة علاقتــه بالدولة.

فقهــه السيــاســي :

وردت نصوص كثيرة و عبارات نقلت عنه فيما يخص آراءه السياسية و نظراته الفقهيــة التي تخص شؤون الحكم و ما ينبغي سلوكه حيال الظلم و العسف ، و في مجملها تدور حول التحرز من الخروج على من غلبت وطأته ، من ذلك قوله :

«...لا يَجُوزُ الخُروج عَلَى إِمَام ومن خرج على إمامٍ قُتِلَ الثَّاني ...»[355]

و كان كثيرا ما تعرض عليه الأسئلة خاصة أيام الفتن و من بينها فتنة القول بخلق القــرآن عهد المأمون و المعتصم فكان جوابه دائما يتمثل في التحذير من المشاركة في الثــورة، من ذلك أنه

« ... سُئِل عن طاعة السلطان فقال بيده : عَافىَ الله السلطان ...قلت له في صلاة الجمعــة وتعجيلها ، فقال : وَلَدُ العبّاس أقْوم للصلاة و أشَــــدُّهُم تَعَهُّدًا للصلاة من غيرهم قال رسول الله أَطِيعُوهم مَا أَقَامُوا فيكم الصلاة ...» « ....و روى رجل عن الفضيل أنه قــال : وَدِدْتُ أن الله عز وجل زاد في عمر هارون و نقص من عمري ، فقال : نعم يُــرْوى هــذا عنــه

---

354 الذهبي : سير ، المصدر السابق ، ج 11 ، ص : 224 «... أخبرت إن الشافعي قال لأبــي عبــد الله : إن أميــر المؤمنين ــ يعني محمدا ــ سألني أن التمس له قاضيا لليمن ، وأنت تحب الخروج إلى عبد الرزاق فقــد نلــت حاجتــك وتقضي بالحق . فقال للشافعي : يا أبا عبد الله إن سمعت هذا منك ثانية لم ترني عندك ، فظنــنت انه كان لأبي عبــد الله ثلاثين سنة أو سبعا وعشرين ...» .

355 أحمد بن حنبل : **العقــيدة** ، ت عبد العزيز السيروان ، ط 1 ، دار قتيبة ، دمشق ، سنة 1408 هــ ، ص : 124

يرحم الله الفضيل كان يخاف أن يجِيءَ أَشَر منه ...» وعرف الفتنة بقوله «... الفتنة : إِذَا لَمْ يكُن إِمَام يقوم بأمر الناس ...رأَيْتُ الفتنة مُعَلَقة بعثمان رحمه الله و رأيت الفتنة معلقة بالسلطان ...وقال لابن الكلبي و المظفر[356] رسولي الخليفة : أرى طاعته في العسر و اليسر و المَنْشَطِ و المَكْره وإني لآسف عن تخلفي عن صلاة الجماعة و عن حضوري الجمعة و دعوة المسلمين ...» يقصد الخليفة المتوكل وقال فيه : « ...و إني لأدعو له بالتَّسْديد و التوفيق في الليل و النهار والتأييد و أرى ذلك واجبا علي ...و إني لأدعو له بالصلاح و العافية ...» ، وقال أيضا فيه : « ...لقد أَمَاتَ عن الناس أَمُورًا قد كانوا أَحْدثوها من دَرْسِ الإسلام و إظهار المنكر... فأحيا السنة...»[357] ، وكان يقول : «... الخلافة في قريش ما أقاموا الصلاة...و لا طاعة لهم في معصية الله ... ومن دعا منهم إلى بدعة فلا تجيبوه ولا كرامة و إن قدرتم على خلعه فافعلوا...»[358].

من هذه الأقوال و غيرها نلمح مذهب أحمد في الإمامة و الذي فحواه الحرص على حياطة الاستقرار و الأمن و نبذ الفتنة ، و الورع الشديد في أمور الدماء ، الشيء الذي يوضحه تعاطيه مع جميع الآثار و الأحاديث المروية في التحريض على الخروج على الأئمة و سلوك سبيل الثورة في دفع الظلم من منطلق التجريح و التضعيف ، مما دفع تلميذه الخلال إلى أن يعنون أحد أقسام كتابه « السنة » بـ « باب بيان أحاديث ضعاف رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم فسر أحمد ضعفها و ثبت غيرها مما روي عن النبي في ترك الخروج على السلطان و كف الدماء و إن حرموا الناس أعطياتهم »[359] ، هذا مضمون ما صدر عنه من أقوال و اشتهرت نسبتها إليه ، لكن الذي يهمنا هو مواقفه الفعلية التاريخية بما أن غرض البحث في أساسه هو فحص العلاقة كما تتجسد في مواقف و سلوكات و أحداث ، ذلك لأن البحث محكوم بالرؤية التاريخية حصرا .

علاقته الفعلية مع الدولة :

---

[356] لم أعثر على ترجمة لهما لكن يبدو أنهما من عمال المتوكل

[357] أبو بكر الخلال : السنة ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 80 ـــ 93

[358] أحمد بن حنبل : العقيدة ، المصدر السابق : ص :124

[359] الخلال : السنة ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 126

لقد عاصر احمد في حياته ثمانية خلفاء من بني العباس ، حيث ولد في خلافة المهـــــدي وتوفي في خلافة المتوكل[360] ، مرورا بالهادي و الرشيد حيث كان أحمد شابا يافعا فــي أول طلبه للعلم ، لم يسطع نجمه بعد ، وليس في المصـــادر التي اشتغلت عليها ما يذكر علاقة ما بين الرشيد وأحمـد إلا الإشارة الآنفة الذكر ، والمتعلقة بسعـــي الشــافعي فــي التوســط لأحمـد كي

يتولى القضاء باليمن ، ضنا منه أن هذا العمل يسهل لأحمد لقاء المحدث اليمني عبد الرزاق الصنعاني[361]* ، لكن أحمد رفض العرض[362] ، وظل يتجنب أي علاقة قد تربطه بالدولــة طيلة العهد الذي تلا الرشيد ، بحيث عاصر فتنة الأمين و المأمون ، و قد جاوز أحمد حينها مرحلة الشباب و دخل في دور الاكتهال و أخذ من العلـــم بغيته للحـد الــذي أهلــه لأن ينتصب للحديث سارية من سواري مساجد بغداد[363] ، وقد نال مــن الثنـــاء و الاعتــراف و الإجلال من طرف شيوخه[364] و نظرائه إضافة إلى سعة حفظه و شساعة معارفه النقلية مــا جعله قبلة لطلاب الحديث و الفقه و قد عاين في هذه الفترة الخراب الذي حاف بالمدينـــة ، و الاضطراب الذي ساد أرجاءها و الهرج والمرج اللذان صارا المشهد اليــومي المتكــرر ، واضطراب حبل الأمن و تحول أزقة المدينة و دروبها إلى مسرح لنزق الشطار و العيـــارين في ظل غياب شبه كامل للدولة و مؤسساتها ، الأمر الذي زاد فيه تريث المأمون وتبــاطؤه في دخول بغداد رغم انتصاره بحيث دخلها سنة 204 هـ قادما من مرو[365] .

---

[360] كانت وفاة أحمد سنة 241هـ

[361] **الصنعاني** : عبد الرزاق ، أحد أئمة الحديث ، ولد باليمن سنة 126 هـ و توفي سنة 211 هـ .ابن خلكان : الوفيــات المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 216 ــ 217

[362] ابن كثير: البداية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص :275

[363] قال القومسي : «... رأيت أحمد في مسجد الخيف في سنة ثمان و تسعين و مائة و جاءه أصحاب الحديث فجعل يعلمهم الفقه و الحديث ، ويفتي الناس في المناسك ...» و قال حجاج بن الشاعر : «... جئت إلى أحمد فسألته أن يحدثني في سنة ثلاث و مائتين فأبى أن يحدثني ؛ فخرجت إلى عبد الرزاق ثم رجعت في سنة أربع وقد حدث أحمد و إستوى الناس عليه ، وكان لأحمد في هذا اليوم أربعون سنة ...» . أنظر :ابن الجوزي : مناقب ، المصدر السابق ، ص : 188

[364] ابن كثير: البداية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 274

[365] المصدر نفسه ، م 5 ، ج 10 ، ص ص : 206 ــ 208المسعودي :ا لمروج ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص :

508 ــ 515 و حسن إبراهيم حسن : تاريخ ، المرجع السابق ، ص ص : 146 ــ 149
محمد عبد الحي محمد شعبان :الدولة العباسية ، المرجع السابق ، ص ص : 64 ــ 67 و محمــد عابــد الجــابري : المثقفون ، المرجع السابق ، ص ص : 91 ــ 93

ولا بد أن بشاعة الأحداث تلك كما تصفها المصادر إحدى المنابع الواقعية التي صاغت أراء أحمد السياسية وقناعاته التي تبدو في صورة مساندة مطلقة للدولة ، و دعما متحمسا لها ، لولا المفارقة الحادة و المتمثلة في قطيعة حقيقية على مستوى السلوك و المواقف من أحمد لهذه الدولة ذاتها[366] و للخليفة الذي طالما نبه لضرورة الاعتراف بشرعيته و الصلاة خلفه و الرضا بإمرته و الغزو معه و الدعاء له كما سنرى لاحقا

و في خلافة المأمون تحددت مكانة أحمد ومنزلته كأحد كبار أئمة أهل السنة و الجماعة المشار إليهم ، ليس في بغداد فحسب ، وإنما في جميع الأمصار[367] ، فغدا أحد رؤوس العلماء الذين تهتم الدولة بمعرفة مدى ولاءهم لها وتختبر هذا الولاء ،حذرا من أي رأي او فتوى تصدر منهم تشوش على الخليفة استقرار الحكم و هناءته [368]،

وقد كان موقف أحمد من الأحداث و التطورات التي كانت تتوالى من حوله ـ وقد صار إماما مشارا إليه ومقصدا في الفتوى و المشورة و الرأي[369] ـ موقف الورع الذي يخشى الدماء و الفتنة خشيته للفتوى و إصدار الرأي لعلمه بأنها شاء أو أبى ستكون ملزمة يعتنقها قطاع عريض من الناس ثقة بعلمه الأمر الذي يبينه النص التالي :« ... سمعت أبا عبد الله يَأْمُر بِكَف الدّمَاء و يُنْكر الخروج إنكارا شديدا و أنكر أمر سهل بن سلامة وقال كان بيني وبين حمدون بن شبيب[370] أنس ، وكان يكتب لي ، فلما خرج مع سهل جفوته بعد ، وكان قد خرج ذاك الجانب فذهبت أنا و ابن مسلم[371] فعاتبناه و قلت أيْش حملك فكأنه ندم أو رجع ...»[372] وجاءه من يسأله الرأي و قد همَّ قوم في بغداد بالخروج

---

[366] أبو بكر الخلال : الورع ، المصدر السابق ، ص ص :100 ـ 101

[367] قال محمد بن مهران الجمال في أحمد (... ما بقي غيره إني لأدير قلبي نحو مكة و المدينة فيرجع إليه و أديره حول البصرة والكوفة فيرجع إليه و أديره نحو الشام و الجزيرة فيرجع إليه و أديره نحو خراسان فيرجع إليه ...)
أنظر : ابن الجوزي : مناقب ، ص : 129

[368] كتب المأمون الى اسحاق بن إبراهيم والي بغداد رسالة (...في الفقهاء و أصحاب الحديث و هو بالشام خبر فيها عن عيب كل واحد و عن نحلته و عن أموره التي خفيت أو أكثرها عن القريب و البعيد ...)
أنظر: إبراهيم بن محمد البيهقي : المحاسن ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 235 ـ 236

[369] جاء لدى إبن الجوزي (... يا هذا ـ يعني أحمد ـ أنت اليوم رأس و الناس يقتدون بك ...)
ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص :315

[370] لم أجد له ترجمة

[371] لم أجد له ترجمة

[372] الخلال : السنة ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 140

لأمر كرهوه من الدولة : « ... يا أبا عبد الله ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم ، فأنْكَر ذلك عليهم و جعل يقول : سبحان الله ؛ الدماء الدماء ، لا أرى ذلك و لا آمر به ، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة ، يُسْفَك فيها الدماء و يُسْتَبَاح فيها الأموال و يُنْتَهَك فيها المحارم ، أما علمت ما كان الناس فيه ؛ يعني أيام الفتنة ...» فيراجعه السائل « ... قلت : والناس اليوم أليس هم في فتنة ، قال و إن كَان فَإنما هي فتنة خاصة فإذا وقع السيف عمت الفتنة و انقطعت السبل ، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك ... ورأيته ينكر الخروج على الأئمة و قال : الدماء ؛ لا أرى ذلك و لا آمر به ...»[373] .

في هذه الأجواء من الخلل و الفوضى صعد نجم الفقهاء و المحدثين الذين هم من أهل السنة والجماعة كمرجعية استند إليها كثير من العامة وهي تعيش آثار غياب الدولة ؛ بحثا عن الأمن والسلام ، ومرجعية لمن تسول له نفسه التفكير في الخروج و الثورة و استغلال الوضع [374]، و ليتحولوا إلى أن يصبحوا رؤساء للعامة ، وقد استمر هؤلاء ، ومن بينهم أحمد يتمتعون بسلطة فعلية على الجمهور ، وبقي الحال على هذه الأمر حتى بعد عودة المأمون إلى بغداد [375].

وقد كان المأمون من الخلفاء و السلاطين الذين لايرتضون وجود أي سلطة تنافس أو تقارب سلطة الخلافة ونفوذها ؛ الخصلة التي يشبه فيها أباه الرشيد ؛ فدفعته للإيقاع بالبرامكة ، فكان من الطبيعي أن يعمل وسعه لتكسير السلطة المستحدثة للفقهاء و المحدثين وعمل في هذا السياق من خلال ما سمي بـ " محنة خلق القرآن " التي بدأت تختمر في ذهن المأمون سنة 206 هـ وفقا لرواية يحيى بن أكثم[376]* « ... قال لنا المأمون : لولا مكانة يزيد بن

---

[373] المصدر نفسه ، ج 1 ، ص ص : 132 ــ 133

[374] انظر ما ورد في (تاريخ بغداد)

(... قال كان أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي من أهل الحديث وكان جده من رؤساء نقباء بني العباس وكان أحمد وسهل بن سلامة حين كان المأمون بخراسان بايعا الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن دخل المأمون بغداد فرفق بسهل حتى لبس السواد وأخذ الأرزاق ولزم أحمد بيته ثم إن أمره تحرك ببغداد في آخر أيام الواثق واجتمع إليه خلق من الناس يأمرون بالمعروف ...) . الخطيب البغدادي :التاريخ ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 176

[375] الجابري : المثقفون ، المرجع السابق ، ص : 92

[376] * **يحيى بن أكثم** : أبو محمد التميمي ، كان عالما بالفقه بصيرا بالأحكام معروف بالفضل و الرياسة ، تقلد قضاء القضاة عهد المأمون ، توفي سنة 242 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 139 ــ 142

هارون[377] لأظهرت القرآن مخلوق ...» ، وكان يزيد من كبار المحدثين و صفه المسعودي بقوله :

« ...... ويزيد هذا عند أهل الحديث من عِلْيَتِهِم و عظيم من عظمائهم ، وكانت وفاته بواسط العراق ...»[378] وقد أطنب أصحاب التراجم في و صف اتساع علمه وكثرة حفظه للحديث و شدة إقبال الناس عليه حتى قيل أن مجلسه كان يضم سبعين ألفا ، ومع أنه كان أكبر من أحمد بل كان أستاذا له إلا أنهما كانا صديقين ، و تذكر المصادر أيضا أنه كان من الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر ، وأنه كان رأسا في السنة و معاديا للجهمية مكفرا لمن يذهب على مقولة خلق القرآن .[379]

وقد بدأ المأمون في مشروع تقويض سلطة المحدثين والفقهاء المستحدثة و كان ذلك في سنة 212 هـ ـ 827م حيث اظهر القول بـ خلق القرآن وتفضيل علي بن أبي طالب وقال هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم[380] ، وفي سنة 218 هـ ـ 833م أرسل وهو غاز إلى عامله ببغداد إسحاق بن إبراهيم رسالة جاء فيها امتحان القضاة والمحدثين وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه إلى الرقة ومما قاله له فيها : « ... عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أَهْلُ جَهَالة بالله وعمى وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ...» إلى أن يقول « ... و هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به ... تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم ...» ثم أمره بامتحان جماعة من رؤوس أهل السنة وكان نصيب احمد من ذلك كبيرا « ... فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين

---

[377] **يزيد بن هارون** : يزيد بن هارون بن زاذان الواسطي ، ، كان مولده سنة سبع عشرة مائة و مات في سنة ست و مائتين وله تسع و ثمانون سنة ، وهو مولى لبني سليم ، وكان أبوه يخدم في مطبخ زياد بن أبيه . المسعودي : المروج ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 38

[378] المسعودي : المصدر نفسه ، ج 4 ، ص : 38

[379] الجابري : المثقفون ، المرجع السابق ، ص : 96

[380] الطبري : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص ص : 284 ـ 285

غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه...»[381] .

هكذا ابتدأت المحنة واخذ وعيد المأمون يتصاعد و الممتحنون يتنازلون و يقرون بهذه المقولة حتى لم يبق إلا أحمد و رجل آخر فأدخلا الحبس و أمر المأمون من طرسوس[382]* بحملهما إليه مقيدين وقد سئل أحمد في تلك الحالة « ...يا أبا عبد الله إن عُرِضْتَ على السيف ، تجيب ؟ قال : لا ...»[383] وفي طريقه ذاك توفي المأمون موصيا خليفته المعتصم بإنفاذ الأمر.

وفي عهد المعتصم أخذت أحداث المحنة آخر مداها و بلغت غايتها ، خاصة لدى أحمد فالفترة هذه التي بقيت راسخة في ضمير التاريخ الإسلامي ، يعود لمجرياتها ما انطبع في مخيلة و ذاكرة علماء أهل السنة من تبجيل و إجلال لشخصية أحمد و تقدير لصبره و صموده وشجاعته[384] ، كما رسخت وكرست الإختلاف بله الشقاق بين أهل السنة و المعتزلة بحيث مضى تاريخ العلاقة بينهما لمزيد من العداء و الرفض لحد التكفير و التبديع و إطلاق التهم ، وصنعت في بغداد بالذات الجمهور الذي عرف في التاريخ بـ " الحنابلة " والذي كثيرا ما تصادم مع الشيعة و المعتزلة و الأشعرية بعد ذلك[385] .

---

[381] المصدر نفسه ، ج 10 ، ص ص :285

د محمد ماهر حمادة :الوثائق السياسية ، المرجع السابق ، ص ص : 325 ـ 335

[382] * **طرسوس** : مدينة بين أنطاكية و حلب ، من ثغور المسلمين .

القزويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 219

[383] ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 312

عبد العزيز البدري : **الإسلام بين العلماء و الحكام** ، د ط ، دار الأمة للنشر و التوزيع الجزائر ، د ت ، ص ص : 161 ـ 164

[384] ابو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 167

«.. سمعت ابن عيينة يقول علماء الأزمنة ثلاثة ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه قال الفتح فقلت أنا للحارث وابن حنبل في زمانه فقال لي الحارث أحمد بن حنبل نزل به ما لم ينزل بسفيان الثوري و الأوزاعي ...»

[385] خالد كبير علال : **صفحات من تاريخ أهل السنة و الجماعة ببغداد** ، د ط ، مطبعة هومة ، الجزائر ، د ت ، ص ص : 47 ـ49 ، ص ص : 55ـ57

لم يكن المعتصم يملك اتساع علم المأمون و لا ولعه المعرفي ، وإنما كان جل اهتمامه بالقضايا الحربية و العسكرية[386] ، ومع ذلك فقد واصل المهمة كما أوصاه بها المأمون مما له دلالته بصدد المضمون السياسي للمحنة.[387]

فاستمرت محنته بضعا و عشرين يوما ، منها ثلاثة أيام مضت في بحث و مناظرة وتهديد مستمر تعالت فيها أصوات ابن أبي دؤاد و أعوانه بعبارة : ضال مضل مبتدع ؛ كلما انتهت المناظرة بصمود أحمد ، تخللتها محاولات من المعتصم لاستمالة أحمد إلى الرضوخ شفقة منه عليه ، و كان قد أعجبه ورع احمد وعلمه خلال المناظرات التي شهدها جعلته يقر « ... إنه لفقيه و إنه لعالم وما يسرني أن يكون مثله معي ، يرد على أهل الملل ، و لئن أجابني إلى شيء له فيه أدنى فرج ، لأطلقن عنه بيدي ، و لأطأن عقبه ، و لأركبن إليه بجندي ...»[388] ، لولا الموقف الاستفزازي الذي أصر عليه احمد ؛ قبل قرار الضرب « ... عليك لعنة الله ،لقد كنت طمعت فيك ...» حيث لم يعط أي إشارة للتنازل ولا للتقارب مع ما غدا عقيدة للدولة ، وتحولت تفاصيل المحنة لدى المعتصم إلى ما أشبه بشرف الدولة ، فكان أن أمر في اليوم الثالث بضربه وتم ذلك ، و قد أدرك أحمد ما كان يعتمل في نفس المعتصم ، حينما قال : «... ما كان في القوم ارأف بي من المعتصم ...» [389] .

ومما له مغزاه فيما هو من صميم البحث تصريح عبد الرحمن بن إسحاق[390] للمعتصم بشأن أحمد خلال المحاولات التي بادر بها الخليفة لإنهاء المشكلة بتسوية سلمية حوارية « ...أَعْرِفُه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتك والحج و الجهاد معك ، وهو مُلازِم لبيته ...»[391].

---

[386] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 1 ، ص: 64 . و قد وصف المعتصم (... وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ...) .

[387] المصدر نفسه ، ج 1 ، ص: 84.

جاء فيه ما يلي : =

(...وأسند المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم وقال فيها وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك لشركه في المشورة في كل أمرك فإنه موضع ذلك ولا تتخذن بعدي وزيرا ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دؤاد قاضي القضاة وعزل يحيى بن أكثم وخص به أحمد حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه...) أنظر تفاصيل محنة أحمد مع المعتصم : ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص ص : 319 ـ340 و ابن كثير : ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص ص : 279 ـ 280

[388] ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 347

[389] نفس المصدر ، نفس الصفحة

[390] يرد ذكره كأحد عمال المامون و المعتصم في بغداد و لم أعثر له على ترجمة

[391] عبد العزيز البدري : الإسلام بين العلماء ، المرجع السابق ، ص ص : 169 ـ 170

كذلك توضح الإشارات المقتضبة التي سايرت تفاصيل المحنة مكانة أحمد و منزلته الكبيرة بين الخاصة و العامة ، الشيء الذي عزز من إصرار الدولة على أن تستصدر منه تنازلا يحفظ لها ماء الوجه و يصون لها سمعة القدرة و القوة ويبقي على هيبتها و سطوتها كما جاء على لسان أحد رجال المعتصم[392] « ...تريد أن تغلب هؤلاء كلهم ...» ، وجاء على لسان آخر :«... يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله و يغلب خليفتين ...»[393] ولما رأى المعتصم هياج الناس و تذمرهم خشي الهرج فادخل إسحاق عم أحمد ليشهد على أنه حيا ثم أخرجه ولولا ذلك لتفاقم الأمر ، و جاء في رواية أخرى « ...أُخْرِج أحمد بعد أن اجتمع الناس على الباب وضجوا حتى خاف السلطان ...»[394].

إذن انتهت المواجهة التي شاءتها الدولة مع احمد بفشلها و خيبتها من جهة ، و إلى ظفره وانتصاره من جهة أخرى ؛ أي ثبات الفكرة التي دافع عنها والتي التصقت به و تماهت معه وأعلت من شأنه « ... لقد رفع الله عز وجل شأن احمد بعدما امتحن وعظم عند الناس و ارتفع أمره جدا ...»[395] و « ...قال أبو زرعة لم أزل أسمع الناس يذكرون أحمد بخير و يقدمونه ...غير انه لم يكن من ذكره ما صار بعد أن أمتحن ؛ لَما اُمْتُحِن اِرْتَفع ذكره في الآفاق ..»[396] ، وعاد إلى بيته و لزم منزله لا يبرحه ، و امتنع عن التحديث و لم يزل كذلك مدة خلافة المعتصم .

ولما ولي الواثق بالله استمر على وصية المأمون في أمر المحنة ، الأمر الذي أفضى به إلى قتل أحمد بن نصر الخزاعي ، متذرعا في ظاهر الأمر بامتحانه في خلق القرآن ، في حين جاء القتل في سياق تهمة التآمر على أمن الدولة ، لأن لأحمد بن نصر سوابق في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، تعود لأيام الفتنة بين الأمين و المأمون[397] ،لكنه لم يشأ إعادة الكرة مع احمد ، رغم أنه تهدده وطلب منه النزوح عن بغداد«... لا تساكني بأرضي ...» فاختفى احمد « ... فما زال يتنقل في الأماكن إلى أن مات الواثق ...»[398] . كل ذلك لم

---

[392] يرد في النص بدون تسمية

[393] ابن كثير : البداية، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 280

[394] ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، 340

[395] المصدر نفسه ، ص : 348

[396] المصدر نفسه ، ص : 349

[397] الخطيب البغدادي : تاريخ ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص: 176

[398] ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 349

يدفعه إلى أن يغير قناعته في أمر الطاعة وأحكام الإمامة ، ورفض أي تبرير للخروج و التمرد والثورة .

وبمجيء المتوكل على الله انقضت أيام الصبر بالنسبة لأحمد و لمحدثي و فقهاء أهل السنة إجمالا ، لأنه و إن كان الواثق هو من أبطل تقليد امتحان الناس بفكرة خلق القرآن ، إلا أنه ظل محتفظا بوزيره ابن أبي دؤاد ، و ذلك يعني استمراره على ذلك النهج رغم بعض الروايات التي تؤكد تراجعه عن الاعتقاد بها « ... مات الواثق وقد تاب من القول بخلق القرآن ...»[399]، أما المتوكل فقد افتتح عهده بأن أمر بـ « ...ترك النظر والمُبَاحَثَة في الجدال و التَّرْك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم و الواثق و المأمون ، و أمر الناس بالتسليم و التقليد ، و أمر المحدثين بالتحديث و إظهار السنة و الجماعة ...»[400]، ثم أشخص سنة 234 هـ ــ 848م المحدثين والفقهاء إليه فقسم بينهم الجوائز و أجرى عليهم الأرزاق و أمرهم أن يجلسوا للناس ويحدثوا بالأحاديث التي فيها الرد على الجهمية و المعتزلة ، فكان فيمن لبى الأمر ابنا أبي شيبة ؛ فجلس عثمان بن أبي شيبة[401] في مدينة المنصور ، ووضع له منبر ، و اجتمع عليه نحو ثلاثين ألفا من الناس ، و جلس أخوه أبو بكر[402] في مسجد الرصافة و اجتمع عليه نحو ثلاثين ألفا ، واستبشر أهل السنة بذلك[403]

ومضى المتوكل في تصفية رموز العهد الماضي[404] ،هذه القرارات التي بدت في صورة ما عرف لدى المؤرخين المحدثين بـ " الانقلاب السني " ، الذي فحواه عودة تيار

---

[399] ابن كثير : المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 259

ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 356

[400] المسعودي : المروج ، المصدر لسابق ، ج 4 ، ص : 104

[401] **عثمان بن أبي شيبة** : من كبار المحدثين قدم بغداد بأمر المتوكل لنشر الحديث ، توفي سنة 239هـ

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 11 ، ص :153

[402] **أبو بكر بن أبي شيبة** من كبار المحدثين توفي سنة 235هـ . الذهبي : المصدر نفسه ، ج 11 ، ص : 127

[403] ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص ص : 357 ــ 358

[404] أمر بإنزال جثة احمد الخزاعي و دفعها لأوليائه ، كما انه غضب على ابن أبي دؤاد و صفى أمواله ، وعزل ابنه محمد عن المظالم ثم اعتقله و اعتقل إخوته ، وفي المقابل رضي عن يحيى بن أكثم وولاه منصب قاضي القضاة ، مع العلم ان يحي كان قد شغل هذا المنصب للمأمون قبل أن يعزله و يحذر منه المعتصم ، ربما لمعارضة يحيى لمشروع المحنة لأنه من أهل السنة . محمد الخضري بك : المرجع السابق ، ص : 236

الجابري : المثقفون ، المرجع السابق ، ص ص : 108 ــ 109

أهل السنة والجماعة إلى الواجهة ؛ واجهة السلطة ، كغطاء فكري عقدي لها ، قابله أهل السنة بشكر وامتنان واعتراف بالجميل[405]

لقد مضى مؤرخوا السنة على نهج الفقهاء و المحدثين في الإشادة بصنيع المتوكل هذا والإعلاء من شأنه و التأكيد على أهميته و صوابيته من الناحية الدينية ، دون الانتباه إلى ما قد يحمله الأمر من مضامين سياسية و أهداف و مرامي تخص الحكم و مسألة السلطة ، الشيء الذي حاول بعض المؤرخين و المفكرين المحدثين إعادة تأمله و النظر فيه ، و اقتراح تفسيرات جديدة .بحيث ذهب بعضهم إلى أن الأمر لا يعدو أن يكون إجراء قام به المتوكل لأجل الحصول على مصادر جديدة تدعم ملكه في وجه النفوذ التركي المترامي الذي كان قد أخذ في الصعود منذ أيام المعتصم ليصير في العهود الذي تلته عصبية الدولة و قوتها الضاربة التي لعبت ذات الدور الذي قام به كل من العرب و الفرس في العهد الأول السابق على المعتصم[406] .

وكان نصيب أحمد من هذه السياسة كبيرا إذ فعل المتوكل معه ما لم يفعله مع غيره من إكرام و إبداء الرغبة في لقائه و التبرك به وطلب الرضا عنه وإظهار التحنن له والإعجاب به و الإكبار له ما لم يعهد من خليفة لعالم من رعيته ، لكن أحمد لم يقابل محاولات المتوكل إلا بمزيد من النفور و الانكفاء و الانحياش جريا على عادته ، وقد رأى في هذا الاهتمام به من طرف الدولة فتنة أخرى و محنة ثانية هي " **فتنة السراء** " في مقابل " **فتنة الضراء** " ، بل رأى في مسلك المتوكل منه و اهتمامه به من الخطر على ورعه و

---

405 المصدر نفسه ، ص : 356 . جاء فيه (... ولى المتوكل على الله بعد الواثق في يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة ا ثنتين و ثلاثين و مائتين ، و سنه ست و عشرون سنة يومئذ ، فاظهر الله عز و جل به السنة و كشف تلك الغمة ، فشكره الناس على ما فعل ...) . وقد تجلى اعتراف أهل السنة بإنجاز المتوكل في صياغات متعددة من المدح كالوه للمتوكل ، غاضين الطرف عن مساوئ كثيرة حفل بها حكمه ، وعن صور عديدة من السلوكات التي كان يترفع عنها الخلفاء السابقين[405]، فقد وصفه إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة بقوله : «...الخلفاء ثلاثة ، ابو بكر الصديق قاتل أهل الردة حتى استجابوا له وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بني أمية ، و المتوكل محا البدع و اظهر السنة ...» و حدث علي بن إسماعيل في رؤيا رآها قال : « ... رأيت جعفر المتوكل في النوم و هو في النور جالس ، فقلت : المتوكل ؟ قال : المتوكل قلت ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلت بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها ...»[405]. انظر : الخضري بك : المرجع السابق ، ص : 224

ابن الجوزي : المناقب ، المصر السابق ، ص ص : 356 ــ 357

406 الجابري : المثقفون ، المرجع السابق ، ص ص : 109 ــ 110

حسه الديني الدقيق و نزعته الشديدة للتطهر ما دفعه لتمني الموت بله الدعاء إلى الله في أن يقبضه إليه[407] .

لم يكن موقف أحمد المتورع من الدولة في عهد المتوكل طعنا في شرعية الخليفة ولا امتناعا من الطاعة ؛ إذ صدرت عنه أقوالا عدة و فتاوى مفعمة بالرضا عن المتوكل و المساندة المعنوية له [408]، لكنه كان موقفا شخصيا قائما على اعتبارات الورع و الزهد والرغبة في الاتقاء الكلي للشبهات و الخروج من الدنيا من غير تلطخ بها . إذن هو موقف منه يمكننا اعتباره قضية شخصية لأحمد و اختيارا خاصا به في الحياة لم يفرضه على غيره ، على انه الدين الذي يجب الاتصاف به و إن حبذه لأهله و لطلبته و أصحابه و رغب فيه للعلماء حرصا على حرية العالم الفقيه و المحدث حيال السلطة من أي استغلال و عبث بالدين ، وحرصا أيضا على القدوة الحسنة و الانطباع الذي يتركه العالم في الناس بوصفه أهم الطرق المؤدية لله و لدين الله ، إذ لم يؤثر عنه انه وقف موقف الإنكار على غيره من العلماء الذين تقربوا من الخلفاء و الولاة لمجرد تقربهم او قبولهم عطاءاتهم و هداياهم إذا كان يعلم منهم سلامة الدين و صدق الالتزام به و صلابتهم فيه ، بل لقد أطرى كثيرا إسحاق بن راهويه[409] و أبا عبيد القاسم بن سلام[410] و كان معاش كليهما من هبات الولاة وأمضى كليهما شطرا كبيرا من حياتهما في مجالس الولاة وحاشيتهم .

---

[407] ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 349

[408] سبق إيراد بعض النصوص المعبرة عن هذا الموقف من أحمد

[409] **إسحاق بن راهويه** : الفقيه المحدث نزيل نيسابور ولد سنة 163هـ و توفي سنة 238هـ . الذهبي : السير ، المصدر السابق ج 11 ، ص :377

[410] سيرد ذكره في الفصل الأخير

الفصل الثاني

الطاعة اعتقادا و المجاملة سلوكا :

ـ توطئـــــة :

جاء لدى الفيروزآبادي ما يلي : المجاملة : و يُقال جَامَلَهُ : لم يُصفِه الإِخاءَ بل ماسَحَه بالجَميلِ أو أحْسَنَ عِشْرَتَهُ[411]. و قد ارتأيت توظيف هذه الكلمة للتعبير عن نمط من أنماط العلاقة بين الفقهاء و الدولة العباسية ، ارتضاه الفقهاء لكثير من الدوافع سيأتي ذكرها .

لقد سبق في الفصل الأول أن قمت بتفصيل النشأة التاريخية للاتجاه الذي عرف في تاريخ الإسلام الفكري و السياسي باتجاه أهل السنة و الجماعة ، و الذي قدر له أن يمسك بزمام الحكم لقرون طويلة رغم بعض منازعات الشيعة و الخوارج ، و سبق في العرض أيضا توضيح المواقف المتباينة داخل هذا الاتجاه من الموقف من الدولة الأموية بخاصة على عهد معاوية ومن تلاه . و قد ظلت المواقف ذاتها بالتباين ذاته من الدولة العباسية في دورها الأول ، حيث رأينا في الفصل الأول الموقف الحاد الصارم الذي فضل الامتناع عن مشاركة الدولة في ثمرات الحكم بغير مساومة و لا مهادنة ، و سأتناول في هذا الفصل تفصيل موقف آخر يقع في منطقة وسط بين المعارضة الحادة و بين الخضوع و الإذعان لمغريات الدولة و ضغوطها ؛ سواء كانت الضغوط ترغيبا ملحا أو ترهيبا مخيفا ، هذا الموقف الوسط الذي ارتأيت أن أصوغه في كلمة " المجاملة " بكل ما في حمولة هذا اللفظ من معنى التردد و المراوحة و معنى الإقبال والإدبار، و معنى الوصل و الانفصال و معنى المخالطة و الامتناع ، و النصوص و الحوادث التاريخية التي توفر لي الاطلاع عليها هي التي دفعتني إلى بلورة هذا النوع من المواقف والذي تميزه جملة من المظاهر و التجليات ، أهمها :

ـ تقبل فكرة الدخول على السلاطين بغرض النصيحة و الوعظ و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ـ قبول عطايا الخلفاء و عمال الدولة و هداياهم و استعمالها في الأغراض الشخصية أوالعامة .

---

[411] مجد الدين الفيروزآبادي : القاموس، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 351

ـ الاستجابة لحاجة رجال الدولة من شورى و تعليم و مجالسة .

ـ انتهاج سبيل اللين في الخطاب و التعريض في النصح و الوعظ .

ـ حث الناس على الطاعة و التحذير من الخروج و التمرد على الدولة .

ـ عدم الخوض في مساوئ الدولة و لا التحريض ضدها ، بعبارة أخرى الامتناع عن الكلام في السياسة اكتفاء بالعلم و الرواية و الفتوى .

ـ القبول بلعب أدوار الشفاعة لدى رجال الدولة لمصلحة بعض المغضوب عليهم .

ـ التحفظ من تولي الوظائف للدولة مع فتح باب الإمكانية حال الاحتياج و الضرورة الملحة و عدم الاعتراض الصريح على من تولى عملا .

هذه أهم ملامح و سمات هذا الفريق من الفقهاء ، و قد ضم أسماء لامعة تعتبر مرجعيات رسمية في الفقه و العقيدة و الأخلاق كمالك و الشافعي و سفيان بن عيينة و الليث بن سعد ويحيى بن سعيد القطان[412]* و ابن السماك[413]* وغيرهم كثير . و لقد ارتأيت إدراج الليث بن سعد ضمن هذا الفريق رغم أن بعض الروايات تذكر عنه توليه لبعض المناصب لدى الدولة لخصوصية هذه العلاقة بينها لأن الليث كان على حظ عظيم من الغنى و الثراء و لم يكن يعيش ذات العوز و الفقر الذي كان عليه أقرانه و أصحابه ، و كان عمله للدولة مجاملة لها و خدمة للشأن العام ، حيث أن مكانته الكبيرة في مصر و غيرها صنعت له جاها كبيرا جعله لا يستطيع أن يكون بعيدا عن أجواء السلطة .

ورغم شهرة الإمام مالك بن أنس التي استفاضت في طول العالم الإسلامي و عرضه خاصة و التبجيل الذي حضي به من طرف الخاصة و العامة إلا أنه لم يجد حرجا في الاستجابة لدعوات المنصور و المهدي و الرشيد و الدخول عليهم في مجالسهم و قبول هداياهم و الأخذ من أعطياتهم ، الأمر الذي قابله الخلفاء بالإشادة بعلمه و التنويه بقدرته الفقهية والتفكير في اتخاذ كتابه " الموطأ " مرجعا وحيدا للفتوى و يحكي مالك بعض ما دار

---

[412] * **يحيى بن سعيد القطان** : فقيه المدينة ، تولى القضاء للمنصور ، مات سنة 143 هـ .
الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : **66**

[413] * **ابن السماك** : أبو العباس محمد بن صبيح ، الواعظ الكوفي الزاهد المشهور ، توفي سنة 183 هـ بالكوفة .
ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 301 ـ 302

بينه و بين المنصور في هذا الشأن : « ... لِنَحْمِلَ الناس إنشاء الله على علمك و كتبك ، و نَبُثها في الأمصار و نَعْهَد إليهم أن لا يخالفوها و لا يقضوا بِسِوَاها ...[414]» . فكان رد مالك عليه بأن الصحابة تفرقوا في الأمصار و أن فرض رأي أهل المدينة عليهم يثير فتنة : « ... فدع الناس و ما هم عليه و ما اِخْتَار كُل أَهْلِ بلدٍ منهم لأنفسهم ، فقال لعمري لو طَاوَعْتَني على ذلك لَأَمَرْت به ... »[415] ، ويحكي أيضا في رواية أخرى تفاصيل لقاء آخر انتهي بأن : « ... أمر لي بألف دينار عَيْنًا ذهبا ، و كُسْوة عظيمة و أمر لِإبني بألف دينار ... »[416] و في خبر آخر قال مالك : « ... أمر أبو جعفر بِصرُرَ دنانير في كل صرة خمسة ألاف دينار .. أمَّا أنا فكنت والله محتاجا إليها فأخذتُها ... »[417] ، و قد جنح مالك في طور حياته الأخير إلى التمتع بما كان يتمتع به ميسوري المدينة حيث كان : « ... يجلس في منزله على جَنَاحٍ له و نَمَارِق مطروحة فيه .. لمن يأتيه من قريش والأنصار و الناس ... »[418]. و لقد رافق فقيه المدينة الآخر عبد العزيز بن سلمة[419] أبا جعفر المنصور وجالسه و توثقت بينهما مودة و ثقة جعلت المنصور يفكر في ربط علاقة مماثلة بين عبد العزيز و المهدي ابنه ، حيث يروى أن المنصور لما أراد أن يحج شيعه المهدي : « ... فلما أرادا الوداع قال المهدي : استَهْدِني ، قال : استهديتك رجلا عاقلا فأهدى له عبد العزيز بن سلمة ... »[420]. أما محمد بن إسحاق[421] *كاتب السيرة ومدون المغازي فقد كان منقطعا إلى العباس بن محمد[422] بالجزيرة ، ثم لقي المنصور و صاحبه وكتب له كتاب المغازي[423] .

---

414 محمد بن محمد مخلوف : **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د ت ، ص : 53

ابن قتيبة : الإمامة ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 150

415 مصطفى الشكعة : **الإمام مالك بن أنس** ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة 1983 ، ص : 123

416 ابن قتيبة : الإمامة المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 150

417 المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 145

418 ابن سعد : **الطبقات الكبرى (القسم المتمم)** ، ت زياد محمد منصور ، ط1 ، مكتبة العلوم و الحكم ، المدينة ، سنة 1408 هـ ، ص : 441

419 لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة

420 الذهبي : المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 311

421 * **محمد بن إسحاق** : صاحب السيرة ، من أعلام المدينة ، توفي سنة 150 هـ . الذهبي : المصدر نفسه ، ج 7 ، ص : 55

422 أحد عمال بني العباس عهد المنصور لم أعثر له على ترجمة

423 الذهبي : المصدر نفسه ، ج 7 ، ص : 48

وقد دفعت الحاجة أحد كبار المحدثين و الفقهاء و هو شعبة بن الحجاج[424]* للقدوم على المنصور و ذلك من أجل الاستشفاع به لفك سجن أخيه ، فأكرمه المنصور و لبى طلبه ، ثم وفد على المهدي « ... فوهب له المهدي ثلاثين ألف درهم ، فقسمها ، وأَقْطَعَه ألف جَرِيب بالبصرة فقدم البصرة فلم يجد شيئا يَطِيب له فتركها ... »[425]

وحدث أن بعث المهدي إلى صالح المري[426]* فأقدمه عليه ، قال صالح المري : « ... دخلت على المهدي بالرصافة ، فلما مثلت بين يديه قلت : يا أمير المؤمنين احمل لله ما أكلمك به اليوم فإن أولى الناس بالله أحملهم لِغِلْظَة النصيحة فيه ، وجدير بمن له قرابة برسول الله أن يرث أخلاقه .. واعلم أن أَبْطَأَ الصَّرْعى نهضة صريع هوى وأن أثبت الناس قدما يوم القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة نبيه .. فأحسن الحمل فقد أحسنت إليك الأداء . قال فبكى المهدي ثم أمر له بشيء فلم يقبله ... »[427]

ولم يستطع أحد من خلفاء بني العباس أن يجمع حوله من الفقهاء و المحدثين و أن يضمن ولاء جمع غفير منهم مثل ما فعل الرشيد ، حيث كاد أن يكون كلمة إجماع من طرف فقهاء السنة لولا ما شان ملكه ما تناقلته عنه الروايات و الأخبار من المجون و العبث و التوسع في الترف و البذخ وما حدث في حكمه من حوادث تدخل في مقتضيات السياسة و صيانة الملك كنقض العهود و تتبع العلويين[428]. و كانت مجالسه عامرة بالفقهاء و المحدثين ، مفتوحة للوعاظ و النساك و المذكرين ممن يريدون إبراء ذمتهم أمام الله و الصدع بكلمة الحق ، بل كان الرشيد يرسل في طلبهم و يصغي إليهم و يترك دموعه تسقط من قوارع وعظهم ، ولعل ابن السماك هو الشخصية الأوفر شهرة من بين هؤلاء ، فقد كان كثير الدخول على الرشيد والوعظ بحضرته ، و بلغ إعجاب الرشيد به أن أمر مرة بكتابة كلامه[429] ، و لم يكن

---

[424] * **شعبة بن الحجاج** : أبو بسطام ، واسطي الأصل ، بصري الدار ، توفي سنة 160 هـ .
الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 227

[425] الذهبي : المصدر نفسه ، ج 7 ، ص ص : 211 ــ 212

[426] * **صالح المري** : أحد قراء البصرة الكبار ، توفي سنة 176 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 494 ــ 495

[427] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[428] « ... و كان شهما شجاعا حازما جودا ممدحا فيه دين و سنة مع انهماكه على اللذات و القيان و كان يصلي في اليوم مائة ركعة إلى أن مات و يتصدق كل يوم »

[429] الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 8 ، ص : 209

الوعظ والنصيحة هما فقط ما مكناه من إعجاب الرشيد و رضاه ، و إنما كانت مرونة ابن السماك وحذقه في إيجاد مخارج شرعية لبعض سقطات الخليفة ، فقد حدث أن استفتاه مرة في يمين حلفها أنه من أهل الجنة : « ... فقال له : هل قدرت على معصية فتركتها من مخافة الله عز وجل ؟ قال : نعم قال : فَيَمِينك بارة ... »[430]. و قد أراد الرشيد استمالة المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي[431] فقيه المدينة بعد مالك ، فعرض عليه قضاء المدينة فامتنع فأعفاه و وصله بألف دينار فأخذها[432] ، و لم يرد في الروايات ما يشير إلى أنه عاتبه أو أغلظ عليه . و كان يحرص على إظهار تواضعه للعلماء و القبول منهم و الإصغاء إليهم ، فقد حكا أبو معاوية الضرير[433] وهو معلم الرشيد أنه أكل معه طعاما : « ... فصبّ على يديّ رجل لا أعرفه منهم ، فقال هارون : يا أبا معاوية تدري من صبّ على يديك ؟ قلت : لا قال أنا ، قلت: أنت أمير المؤمنين ؟ قال : نعم إِجْلَالا للعلم ...»[434]، وقال لشيبان الراعي[435] :عظنى فقال شيبان :

«... لإن تصحب من يخوفك حتى يُدْرِكُك الأمن خير لك من أن تصحب من يُؤمِنك حتى يدركك الخوف فقال الرشيد: فَسِّر لى هذا قال : من يقول لك أنت مسئول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول انتم أهل بيت مَغْفُور لكم ، وانتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم فبكى الرشيد حتى رحمه من حوله ... »[436]، و في هذا الكلام و مضمونه و فحواه و الطريقة التي قدم بها يلخص مجمل معالم المسلك الذي ارتآه هذا الفريق في التعامل مع الدولة و رجالها حيث محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مطالب الرعية التي ظلت تتردد أصداءها في شعارات الثوار الخارجين وهي " العدل في القضية و القسمة بالسوية " ، و ذلك من أيسر طريق و بأقل تكلفة ، لذلك لم يجد بعض الرواة و الإخباريين حرجا من إضفاء الشرعية الدينية على حكم الرشيد من خلال المرائي والمنامات لما عدموا القدرة على إيجادها في الأحاديث النبوية الموضوعة فقد روي أنه : « ...رأى النبي صلى الله عليه

---

430 الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 304

431 لم أعثر له على ترجمة في كتب الطبقات المتاحة

432 المصدر نفسه ، م 1 ، ج 1 ، ص : 330

433 أحد المحدثين كان مؤدبا للرشيد ، لم اعثر له على ترجمة

434 السيوطي : تاريخ ، المصدر السابق ، ص : 285

435 لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة

436 المصدر نفسه ، ص: 294

و سلم في النوم فقال له:إن هذا الأمر صَائِر إِلَيْك في هذا الشهر فاغْزُ وحُج و وَسِّع على أهل الحرمين ففعل هـــــذا كـله ...»[437]. ومن خلال استعراض حكايات و حـوادث كثيـرة تجعل منه يقف اجلالا ليصغي الى مواعظ تقرع أذنيه تحذره من مغبة الظلم و التنكب عـن سبل الحق و تصفه يذرف دموعا غزارا خوفا ورهبة الأمر الذي لا نجد مصداقا لـه فيمـا خرقه من عهود و الحياة اللاهية التي وصفتها كتب الأدب والتاريخ مما سبق الإشارة اليه .

مالك بن أنس :

[437] المصدر نفسه ، ص: 291

يعتبر مالك بن أنس من أكثر اللائمة شهرة و الأوفر أتباعا وقد نال حظا من تكريم أهل السنة له ما لم يلحقه فيه إلا الكبار ممن يرد ذكرهم في هذا البحث وقد وصفه أبو نعيم الأصبهاني بقوله :« ... إمام الحرمين ، المشهور في البلدين ؛ الحجاز والعراقين ، المستفيض مذهبه في المغربين و المشرقين ، كان أحد النبلاء و أكمل العقلاء ...»[438].

و قال فيه الشعراني :« ... و كانت السلاطين تهابه ...»[439] .

و قد اختلف المؤرخون في سنة ميلاد مالك ، و توزعت اجتهاداتهم حول سنين عدة تراوحت بين سنة 90 هـ و 98 هـ ، و توفي سنة 179 هـ ـ 795م[440]، و كان مولده بالمدينة لأسرة عربية يمنية الأصل ، كان أبو نَبَّالا ؛ أي يصنع النبل ، و كان إلى ذلك مُقْعَدا ، و كان أبوه و جده و أعمامه من أصحاب العلم[441] ؛ فقها و حديثا ، و يذكر مالك سبب انصرافه إلى العلم و هو في طور الطفولة إلى مسابقة أجراها والده بينه و بين أخيه ؛ كان حظ مالك فيها الخطأ ، فعلق عليه والده : ألهتك الحمام عن طلب العلم . فغضب مالك و انقطع إلى ابن هرمز[442]* سبع سنين[443] . و تذكر روايات أخرى أن لأمّه الفضل في اشتغاله بالعلم حيث يروي مالك قائلا : نشأت و أنا غلام فأعجبني الأخذ عن المغنين ، فقالت أمي : إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء و اطلب الفقه ، فتركت المغنين و تبعت الفقهاء فبلغ الله بي ما ترى[444] .

وأخذ عن أئمة المدينة واقتصر على ساداتهم و لم يرحل كما كان يفعل غيره ، و ظل طول عمره يحمل تقديرا خاصا لعلماء المدينة ، وجعل من عمل أهل المدينة أصلا من

---

[438] أبو نعيم الأصبهاني ، الحلية ، المصدر السابق ، م 3 ، ج 6 ، ص : 316
الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 68
[439] الشعراني : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 52
[440] ابن الجوزي ، صفة ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص : 120
أبو الفداء : المختصر ، المصدر السابق ، م 1 ج 1 ، ص : 14
[441] الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 3 ـ 4
[442] * **ابن هرمز** : أبو بكر عبد الله بن يزيد ، عالم المدينة ، توفي سنة 148 هـ .الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 20
[443] محمد بن علوي بن عباس : **مالك بن أنس** ، د ط ، مطابع الأزهر ، مصر ، سنة 1981 ، ص : 13
[444] الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 7

أصول فقهه التي نازعه و اختلف معه فيه كثير من الفقهاء و الأصوليين . و روى عن نافع و ابن شهاب الزهري وجعفر الصادق و غيرهم .

و قد أجمع كافة علماء السنة على علمه و فضله و علو درجته في الفقه ، واجتمع به كبار علماء أهل السنة و أثنوا عليه ، و صيغت فيه من المناقب ما لم يوصف بها غيره . و انتشر مذهبه في حياته ، و وسع العالم الإسلامي بتلامذته و طلبته و مريديه و زوّاره ؛ خاصة و أن مقامه بالمدينة كان قِبْلة الزّوّار من الحجيج .

كان مالك من كبار فقهاء و محدثي أهل السنة ، و مكانته داخل هذا الاتجاه رفيعة و قد قال فيه الشافعي : « إذا ذُكِر العُلَماء فَمَالِك النّجْم » . وقلَّما يخلو كتاب من كتب أهل السنة في أبواب الفقه أو العقائد من إحالة لأقواله و فتاواه . و اشتهرت مقالته التي أجاب بها رجلا سأله عن تفسير(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اِسْتَوَى)[445] فقال :« ...الكَيْف غَيْر مَعْقُول و الاستواء مَعْلُوم والإيمان به واجب و السُّؤال عنه بِدْعة ...»[446] . وروي أنه كان إذا دخل عليه أحد المنتسبين لغير أهل السنة يقول :« ... أَمَا إِنِّي عَلَى بَيِّنَة من رَبّي ، و أَمّا أَنْت فَشَاك ...» ، و يقول أيضا :« ... لستُ أَرَى أَحَدا يَسُبّ أصحَابَ مُحَمّد فِي الفَيْءِ سَهْمًا ...» و :« ... لَوْ أَن رَجُلا رَكِب الكَبائر كلّها بَعْد أنْ لَا يُشْرِك بِالله ، ثم تَخَلّى عن هذه **الأَهْواء و البِدَع** دخل الجنة ...»[447]. ورغم كل هذا الاحتفاء السني به ، إلا أن بعض المؤرخين لسيرته وجد مطاعن في بعض آرائه خاصة المتعلق منها بمسألة **الفضيل بين الصحابة** ، و التي لا تتفق و ما استقر عليه أهل السنة و الجماعة ، إذ كان لا يرى تفضيل الإمام علي عن بقية الصحابة ؛ و يحصر التفضيل في أبي بكر و عمر و عثمان بحسب ترتيبهم في الخلافة ، و كان أحيانا يقتصر على أبي بكر وعمر ثم يصمت[448] . و قد صدرت عنه عبارات و آراء أخرى غريبة عن التصور العام الذي استقر لدى الأمة الإسلامية ، من ذلك قوله : إمام الناس عندي بعد عمر بن الخطاب زيد بن ثابت . و إمام الناس بعد زيد ؛ عبد الله بن عمر[449] .

---

[445] سورة الرحمن الآية 46

[446] الشعراني : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 53

[447] أبو نعيم الأصبهاني ، الحلية ، المصدر السابق ، م 3 ، ج 6 ، ص ص : 324 ــ 325

[448] الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 77

[449] المرجع السابق ، ص : 77

علاقته الفعلية بالدولة :

لقد جاءت روايات متناقضة تصور مواقف مالك من بعض المسائل السياسية في عصره خاصة في قضية خروج محمد ذي النفس الزكية و أخيه إبراهيم ، فقد ورد في إحدى الروايات أن المنصور أرسله في وساطة إلى عبد الله بن الحسن في سجنه لإقناعه بتسليم ولديه ، لكن عبد الله لم يستجب لذلك ، في حين تذكر روايات أخرى أنه كان يفتي الناس في الوقت : إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر فكيف نخرج منها ؟ فكان يجيبهم : إنما بايعتم مكرهين و ليس على مكره يمين[450] .

وقد سعي به إلى والي المدينة ، و قيل له : إن مالكا لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء . فغضب الوالي فدعا به وجرده من ثيابه و ضربه بالسياط ، و مد يده حتى خلعت كتفه[451] . و قيل في رواية أخرى أن ذلك بسبب الحديث الذي كان يرويه : لَيْسَ عَلَى مُسْتَكْرَهٍ طَلَاق ، وأن هذا الحديث يفضي إلى معنى سياسي ، و هو أنه ليس على مستكره بيعة[452] . و قد سئل مرة حول جواز قتال الخارجين عن الخلفاء . فأجاب : يجوز إذا خرجوا عن مثل عمر بن عبد العزيز . فيستطرد السائل : فإن لم يكونوا مثله ؟ ، فيقول مالك : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما[453] .

ويقسم بالله قائلا : ما دخلت على أحد من هؤلاء الخلفاء والسلاطين إلا أذهب الله هيبته من قلبي حتى أقول له الحق[454] . و يقول : حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئا من العلم أو الفقه أن يدخل إلى ذي سلطان فيأمره بالخير و ينهاه عن الشر و يعظه حتى يتبين دخول العالم عن غيره[455] .

---

[450] الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 74

[451] الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 290

[452] برهان الدين بن فرحون : **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب** ، د ط ، دار المكتبة العلمية ، بيروت ، د ت ، ص : 28 ، الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 79 ــ 81

[453] محمد بن علوي بن عباس : مالك ، المرجع السابق ، ص : 73

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 74

[454] أبو الفضل عياض بن موسى : **ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب كمالك** ، ات أحمد بكير محمود ، د ط ، م 1 ، ج 1 ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د ت ، ص : 208

[455] برهان الدين بن فرحون : الديباج المذهب ، المصدر السابق ، ص : 27

=

لقد كان مالك موضع شك و ارتياب و مراقبة من طرف خلفاء بني العباس ، خاصة في عهد المنصور قبل أن يستقر الرأي على الثقة به و بنواياه ، و لقد وعظ مرة المنصور ونصحه في شؤون الرعية و أشار عليه بضرورة تقصّي شؤون العامة من المسلمين فأجابه المنصور: « ... أليس إذا بكت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحى فيُحَرّك لئلا يسمع الجيران ...» ؛ فاندهش مالك لهذه المعلومة و يقول : « ... و الله ما علم بهذا أحد إلا الله ...» فيقول المنصور : « ... قد علمت هذا و لا أعلم أحوال رعيتي...»[456] . ولا بد أن مراقبة المنصور لمالك كانت إثر فشل ثورة محمد بن عبد الله ، إذ ظل المنصور متخوفا من تكرار مثلها ؛ خاصة و قد شهدت انخراط بعض الفقهاء في بعض أحداثها . لكن بعد أن تيقن من سلامة مقاصده أحاطه بصنوف التكريم المادي و المعنوي . و قد دخل عليه مرة و قد أخذ الناس مجالسهم ، فقال له : إلي ها هنا يا أبا عبد الله ، فجلس إزاءه حتى ألصق ركبتيه بركبتي المنصور ، فقال له : حقيق أنت بكل خير[457].

ولم يكن مالك يلزم نفسه في مجالس الخلفاء بالتقاليد و القواعد المرعية في ذلك ، و قد كان من بينها تقليد تقبيل يد الخليفة و كمه عند القدوم و عند الانصراف ، لكن مالكا لم يكن يفعل ذلك إكراما للعلم الذي يحمله . و قد حدث أن عطس المنصور مرة فشمته مالك و لما أراد الانصراف نبهه الحاجب إلى أن تشميت الخليفة خطأ ينبغي تحاشيه مرة أخرى ، و في مجلس آخر حدث أن عطس المنصور فقال مالك : أي حكم تريد يا أمير المؤمنين ، أحكم الله أم حكم الشيطان ؟ فيقول المنصور : بل حكم الله ، فقال مالك : يرحمك الله[458] .

ويقول المنصور لمالك يحمله مسؤولية الشأن العام :« ... إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد عمال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك أو سوء سيرة في الرعية ، فأكتب إلي بذلك أنزل بهم ما يستحقون . و قد أكتب إلى عمالي بها أن يسمعوا منك و

= القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 208

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 45

[456] الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 47

[457] المرجع نفسه ، ص : 47

[458] القاضي عياض : المصدر السابق ، ص : 208

محمد بن علوي بن عباس : مالك ، المرجع السابق ، ص : 75

الشكعة : المرجع السابق ، ص : 48

يطيعوك في كل ما تعهد إليهم . فانههم عن المنكر و أمرهم بالمعروف تؤجر علـــى ذلـــك و أنت خليق أن تطاع ويسمع منك ... »[459] .

وأمر له المنصور مرة بخمسة آلاف و كسوة سنية كما أمر بألف لولـــده محمـــد ، و كـــان المألوف أن يضع المأمور له بالهدية الكسوة على كتفه لكي يراها الناس ، فـــاعترض مالـــك هذا التقليد فلم يكن من المنصور إلا أن أمر الخادم بأن يلحقها برحل مالك دون إلزامه بهـــذه العادة [460].

ومنذ أن حصل مالك على رضا المنصور إلى غاية وفاته ظل محل تكريم و إجلال مـــن طرف رجال الدولة العباسية . و لما تولى المهدي مضى على سنة المنصور في إكرام مالك وتقريبه ، و قد كان المهدي على عِلْم بإجلال المنصور لإمام المدينة فزاد في تـــوقيره للحـــد الذي دفعه لزيارته في بيته كما سيرد .

وقد بعث المهدي إليه ألْفَين من الدنانير و طلب إليه أن يركب إلى بغـــداد ، ربمـــا ليقنعـــه بالمقام بها ؛ فرفض أن يقبل المال وكما رفض الركوب إلى بغداد ، فلم تمض شهور حتـــى أرسل إليه المهدي ستة آلاف دينار ، فقال مالك لجلسائه : من ترك شيئا عوضـــه الله عمـــا ترك[461] . و ربما كان مراد المهدي أن يتخذ من مالك فقيه الدولة كالذي حصل بعد ذلك مـــع أبي يوسف القاضي ؛ في سياق تفكير المنصور و من تلاه بتوحيد مرجعية الفتوى ؛ الفكـــرة التي اعترض على واقعيتها مالك أيّامَ المنصور .

وجاءت روايات كثيرة تصف حسن العلاقة بين المهدي و مالك ، و تشير إلى أن مالك كان مَرْضِيًّا عليه . و قد أراد المهدي زيارته في بيته خلاف كما جرت به العادة ؛ إكرامـــا لـــه فاستمهله مالك ساعة ، ظل فيها المهدي ينتظر ثم أدخله و هو يعتذر له : يا أمير المـــؤمنين إن العيال سمعوا بمجيئك فأحبوا أن يصلحوا منزلهم[462] . و ظل المهدي يستدعيه للمُجَالســـة

---

[459] القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 208
الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 49

[460] ابن قتيبة : الإمامة المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 150 . الشكعة : المرجع السابق، ص : 38

[461] القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 211 ، ثمة رواية أخرى تشبه هذه الرواية ، أنظر : الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 63
الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 45

[462] القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 215 . الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 49

والمُبَاحَثة كلما قدم المدينة و حدث في إحدى هذه الزيارات أَنْ عطش مالك مرة في مجلس المهدي فطلب الماء فجيء له بقدح من زجاج به حلقة من فضة فأبى مالك أن يشرب فتنبه المهدي للأمر فأمر بالحلقة تلك فنزعت من الكأس [463] . و استمر الرشيد على نهج سابقيه في الاحتفاء بمالك والتنويه بعلمه و فضله ، و اتخذ من نفسه في أكثر من زيارة طالب علم بين يديه ، و حدث أن طلب الرشيد سماع الحديث من مالك في مجلس خاص ، فنصحه مالك بالسماع مع الطلبة وعَلّل ذلك بأن الخاص لا يُنْتَفع به فلما جلس الرشيد إزاء مالك قال : هات تَقْرأ علي ؟ فقال مالك : ما قرأتُ على أحد منذُ زمان ، فقال الرشيد : إذن أخرج الناس عني حتى أقرأ الحديث عليك ، فقال مالك : إن العلم إذا منع العامة لأجل الخاصة لم ينتفع به الخاصة فقال الرشيد : فَأْمُر بعض أصحابك يقرأه ، فاستجاب له مالك [464].و في رواية أخرى أن الرشيد جلس مُسْنَدِا إلى جنب مالك جلسة الإمارة فَنَبَّهه مالك قائلا : يا أمير المؤمنين من تواضع لله رفعه ، فقام الرشيد وجلس بين يديه ، فلما فرغ عاد إلى مكانه[465] .

ودخل في إحدى المرات على الرشيد في إحدى زياراته للمدينة فوجد عنده شطرنجا منصوبا فظل واقفا و لم يجلس ، و خاطب الرشيد : أحق هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، فقال مالك : فما بعد الحق إلا الضلال . فرمى الرشيد الشطرنج برجله و قال : لا يُنصَبَن بين يدي بعد[466] .

وحدث أن حنث الرشيد مرة في يمين و سأل العلماء فأجمعوا على أن عليه عتق رقبة ، لكن مالك كان لديه رأي آخر وقال : عليه صيام ثلاثة أيام ، فقال الرشيد لمالك في صيغة اعتراض : أأنا معدم ؟ فأجابه مالك : يا أمير المؤمنين ، كل ما في يدك ليس لَكَ فعليك صيام ثلاثة أيام[467] . و هذه كلمة جريئة صدرت من مالك تجاه الرشيد ما كان ممكنا قولها لولا مكانة مالك الكبيرة عند الرشيد و لولا المنزلة الرفيعة التي وصل إليها في قلوب الناس

---

463 الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 50

464 الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 51

3 الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 291.

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 66 . الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 51

466 القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 208. محمد بن علوي بن عباس : مالك ، المرجع السابق ص : 75. الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 51

467 محمد بن علوي بن عباس : مالك ، المرجع السابق ، ص : 79 . الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 53

؛ حيث انعقدت على إمامته آراء كل علماء السنة في ذلك العصر و ما تلاه من العصور ؛ بحيث صار مالك أجل و أعظم من أن يعاقب .

وقد حَوْصَلَ الرشيد طبيعة العلاقة بينهما لما خاطبه : تواضَعْنا لِعلمك فانْتَفَعنا به و تواضع سفيان بن عيينة لنا فلم ننتفع به[468].و سيأتي لاحقا بيان فحوى العلاقة التي سلكها سفيان بن عيينة مع الرشيد و غيره .

وظل مالك معتزا بعلمه و مجاورته للحرم النبوي ، مُكَرَّما من وُلَّاة المدينة يستمعون لنصحه و توجيهه ، وقد خرج مرة لصلاة العيد فرأى والي المدينة في موكب و رايات وسلاح ، فأنكر عليه هذا الهَيْلَمان و ذكره بحال النبي صلى الله عليه و سلم و تواضعه في فتح مكة ، فاعتذر الوالي عن ذلك و لم يعد إلى ذلك[469] .

ولقد شغلت مسألة علاقة مالك برجال الدولة العباسية معاصريه ؛ خاصة فيما يتعلق بقبوله ما كانت تجود به يد الخلفاء ، و الأمر لا ينفصل عن سياق حياة مالك الخاصة ، لذلك لا بد من معرفة المصادر التي كان يقتات منها و ينفق على عائلته .

والروايات في هذا الشأن لا تسعفنا كثيرا في بيان مصادر عيشه ، و بعضها يشير إلى انه قد كان في بداية شأنه يباشر التجارة و يرتزق منها ، و كان شريكا لأخيه بِرأس ، لكن مع تزايد نمو حلقته و تكاثر الطلبة عليه ، و تفرغه الفقه و الحديث لم يعد من الممكن الجمع بين العلم والتجارة ، فاستجاز لنفسه القبول بهدايا الخلفاء ، و له في ذلك رأي أجاب به عن من سأله عن مدى شرعية قبول مال السلاطين ، فقال : أما الخلفاء فلا شك ، و أما من دونهم فان فيه شيئا[470] و لم يعلل الفرق بين ما يهديه الخلفاء و ما يهديه من دونهم . و لما أجازه الرشيد في إحدى المرات بثلاثة آلاف دينا قيل له :« يا أبا عبد الله . ثلاثة آلاف تأخذها من أمير المؤمنين ، فقال: لو كان إمام عدل فأنصف أهل المروءة ، لم أر به باسا ...»[471]. و

---

[468] الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 44

[469] لقاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 214
الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 54

[470] القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 217
الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 58

4 القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 217
الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 58

النص واضح في رأي مالك حول الرشيد ؛ حيث اعتبره إمام عدل و حيث كان ينعته بـأمير المؤمنين . لكنه في حال الفتوى كان يفتي بخلاف ذلك ، و كأنه كان يرى قبوله هـو لهـدايا الخلفاء يختلف عن قبول الآخرين ؛ لأنه يأخذها عن قوة و ثقة ، في حين يأخذها آخرون عن ضعف و رغبة فقد روي أن سائلا سأله عن هدايا السلطان فقال : لا تأخذها ، فقـال السائل : أنت تقبلها فأجابه : تريد أن تبوء بإثمي و إثمك ؟ ، و جاء في رواية أخرى : أنت تُبَكِتُنِي بذنوبي[472] ، وهذا الرد غير صريح من مالك ، أو أن الرواية مختلقة لأن الذي يجد من نفسه القدرة على مواجهة المنصور و من تلاه في أمور لا تحبذها الشريعة كيف يستجيز لنفسه أن يقع في مثل هذا الذنب والظاهر أنه لم يرد خوض نقاش لا يجد جدوى من ورائـه ، و قـد عرف عنه كراهية النقاش .

إذن لقد جسّد مالك من خلال مسلكيته التي حاولت عرض بعض جوانبها أهم ملامح الفئة من الفقهاء التي ارتأيت أن تجامل الدولة ، رغم ما أثير حول مساهمته في ثورة ذي الـنفس الزكية والتي لا تزال حدودها غامضة . و قد يكون مالك قد شارك في بعض تفاصيلها مـن خلال الرأي و المشورة الفقهية ، لكنه لم يحمل السلاح و لم ينخرط في الفعل ، و لم يرد لـه في الروايات الموثوقة التي عرضت ليوميات الثورة له ذكرا . و إن يكون قد ثبـت لـدى الدولة عليه نوعا ما من المشاركة ؛ إلا أن مثله في مكانته و منزلته لا تفوت الدولة فرصـة ربط علاقة ود به ؛ يكون عونا لها على إدامة السلام في المدينة ، و قد تم لها ذلك ، إذ لـم تشهد المدينة طيلة هذا العهد حراكا سياسيا معارضا بنفس القوة و التأثير .

---

[472] القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 218
الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 59

الليث بن سعد :

من أشهر الفقهاء في زمانه فاق في علمه وفقهه إمام المدينة الإمام مالك بن أنس غيْــرَ أنَّ تلامذته لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق مثلما فعل تلامذة الإمام مالك ، وكان الإمام الشافعي يقول : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به[473] .

إنه الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شـيخ الإسـلام وعـالم الـديار المصرية ولد بقرقشندة[474] وهي قرية من أسفل أعمال مصر في سنة 94هـــ ـ 713م[475] .

تلقى الليث العلم على عدد من كبار علماء عصره، فسمع من عطاء بن أبي رباح وابـن شهاب الزهري وغيرهما كثير[476] . وجمع علما كثيرا و حفظ من الحديث ، و بلغ في حفظه ما روي أنه قيل له :« ... أَمْتَعَ الله بِك إنَّا نسمع منك الحديث لَيْس في كتُبِكَ فقال : أَوَ كُـل مَا في صَدْري في كتبي ، لَو كتبتُ ما في صدري مَـــا وَسِعَه هَذا المَرْكب ... » . و هـذا إن صحت الرواية يدل على واسع علمه و وفير محفوظه و كثرة سماعه ، و الذي استحق به أن يكون إماما مجتهدا .

وقد رحل الليث رحلات كثيرة في طلب العلم و السماع عن كبار التـابعين و تلاميـذهم فأدرك نخبة صالحة منهم مثل نافع مولى عبد الله بن عمر فاحتال حتـى لقيـه بالحجـاز وكانت في نافع حدة ، ولكن الليث عرف كيف يصانعه حتى اطمأن لـه ، فلزمـه الليـث لا يبرحه طيلة إقامته بالحجاز ، يحفظ عنه الأحاديث وفتاوى الصحابة ، ويحاوره فـي الفقـه . وقد حدث أن جلسا في دكان علاف فتحاورا برهة ، فمر بهما ابن لُهَيْعَة[477]* وهو مصـري

---

[473] لا يناقض هذا ما ورد في ثناء الشافعي على مالك بأنه نجم العلماء لأن الإطلاقات هذه غير دقيقة بقدر ما تنم عن الإعجاب والتقدير

[474] **قرقشندة** : قرية بأسفل مصر. ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص: 327

[475] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 137

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 127

[476] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 137

[477] * **ابن لهيعة** : قاضي مصر و مسندها ، توفي سنة 174 هـ .

السيوطي : طبقات ، المصدر السابق ، ص : 107

من أصحاب الليث ــ صار فيما بعد قاضيا لمصر ــ فسأل عن نافع : من هــذا ؟ فقــال الليث : هو مَوْلىً لنا . حتى إذا عاد إلى مصر ، جعل الليث يحدِّث عن نافع ، فسأله ابــن لهيعة مُنْكِرًا وأين لقيْتَه ؟ فاخبره الليث ضاحكا بالقصة فغضب ابن لهيعة ، لأنه أخفاه عنه ، فنقل إليه الليث جميع ما حفظه عن نافع[478] والقصة تدل على الحرص على التلقي من كبار الشيوخ الموثوقين التي طبعت سعي طلبة العلم في ذلك العهد ، و ذلك حرصا علــى صــحة الحديث و سلامة النقل في الدين ، و من أهم الشيوخ الذين أخذ عنهم و تعلم على يديهم هــو ابن شهاب الزهري و يحدد الليث وقت سماعه منه يقول : « ... سمعت بمكة ســنة ثــلاث عشرة ومائة من الزهري وأنا ابن عشرين سنة ... »[479] . ويقول « ... كتبت من علم ابــن شهاب علما كثيرا وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة فخفت أن لا يكون ذلك لله فتركته ، ودخلت على نافع فسألني فقلت أنا مصري فقال ممن قلت من قيس قال : ابن كم ؟ قلت : ابن عشرين سنة قال : أما لحيتك فلحية ابن أربعين ، قال أبو صالح خرجت مــع الليــث إلــى العراق سنة إحدى وستين ومائة خرجنا في شعبان وشهدنا الأضحى ببغداد قــال وقــال لــي الليث ونحن ببغداد : سل عن منزل هشيم الواسطي[480]* فقل له أخوك ليث المصري يقرئــك السلام ويسألك أن تبعث إليه شيئا من كتبك . فلقيت هشيما فدفع إلي شيئا فكتبنا منه وسمعتها مع الليث... »[481] . وكان في العشرين من عمره لما حجَّ حجته الأولى وزار المدينة حيــث كان الفقهاء من كل الأمصار يجتمعون في الحج ثم في الحرم النبــوي فيتبــادلون الــرأي ، وهناك تم لقاءه بابن شهاب الزهري وجلوسه إليه ، وتلقيه عنه ، ووجد الليث في الزهري من عمق الفكر وسعة العلم ودقة الفهم ما لم يجد في أحد قط . فأكبره إكبارا شديدا حتــى كــان يمسك له بالركاب . و قد سأله صديق مستنكرا هذا الفعل فقال الليث : « ... نعــم للعلــم ، فأمــــا لغيــــر ذلــــك فــــلا .. والله مــــا فعلتــــه بأحــــد قــــط ...» كما التقى في الحجاز بعدد من فقهاء العصر من أهل السنة ؛ أهل الحديث وأهل الرأي علــى

---

[478] ترد هذه الأمور بين القرناء في إطار التنافس و البحث عن التميز رغم أنها تبدو لا تليق.

[479] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 144

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 128

[480] * **هشيم الواسطي** : أصله من واسط ، نزل بغداد ومات بها سنة 183 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 310

[481] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 145

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 127

السواء ، وجلس إليهم ، وفي حلقة ربيعة الرأي تعرف بمالك بن أنس ، وكان في مثل سنه وحصل بينهما ما يحصل بين الأقران من المجتهدين . وأَلِفَ كل منهما صاحبه ، ونشأت بينهما مودة ، و قد أدرك الليث أن مالكا يعاني الفقر، فكان كثيرا ما يصله بالمال ؛ الأمر الذي غدا سُنة مضى عليها الليث في العطاء و مالك في القبول حتى أثرى مالك . و تلازما كذلك في حلقة ربيعة ، و حدث أن أكرم مالك الليث فأرسل إليه طبقا فيه رطب ، فرد الليث الهدية طَبَقًا مملوءا بالدنانير .

ولما عاد الليث إلى مصر ، استمرت العلاقة بينها من خلال الرسائل ، و كثيرا ما دعا الليث مالكا لزيارة مصر لكن مالك لم يستطع . غير أن الليث تعَوَّد أن يزوره في المدينة كلما ذهب للحج أو العمرة وزيارة الحرم النبوي . وقد ظل الليث يصل مالك بن أنس بمائة دينار كل عام و حدث أن كتب مالك إليه أنَّ عليه ديناراً ، فأرسل إليه الليث خمسمائة دينار ؛ والدينار في ذلك الزمان كان يكفي لكسوة رجل أو لشراء دابة[482] . ولم ينقطع عطاء الليث لمالك حتى أصاب مالك عطاء الخلفاء وأصبح ثريا ، ومع ذلك فقد واظب الليث على سؤال مالك عن حاجته حتى في الرسائل التي تضمن خلافاتهما الفقهية[483] . هذا و لم يكن مالك يضن بالاعتراف بفضل الليث حيث روى أبو صالح كاتب الليث قال : كنا على باب مالك فامتنع عن الحديث ، فقلت : ما يشبه هذا صاحبنا ، فسمعها مالك فأدخلنا وقال : من صاحبكم ؟ قلت : الليث ، قال : تشبهونا برجل كتبت إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ منه ما بعنا فضلته بألف دينار[484] .

يقول أبو نعيم يصف جلالته و منزلته في مصر:« ... كان الليث رحمه الله فقيهُ مِصْر ومُحَدّثها ومُحْتَشِمُها ورئيسها ومن يَفْتَخِر بوجوده الإقليم ؛ بحيث إن مُتوَلّي مصر وقاضيها

---

[482] الشرقاوي : أئمة الفقه ، المرجع السابق ، ص : 103

« ... وروي عن حرملة يقول كان الليث بن سعد يصل مالكا بمائة دينار في السنة فكتب مالك إليه علي دين فبعث إليه بخمس مائة دينار فسمعت ابن وهب يقول كتب مالك إلى الليث إني أريد أن أدخل بنتي على زوجها فأحب أن تبعث لي بشيء من عصفر فبعث إليه بثلاثين حملا عصفرا فباع منه بخمس مائة دينار وبقي عنده فضله ...»

أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ج 7 ، ص : 322

[483] الشرقاوي : أئمة الفقه ، المصدر السابق ، ص ص : 104 ــ 106

[484] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 319

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 157

وناظِرِهَا مِنْ تحت أوامره ويرجعون إلى رأيه ومَشُورته ، ولقد أَرَادَه المنصــور علـــى أنْ يَنُوب له على الإقليم فاستعفى من ذلك ... »[485] .

لقد جمع الليث صفاتا قلما تجتمع في إنسان ، و لعلنا لا نجد مثيلا لها إلا لدى عبد الله بن المبارك ، مع الفارق بينهما في الزمان و المكان و رؤية كل منهما لما ينبغي ســلوكه فـــي الحياة. و أهم هذه الصفات هي الثراء المادي لحد الغنى و الرسوخ العلمي للحد الذي بلغ به الليث درجة الاجتهاد المطلق ، و الجاه العريض و المنزلة الكبيرة و نفوذ الكلمة ، و عمق التأثير و امتلاك السلطة حتى على عمال الدولة ، و يؤكـــّد ابن سعد أن الليث كان قد استقل بالفتوى في زمانه اضافة الى كثرة محفزظه من الحديث و أنه كان سَرِيّا من الرجال سخيا له ضيافة[486] .

و لقد تضمنت الأخبار و الروايات ــ التي رغم شحتها ــ إجماعًا من جميـــع معاصـــريه على واسع كرمه و جزيل فضله ؛ حيث تُورِدُ أن الليث كان يستغل عشرين ألف دينار فـــي كل سنة وأنه قال : ما وجبت علي زكاة قط[487]، وأعطى ابنَ لهيعة ألف دينـــار ، وأعطـــى مالكا ألف دينار ، وأعطى منصور بن عمار الواعظ[488] ألف دينار وجارية تساوى ثلاث مائة دينار[489].

ويحكي أحد أصحابه قال : « ... صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى و لا يتعشى وحـــده إلا مع الناس ، و كان لا يأكل اللحم إلا أن يمرض ... »[490]. وجاءته امرأة فقالت : يا أبـــا الحارث إن ابنا لي عليلاً واشتهى عسلا فقال : يا غلام أعطها مرطا مـــن عســـل والمـــرط

---

[485] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 145

[486] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 161

[487] ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 127

أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ج 7 ، ص : 322

المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 448

[488] هو ابن السماك ، و قد سبقت ترجمته .

[489] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 149 ، 152

أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص ص : 322 ــ 323

« ... قال صالح بن أحمد الهمذاني: قدم منصور بن عمار على الليث فوصله بألف دينار واحترقت دار ابن لهيعة فوصـــله بألف دينار ووصل مالكا بألف دينار وكساني قميص سندس فهو عندي ...» .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 127. الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 158

[490] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 321

عشرون ومائة رطل[491] . وذكر آخر قال : اشترى قوم من الليث ثمرةً فاستَغلُوها فاستقالوا فأقالهم ، ثم دعا بخريطة فيها أكْياس فأمر لهم بخمسين دينارا ، فقال له ابنه الحارث في ذلك ، فقال : اللهم غفرا إنهم قد كانوا أمَّلوا فيها أَمَلًا فأحببت أن أعوضَهُم من أملهم بهذا . لكن مع كل هذا الجاه العريض و الغنى الواسع إلا انه كان يمتلك روحا متدينة شفافة فلم يمنعه تمكّنه و اقتداره المادي من التمتع بالأحاسيس الروحية التي تسمو إلى الله و تراه أولا وآخِرًا ، فروي عن سعيد الآدم[492] قال : مررت بالليث بن سعد فتنحنح فرجعت إليه فقال لي : يا سعيد خذ هذا القنداق فاكتب لي فيه مَنْ يَلْزم المسجد مِمّن لا بضاعة له ولا غلّة . فقلت: جزاك الله خيرا يا أبا الحارث . وأخذت منه القنداق[493] ثم صرت إلى المنزل ، فلما صلّيت أوقدت السّراج وكتبت : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم قلت : فلان بن فلان ، ثم بَدَرَتْني نفسي . فقلت : فلان بن فلان قال : فبينا أنا على ذلك إذا أتاني آت فقال : ها لله يا سعيد ؛ تأْتي إلى قوم عَامَلُوا الله سِرّا فتكشفهم لآدمي ، ما اللّيث ؟ وما شعيب ؟ أليس مرجعهم إلى الله الذي عاملوه . فقمت ولم أكتب شيئا ، فلما أصبحت أتيت الليث فتهلل وجهه ، فناولته القنداق فنشره فما رأى فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : ما الخبر ؟ فأخبرته بصدق عما كان ، فصاح صيحة فاجتمع عليه الناس من الحِلَق فسألوه ، فقال : ليس إلّا خير ، ثم أقبل عليّ فقال : يا سعيد تبينتها وحرمتها صدقت ، ما الليث ؟ وما شعيب ؟ أليس مرجعهم إلى الله[494] .

وروي عن أشهب بن عبد العزيز[495]* قال : كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها أَمَّا أوّلها فيجلس للسلطان في نوائبه وحوائجه ، وكان يغْشَاه السلطان فإذا أنكر من القاضي أمرًا أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل ، ، ويجلس للمسائل يغشاه

---

[491] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 319. الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 149

[492] لم أعثر على ترجمته .

[493] لم أجد معناه و لعله صحيفة أو مما يكتب فيه من ورق و غيره

[494] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 153

[495] * **أشهب بن عبد العزيز** : أبو عمرو انتهت إلى رئاسة الفقه المالكي بمصر ، ولد سنة 140هـ ، و توفي سنة 204 هـ .

محمد بن مخلوف ، شجرة النور ، المرجع السابق ، ص : 59

الناس فيسألونه ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده كبرت حاجته أو صغرت ، وكان يطعم الناس في الشتاء و الصيف من صنوف الأطعمة المحببة [496] .

لقد كان الليث من رجال السنة الأكابر ، و يشهد مسرد شيوخه الذين أخذ عنهم العلم بولائه للعقائد السنية ، و لم يكتف بذلك بل لعب الليث دورا مهما في نشر العقيدة السنية ؛ خاصة الرؤية السنية لمسألة التفضيل بين الصحابة ، و قد حفظت المصادر شهادة من أحد معاصريه[497] تقول : « ... كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائله فكفوا ...»[498] . وإذا كنا نفتقد التفاصيل بهذا الصدد فإن الاعترافات المُجْمَلَة التي صدرت من كبار رجال السنة تمنحنا تعويضا ما ، إذ لو بلغهم خلاف ذلك لما ترددوا في ذكره . و قد كان الشافعي يقول : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به . و قال أيضا : الليث أتبع للأثر من مالك . وقال ابن وهب : لولا مالك والليث لضل الناس[499] . وذكر أحمد بن صالح الليث فقال : إمام قد أوجب الله علينا حقّه ، لم يكن بالبلد .. مثله[500] .

وكان الليث بن سعد يقول : بلغت الثمانين وما نازعت صاحب هوى قط ، ويعلق أبو نعيم على قوله فيقول : « ... كانت الأهواء والبدع خاملة في زمن الليث ومالك و الأوزاعي والسّنن ظاهرة عزيزة ، فأما في زمن أحمد بن حنبل وإسحاق وأبي عبيد[501] فظهرت البدعة وامْتُحِن أئمة الْأَثَر ورَفع أَهْلُ الأَهْوَاء رؤوسهم بدخول الدّولة معهم ، فاحتاج العلماء إلى مجادلتهم بالكتاب والسنة ، ثم كَثُرَ ذلك واحتَجّ عليهم العلماء أيضا بالمعقول ، فطال الجدال واشتد النزاع وتولدت الشّبَه ، نسأل الله العافية ... »[502] .

علاقته بالدولة :

---

[496] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 320
الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 150

[497] لا يرد ذكره

[498] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 130

[499] الذهبي : السير ، المصدر نفسه، ج 8 ، ص ص : 156 ــ 158
أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 320

[500] المصدر نفسه ج 8 ، ص ص : 154 ــ 155

[501] يقصد اسحاق بن راهويه و أبي عبيد القاسم بن سلام و أحمد بن حنبل

[502] الذهبي : السير ، المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 144

إذن لقد كان الليث في مصر من أبناء الذوات و لم يكن نكرة ، و كان يجسد ظاهرة لم تتكرر طيلة هذا العهد ، و هي تمكّنه من الحصول على جميع مصادر السلطة ؛ سواءً السلطة المادية و المتمثلة في جاهه العريض أو السلطة المعنوية و التي نالها من طريق علمه و فضله وسخائه و جَوْدة عقله ، و النفوذ لدى السلطة السياسية الذي اكتسبه من خلال الاحترام الذي حظي به من خلفاء بني العباس الذين عاصرهم . هذه السيادة التي توفرت له جعلته كلمة إجماع . لقد كان حاضرا في قلب الحياة في مصر ، لم يمارس العزلة و لا الانفراد ، و كان هذا اتجاها عرف به منذ شبيبته و كهولته الباكرة .

وكان الليث قد امتلك احترام جميع الخلفاء الذين عاصرهم ؛ خاصة بني العباس ؛ حيث أن الدولة العباسية قامت و الليث في طور الكهولة ؛ يزحف نحو الأربعين ، و قد اكتمل علما وجاها و منزلة ، و ربطته علاقة ود و ثقة بأبي جعفر المنصور. و يصف الليث أحد لقاءاته بالمنصور : « ... لما ودّعت أبا جعفر المنصور بِبَيْت المقدس ، قال : أعْجَبَني ما رأيت من شِّدة عقلك ، والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك ، قال شعيب : كان أبي يقول : لا تخبروا بهذا ما دمت حيا ... »[503]. و قد أفضى هذا الإعجاب إلى تفكير المنصور في إسناد ولاية مصر إليه ؛ حيث روي عن الليث قال : « ... قال لي أبو جعفر المنصور: تلي لي مصر قلت : لا يا أمير المؤمنين إني أضْعُفُ عن ذلك ، إني رجل من الموالي . فقال : ما بك ضعف ولكن **ضَعفَتْ نيّتك في العمل لي**... »[504] . و العبارة الأخيرة ذات حمولة ثقيلة ، يدور فحواها حول ما نحن بصدد البحث فيه . إن ضعف النية هو ذاته معنى التردد و عدم اليقين ؛ التردد في مدى صواب العمل للدولة ، و مدى القدرة على إحقاق الحق في ظل ظروف الانحراف الذي كان يشهده الواقع عن مقتضى تعاليم الدين .

وجاء في رواية أخرى : قال الليث :« ... قال لي المنصور تَلي مصر؟ ؛ فاستعفيت ، قال: أمّا إذا أبيْت فدلني على رجل أقَلّدُه مصر، قلت : عثمان ابن الحكم الجذامي[505] ؛ رجل له صلاح وله عشيرة . قال : فبلغ عثمان ذلك فعاهد الله ألا يكلم الليث... »[506] . و لعلها حادثة واحدة مَرْوِيّة بصيغتين ، و الشاهد فيها ؛ هو حسن رأي و ظن الدولة العباسية

---

503 المصدر نفسه، ج 8 ، ص : 151

504 المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 146

505 لم أعث له على ترجمة

506 المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 156

في الليث و لا يكون ذلك إلا بعد أن سبرت نواياه و ولاءاته ؛ خاصة في عهد المنصور ، و قد عرف بشدة حزمه و تَقَصّيه و اهتمامه بالأخبار ، ثم الشاهد الآخر هو اعتذار الليث عن قبول هذه المهمة وفهم المنصور مبررات ذلك ؛ إذ فطن أن للرفض علل أخرى غير ما أعلنه الليث ، و النوايا المُضْمَرة هي ما نعتها المنصور بضعف النية ، و لا تضعف نية فقيه في مثل علم الليث و عقله إلا إذا كان في الأمر اشتباه . هذا الاشتباه الذي جعله يقبل أن يراقب عمل الولاة و القضاة ويرفع إلى الخلفاء آراءه و اقتراحاته ، و يصلح و يسدد ما يمكن إصلاحه . لكن على أن يكون ذلك عملا إصلاحيا فرديا لا يندرج في وظيفة رسمية يتحمل تبعتها رسميا و يتحملها شرعا .

وبرغم المعنى الذي فهمه المنصور ، و هو معنى مبطن بالإدانة من الطرفين ؛ إدانة الدولة لليث ، و إدانة الليث للدولة ، إلا أنه ظل محل تقدير و إجلال من طرفها . و قد كان رأي المهدي فيه كرأي أبيه ، و قد روي عن يعقوب ابن داود وزير المهدي قال : قال أمير المؤمنين لمّا قَدِم الليث العراق إلزم هذا الشيخ فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه .وظل كذلك إلى عهد الرشيد ؛ حيث عاش الليث مدة خمس سنين في دولة الرشيد قبل أن يتوفاه الموت و قد عرفت هذه الفترة القصيرة تفاصيل مثيرة روتها بعض المصادر ، و إن يقع في القلب الشك فيها و في أمانتها التاريخية لأنها أشبه بقصص الإخباريين و قصص المجاميع الأدبية المكتوبة للتسلية أو التربية أكثر مما هي وقائع حقيقية .

وحدث أن أعضلت الرشيد مسألة فجمع لها الفقهاء فلم يشفوا نفسه فيها حتى أشخص الليث فأخرجه منها[507] . و تكشف رواية أخرى مضمون هذه المعضلة . قال أبا الحسن الخادم[508] : كنت غلاما لزبيدة زوجة الرشيد وأتي بالليث بن سعد تستفتيه فكنت واقفا على رأس ستي زبيدة[509]* خلف الستارة فسأله الرشيد فقال له : حلفت إن لي جنتين فاستحلفه الليث ثلاثا إنك تخاف الله فحلف له فقال : قال الله : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان)[510] . فأقطعه الرشيد قطائع كثيرة بمصر[511] . و ترد عند أبي نعيم الأصبهاني القصة برواية أخرى طويلة ؛

---

[507] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 159

[508] لم أجد له ترجمة

[509] * **زبيدة** : أم جعفر زوجة هارون الرشيد ، كان لها معروف كثير و رغبة في فعل الخير ، توفيت سنة 216 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج

[510] الرحمن: الآية16

[511] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 323

مضمونُها أن الرشيد حلف بالطلاق أنه من أهل الجنة ثم ندم عن اليمين التي صدرت عنه ، و أقبل يسأل الفقهاء عن المخرج من الطلاق فأغاثه الليث بالفتوى السابقة . ثم جرى بينهما حوارا أقرب للتفاوض جاء فيه ما يلي : « ... الضياع التي لك بمصر و لابنة عمك أكون عليها و تسلم إلي لأنظر في أمورها ، قال : بل نُقْطِعك إقطاعا ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أريد من هذا شيئا بل تكون في يدي لِأَمير المؤمنين فلا يَجْري علّي حيف العمال و أُعَزّ بذلك ، فقال : لك ذلك . و أمر أن يُكْتب و يُسَجّل بما قال و خرج .. بجميع الجوائز و الخلع و الخادم و أمرت له زبيدة بضعف ما أمر به الرشيد ...»[512] ولم يكن الليث بحاجة إلى كل هذه التدابير ليتجنب حيف العمال و هو في سنوات حياته الأخيرة و هو الذي لم يحتج إليها في صدر حياته .

وقد سأله الرشيد في أحدى لقاءاته به : ما صلاح بلدكم ؛ فقال : يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا بإجراء النيل و إصلاح أميرها ، و من رأس العين يأتي الكدر فإذا صفا رأس العين صفت السواقي ، فقال الرشيد : صدقت يا أبا الحارث[513] . و هذا الخبر أقرب إلى الصحة لأنه يتماشى مع الخط العام الذي سارت عليه حياته من صراحة في الحق و صدق في النصيحة .

وفي النصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة مات الليث و كان ذلك يوم الجمعة وصلى عليه موسى بن عيسى . و قال أحد الذين شهدوا جنازته : « ... فما رأيت جنازة قط أعظم منها رأيت الناس كلهم عليهم الحزن وهم يعزي بعضهم بعضا ويبكون . فقلت : يا أبت كأن كل واحد من الناس صاحب هذه الجنازة ، فقال : يابني لا ترى مثله أبدا ... »[514] .

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 145

512 أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 324

وردت رواية مشابهة تجعل الجواب يصدر عن ابن السماك . وهذه من الروايات التي تؤخذ بحذر لأنها لا تخلو من احتمال الوضع و الصنعة .

513 أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 322

514 ابن الأثير : الكامل ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 89

الشرقاوي : أئمة الفقه ، المرجع السابق ، ص : 95

خير الدين الزر كلي : **الأعلام** ، ط 3 ، ج 6 ، د ن ، د ت ، ص : 115

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 128

سفيـــان بن عيينة الهلالي :

يرد ذكر سفيان في المجاميع الحديثية و الفقهية كما يتردد اسمه في كتب الزهد و الـــورع وإخبار المتعبدين ، قدم له أبو نعيم الأصفهاني بقوله : « مـــنهم الإمـــام الأمـــين ذو العقـــل الرصين والرأي الراجح الرَّكين المستَنْبِط للمعاني والمرتبط للمباني أبو محمـــد ســـفيان بـــن عيينة الهلالي كان عالما ناقدا وزاهدا عابدا علمه مشهور وزهده معمور » [515]

ولد بالكوفة سنة 107 هـــ ـــ 725 م في خلافة هشام بن عبد الملك ثم انتقل إلى مكـــة و هو في العقد الثاني من عمره ، فاستوطنها من غير أن يهجر مسقط رأسه ؛ إذ ظـــل يتـــردد على الكوفة بين الفينة و الأخرى . وكانت وفاته سنة 198هـــ ـــ 813م بمكة[516] في آخـــر خلافة محمد الأمين[517] لكن كتب الطبقات تصنفه عادة في رجال مكة لا الكوفة . و يبـــدو انه ولد في أسرة متعلمة ولأب جعل من بين أهدافه تخريج العلماء من أبنائه إذ تـــذكر كتـــب الطبقات أن لأبيه عيينة بن أبي عمران اهتمامات علمية جعلته يقترب من الحسن البصـــري أشهر علماء عصره و مكنت ابنه سفيان من الرواية عنه . كما يرد فيها ذكر لأربعة إخـــوة لسفيان كلهم محدثين باختلاف درجاتهم في عمق التحصيل و سعة الرواية .

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 161 ــ 162

515 أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ص: 270

516 ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص : 141

517 حكم الأمين من سنة 193هـــ لغاية 198هـــ . أنظر : المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 490

: ابن العبري :المصدر السابق ، ص ص : 132 ــ 133

: ابن كثير : المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 202

عاصر خمسة من خلفاء بني أمية ، هم كالتالي : هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك و يزيد بن الوليد بن عبد الملك و إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك و مروان بن محمد . وكان شابا لما قامت الدولة العباسية ، إذ كانت سنه تقارب الخامسة و العشرين سنة ، وقد جلس للتحديث و الرواية . و عاصر ستة من خلفاء بني العباس و هم : السفاح والمنصور و المهدي والهادي و الرشيد و الأمين .

وقد اتجه سفيان مبكرا إلى مجالس العلم و حلقات الدرس ، ونملك شهادة شخصية منه تصف ذلك : « ...قرأت القرآن و أنا ابن أربع سنين ، و كتبت الحديث و أنا ابن سبع سنين ...». و يتحدث الذهبي عن علمه فيقول : « ... طلب الحديث و هو حَدَث ، بل غلام ، و لقي الكبار و حمل عنهم علما جما ...»[518] . و لم يكن بمستطاع سفيان الاهتمام المبكر بذلك لو لم يسعفه توجيه والده الذي ظل يراقبه و يسدده حتى أدرك البلوغ فألقى إليه بالنصيحة التالية التي ظل سفيان يحفظها و يحتفظ بمضمونها على مستوى السلوك : « ... يا سفيان قد انقطعت عنك شرَائِعُ الصِّبا فاحتفظ من الخير تَكُنْ من أهله .. فاسْتَأْنِس بالوِحْدة من جُلَساء السوء ، لا تنقل حسنَ ظني بك إلى غير ذلك ، و لن يسعد بالعلماء إلا من أطاعهم ... » . فيعلق سفيان على الوصية : « فجعلت وصية أبي قبلة أميل معها و لا أميل عنها . »[519] .

وكان لبكوره في طلب العلم دور في أن يحتفظ شيوخه و من هم أكبر منه من الطلبة بصورته و ينقلوها بعد ذلك لما ذاعت شهرته : « ... قال شعبة بن الحجاج : رأيت بن عيينة غلاما معه ألواح طويلة عند عمرو بن دينار[520]* ، و في أُذُنِه قِرْط ، أو قال : شنف ...» . وأكد حماد بن زيد[521]* ذات الصورة : « ... رأيت سفيان بن عيينة عند عمرو بن دينار غلاما له ذُؤَابَة معه ألواح ... » . هذا البكور يصنع لصاحبه في مجال علوم الحديث أهمية كبيرة وتمنحه لدى المحدثين و طلاب الحديث ميزة و شهرة و تجعله مقصدا لطلاب

---

[518] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 455

[519] البيهقي : **كتاب الزهد الكبير** ، تـ عامر حيدر ، ط 3 ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، سنة 1996 ، ج 2 ، ص: 111

[520] **عمرو بن دينار** : أحد كبار تابعي مكة ، مات سنة 126 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 70
ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 469 ـ 470

[521] **حماد بن زيد** : إمام أهل البصرة ، أحد أعلام السنة ، توفي سنة 179 هـ
الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق م 1 ، ج 1 ، ص : 292

الرواية ، ذلك ما يصفه المختصون بـــ " الحديث العالي" في مقابـــل " الحـــديث النـــازل" . فالبكور في السماع يضمن لصاحبه تحصيل الرواية عن الشيوخ الكبار المسنين الذين يكـــون موتهم وشيكا . وكلما كان عدد الرواة قليلا بين الراوية و بين النبي صلى الله عليـــه و ســـلم كان ذلك أدعى لتثمين الحديث . وذلك عين ما حصل لسفيان إذ حمله بكوره في الطلب إلـــى البكور في التحديث والرواية والاضطلاع مبكرا بمهمة الأداء[522] . وكانت هذه الميزة مفخرة طالما رددها سفيان في مجالسه : «... سألت الزهري عن حديث .. فطردوني ، فقال دعوه ، ثم قال : ما رأيت أحدا يطلب هذا الشأن ، أصغر منه ...» . ويردد أيضا : « ... جالست الزهري سنتين ، و كان يقول لأهل بلده : انظروا إلى هذا الغلام يسألني و أنتم لا تســـألوني ...»[523] . ودأب في السماع حتى غصت المصادر بأسماء شيوخه الذين بلغوا سبعين نفســـا من أعلام التابعين . لذلك لم يكن عجبا أن صار بحيث يقول فيه أحد كبـــار المحـــدثين : « نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة ، الزهري ، وعمـــرو بـــن دينـــار ، و قتـــادة [524]* ، و الأعمش[525]* ، ثم صار علم هؤلاء .. إلى أصحاب الأصناف ممن صـــنف ، فمـــن أهـــل الحجاز مالك ، و ابن جريج[526]* ، و سفيان بن عيينة ، و محمد بن إسحاق ...»[527] .

علاقته بالدولة :

لا نملك في مصادرنا أي إشارة لتولي سفيان أي عمل للدولتين الأموية و العباسية ، مهمـــا كان نوع العمل ، و قد كان بمستطاعه الحصول على أرفع الوظائف الدينية بخاصـــة ، فـــي الوقت الذي ذاع صيته[528] ، و قبول مثله للاشتغال لدى الدولة هو مكسب لها ترغب فيـــه و تحرص عليه لكنه نأى بجانبه عن الخوض في ذلك رغبة في السلامة ، وربما كان لنوعيـــة

---

[522] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 460

[523] المصدر نفسه ص : 462

[524] * **قتـــادة** : أبو الخطاب السدوسي البصري ، من كبار التابعين ، ولد سنة 60 هــ و توفي سنة 116 هــ بواسط .
ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 85

[525] * الأعمش : سليمان بن مهران الكوفي ، الإمام المشهور ، كان ثقة عالما فاضلا ، لقي كبار التابعين ، ولد سنة 60 هــ ، و توفي سنة 149 هــ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 400 ــ 403 .

[526] * **عبد الملك بن جريج** : أحد فقهاء و محدثي المدينة ، توفي سنة 150 هــ .
الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 71

[527] هذا قول الذهبي ، السير ، ج 9 ، ص : 525

[528] يبدو أن علاقة سفيان الدولة العباسية تتضح أكثر في عهد الرشيد . و لقد حكم الرشيد بين 170هــ و 193هــ . يعني كان سن سفيان لما تولى الرشيد الخلافة في حدود 63 سنة علما من أعلام أهل السنة

أصحابه وطباعهم دور في إشاحته عن الظهور بمظهر العامل لدى الدولة ، خاصة إذا عرفنا أن خاصة سفيان من أصحابه و أكثر المقربين إليه هم سفيان الثوري ، و الفضيل بن عياض[529] ، و عبد الله بن المبارك ، وقد عرف هؤلاء بانحياشهم و ازورارهم عن الدولة و عمالها ، و تقريع كل من تسول له نفسه الدخول في أعمالها كصنيع ابن المبارك مع إسماعيل بن علية و صنيع الثوري مع شريك و غيره ، إذ كان ذلك معدود في الاقترافات التي لا يتسامحون فيها .

لكن الواضح أن ابن عيينة يختلف اختلافا بينا عن أصحابه في شكل تعاطيه مع الدولة ؛ خاصة العباسية التي عاش في ظلها أكثر و أهم سني عمره ، إذ لا تتسم لقاءاته مع رجال الدولة خاصة الخليفة بذات الحدة التي يسلكها أصحابه كالثوري مثلا أو الفضيل بن عياض ، كما يبدو أنه يملك فهما و تصورا لمسالة ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الفقيه و الحاكم مختلفا ، إذ نجد أن الروايات التي تعلقت بهذا الأمر تعرضه في صورة الفقيه العالم الذي يرحب بإقامة علاقة ود و تعاون و تفهم مع رجال الدولة و على رأسهم الخليفة ، و التي تصل لحد قبول صلات و هدايا و إعانات مالية لم يكن يجد حرجا في قبولها . و تصوره الأخبار جاهزا مستعدا لأي خدمة يستطيع تقديمها للخلفاء من قبيل الزيارة أو الإفتاء أو المسارعة للقاء مع لين الكلام العامر بمعاني الطاعة و الإذعان و الامتنان و العرفان بالجميل ؛ بعبارة مختصرة تصوره كمن يخشى السلطة و لا يرتفع لمثل مواقف أصحابه الذين سبق ذكرهم[530] . ولا تخلو صياغات بعض الروايات من غمز مقصود .

إذن لقد كان سلوك سفيان مع الدولة العباسية يندرج في سياق المجاملة ، إذ لا نقرأ عنه في تفاصيل اتصاله مع رجالها مثل مجابهات الثوري و وكيع و ابن إدريس و احمد الحادة و

---

[529] أبو بكر البيهقي : **شعب الإيمان** ، تـ محمد زغلول ، ط 1 ، سنة 1410 هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج 4 ، ص: 110 . أنظر النص التالي في علاقتهما : «...جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة يتذاكران النعم ، فجعل سفيان يقول : أنعم الله علينا في كذا ،أنعم الله علينا في كذا ، فعل بنا كذا فعل بنا كذا ...»

[530] نفس المصدر ، ج 6 ، ص : 35 . في بعض الروايات يبدو سفيان كواسطة يجتمع من خلالها الرشيد بالمتشددين : « قال هارون الرشيد لسفيان : أحب أن أرى الفضيل . فقال له : اذهب بك إليه .فاستأذن سفيان على فضيل فقال له : من هذا ؟ قال قولوا له : هذا سفيان . فقال : قولوا له يدخل . فقال : ومن معي . قال : ومن معك .فلما دخلوا عليه قال له سفيان : يا أبا علي هذا أمير المؤمنين . فقال : وإنك لهو يا جميل الوجه ، أنت الذي ليس بين الله وبين خلقه أحد غيرك ، أنت الذي يسأل يوم القيامة كل إنسان عن نفسه وتسأل أنت عن هذه الأمة . قال : فبكى هارون . » . نفس المصدر ، نفس الصفحة

الفاصلة ، كما لا نشهد لديه صورة الفقيه العامل للدولة ، بحيث تقوم معيشته و أساس حياته على عطاءاتها ، الذي يرى نفسه و يراه الآخرون موظفا كغيره من الموظفين الملزمين بالعمل و الطاعة و التفاني في الخدمة ، الأمر الذي نجده عند أبي يوسف القاضي مثلا ، و الذي عبرت عنه بالمخاللة . وربما كان سفيان يستشعر حرجا في ذلك ، فنقرأ عنه كيف يروي مواقف بعض الفقهاء مع خلفاء بني أمية ؛ كالذي حصل بين أبى حازم[531] و سليمان بن عبد الملك أو بعض المعاصرين له من الكبار كالحوار الذي حدث بين الرشيد و أبي إسحاق الفزاري[532] . لعله أراد التنبيه إلى أن الدخول على السلاطين إذا كان لأجل الموعظة و النصيحة و خدمة الصالح العام فإنه محسوب في المصالح و المنافع[533] .

لكن رغم المكانة العالية التي تسنمها سفيان لدى أهل السنة و أصحاب الحديث بخاصة[534] إلا أن سوابقه مع الدولة ظلت محل تبرم و اشتباه حتى من طرف أحد كبار طلبته و المقرين بإمامته ، و فضله ؛ و هو أحمد بن حنبل كما نجده في الرواية التالية : «... دخل سفيان بن عيينة على معن بن زائدة و هو أمير باليمن ، و لم يكن سفيان **تلطخ بعد بشيء من أمر السلطان** ، فجعل يعضه و يذكر له أمر المسلمين فجعل معن يقول له : أبوهم أنت ؟ أخوهم أنت ؟ ...» . و في كلمة تلطخ إشعار برأي أحمد السيئ في مسلكية سفيان و كيفية تعاطيه

---

531 **أبو حازم الأعرج** أحد فقهاء المدينة ، اشتهر حواره مع سليمان بن عبد الملك بحضرة الزهري في المصادر ، راجعه بطوله في : ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 422

532 سبقت ترجمته في مبحث أبي حنيفة

533 الحق أنه روى أخبارا أخرى تشيد بالذين كانوا عمالا لدى الدولة ثم تابوا . مثل : ابن مرزوق . =

=« ...وقف سفيان على عبد الله بن مرزوق وقد جمع بطحاء تحت رأسه وتحت جنبه رمل يسفي عليه التراب ، فقال له سفيان : يا أبا محمد إنه من ترك شيئا من الدنيا عوضه الله عليه في الدنيا . فما الذي عوضك مما تركت ؟ قال : الرضا بما أنا فيه الآن قال ورأى عبد الله بمكة فقيل له : راكبا جئت أم راجلا ؟ فقال : ما حق العبد العاصي أن يرجع إلى باب مولاه راكبا ، لو أمكنني جئت على رأسي ...» . البيهقي : الزهد ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص: 338

534 « ...إذا رأيت الرجل يحب سفيان الثوري ومالك بن أنس وأيوب السختياني وعبدا لله بن عون ويونس بن عبيد وسليمان التيمي وشريكا وأبا الأحوص الفضيل بن عياض و **سفيان بن عيينة** والليث بن سعد وابن المبارك و وكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن يحيى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه فاعلم انه على الطريق ...» محمد بن إسحاق الحاكم : **شعار أصحاب الحديث** ، تـ صبحي السامرائي ، دار الخلفاء الكويت ، ج: 1 ص ص: 32 ـ 33

مع الدولة و رجالها[535] ؛ إذ لا تعدو عنده سوى سقطة أو خطأ كان أولى به تجنبه . و سيرة أحمد تبين الشكل الذي كان على سفيان أن ينتهجه مع السلطان و دائرته .

و نجد أيضا في خبر رحلة الشافعي إلى اليمن واشتغاله قاضيا هناك ثم عودته إلى مكة كيف أن أحد شيوخه عاتبه بقسوة و انتهره لدخوله في هذا الأمر ، بخلاف سفيان فإنه كلمه بلطف ونصحه بالانصراف الكلي للعلم لأنه أجدى ، فظل الشافعي يذكر له لطفه في النصيحة ، الشيء الذي نقرأ فيه موقفه التلقائي من قضية العمل للدولة[536] .

ولقد حاك في صدر الرشيد[537] شيء و هو بمكة في موسم حج فكلف الفضل بن الربيع[538]* يبحث له عن فقيه يسأله «... فقلت : ها هنا سفيان بن عيينة قال : فامض بنا إليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا ، فقال : يا أمير لو أرسلت إلي أتيتك ، فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله فحادثه ساعة فقال له أعليك دين ؟ قال : نعم قال: يا عباس اقض دينه...» ، ثم كان تعليق الرشيد على « ... ما أَغْنَى عَنِّي صاحبك شيئا فانظر لي رجلا أسأله ...» فأشار عليه بعبد الرزاق الصنعاني فكان صنيعه لما أتياه : «... خرج مسرعا فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك ، فقال : خذ لما جئناك له رحمك الله ، فحادثه ساعة ثم قال له : أعليك دين قال : نعم قال ..اقض دينه ...» لكنه لم يشف ما يتحرق داخله حتى دله على الفضيل : « ... فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من كتاب الله ويرددها وكان هارون رجلا رقيقا فبكى بكاء شديدا ثم قال لي : اقرع الباب

---

535 البيهقي : شعب ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص: 43 . لقد ظل سفيان يؤكد انتسابه لأهل الزهد رغم كل شيء «... أبا يوسف الصولي يقول دخلت على سفيان بن عيينة في مرضه الذي مات فيه فدعا ابن عيينة بشعير فقال يا أبا يوسف دع ما يقول الناس هذا طعامي منذ ثلاثين سنة ...» . أنظر : ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م1 ، ج 2 ، ص : 139

536 أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 75

537 كان الرشيد معدودا في أهل السنة ، و من بين الخلفاء الذين يحضون باحترام لديهم ، رغم ما اشتهر عنه في أدبيات الترف من قبيل ألف ليلة و ليلة . بل لم يقصر مؤرخوا السنة في إبراز صلاحه و نفي ما أتهم به . . و قد سبق إيراد قول الفضيل وددت أن الله عز و جل زاد في عمر هارون و نقص من عمري . ولقد جاء عن الرشيد قوله « ...بلغني أن بشرا المريسي يزعم أن القرآن مخلوق لله علي أن أظفرني به لاقتلنه قتلة ما قتلتها أحدا قط ...» . أنظر :

عبد الله بن أحمد : **السنة** ، تـ محمد سعيد القحطاني ، ط 1 ، دار ابن القيم ، الدمام ، سنة 1406هـ ، ج 1 ، ص : 169.

عبد الرحمن بن خلدون : **المقدمة** ، ط 1 ، دار الفكر ، بيروت ، سنة 2004م ــ 1424هـ ، ص ص : 27 ــ 31

538 * **الفضل بن الربيع** : وزير الرشيد و الأمين و لم يكن له في دولة المأمون حظ ، توفي سنة 208 هـ .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 37 ــ 40

فقرعته ، فقال : من هذا فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : مَـا لِـي ولأميـر المـؤمنين ...»[539] . و النص طويل لا يحتمل

المتن إيراده فيه ، و مضمونه يشير إلى حاجة الرشيد إلى من يصدقه النصيحة و يخلص له الموعظة ، و لابد أن الأمر كان غاية في الجدية لا يحتمل المجاملة .

إذن لقد ارتضى سفيان لنفسه هذا الطريق مخالفا في ذلك أقرب رفقائه إليه ، واستمر عليه حتى وفاته دون أن يجد في نفسه حرجا من ذلك ، و ليصير بهذا حجة لغيره ممن سلك مسلكه .

الشـافعي :

في مدينة غزة[540]* كان مولد أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع في سنة 150 هـ ــ 767م[541]، وتشاء الأقدار أن تكون هي السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة . ويلتقي الشافعي في النسب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف[542].

نشأ الشافعي يتيما، وانتقلت به أمه إلى مكة وهو ابن سنتين حتى ينشأ على ما ينشأ عليه أقرانه من قبيلته قريش[543]، وكانت مكة تموج بالفقهاء والمحدثين، وبعد أن حفظ القرآن –ولم يكن قد تجاوز سبع سنين– بدأ في التردد على حلقات العلم، ورزقه الله شغفاً بالعلم وحبًا في طلبه، فكان يلزم حلقات العلم ويحفظ الحديث رغم فقره و قلة ذات يده « ... كنت يتيما في حِجْر أمي ولم يكن معها ما تُعْطِي المُعَلّم وكان المعلم قد رضي مِني أن أَخْلُفه إذا قام ، فَلَما خَتَمْت القرآن دخلت المسجد فكنت أُجَالِس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة ، وكان منزلنا بمكة في شِعْبِ الخيف ، فكنت أنظر إلى العَظْم يَلوح فَأَكْتُب فيه الحديث والمسْألة وكانت لنا

---

539 البيهقي : شعب ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص: 36 ــ 39

540 * **غـزة** : مدينة طيبة بين الشام و مصر . القزويني : اثار ، المصدر السابق ، ص : 227

541 أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ،ج 9 ، ص : 67

الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 72

542 ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 165

543 الذهبي : السير ، ج 10 ، ص : 6

جَرة قديمة فإذا امتلأ العظم طرحته في الجرة ...»[544] ويتردد على البادية حتى يفصح لسانه ويستقيم نطقه، ولزم في سبيل ذلك قبيلة "هذيل" وكانت أفصح العـرب، ولقـد كـان لهـذه الملازمة أثر في فصاحته وبلاغة ما يكتب، وقد لفتت هذه البراعة أنظار معاصريه من العلم بعد أن شب وكبر، حتى إن الأصمعي وهو من أئمة اللغة المعدودين يقول: « ... صَـحَّحْتُ أشعَار هُذَيْل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس...»[545] . وبلغ من اجتهـاده فـي طلب العلم أن أجازه شيخه مسلم بن خالـد الزنجـي[546]* بالفتيـا وهـو لا يـزال صـغير الإهاب[547]. و يحكي عن نفسه يقول : « ... كنت إِمْرُأً أكتب الشعر فآتي البـوادي فأسـمع منهم ، قال : فَقَدِمت مكة فخرجت منها وأنا أتَمَثّل بشعر للبيد ، فضربني رَجُل مـن ورائـي من الحَجَبَة ، فقال : رجل من قريش ثم من ابن المطلب رضي من دينه ودنيـاه أن يكـون معلّما ، ما الشعر ؟ .. تَفَقّه يُعَلّمك الله قال فَنَفعني الله بكلامه ... »[548]

كان الإمام مالك قد طبقت شهرته الآفاق ، وتناقل الناس كتابه الموطأ، وسمت همة الفتـى الصغير إلى الذهاب إليه في المدينة حيث يقيم ، لكنه لم يرد أن يذهب دون أن يحفظ كتـاب الموطأ ، فلما جلس الشافعي بين يدي مالك، وقرأ عليه الموطأ أعجب الإمام مالك بقراءتـه وفصاحته ، وكان عمر الشافعي ثلاث عشرة سنة تقريبًا :« ... ثم قرأت على مالك بن أنس فكتبت موطأه فقلت له يا أبا عبد الله أقرأ عليك قال يا ابن أخي تأتي برجل يقرأه علي فتسمع فقلت أقرأ عليك فتسمع إلى كلامي فقال لي اقرأ فلما سمع قراءتي أذن فقرأت عليـه حتـى بلغت كتاب السير فقال لي : اِطْوه يا ابن أخي تفَقه تَعْلُ ... »[549] ومنـذ ذلـك الوقـت لازم الإمام الشافعي الإمام مالكا حتى توفي سنة 179هـ ـ 795مأي أنه لازمه ست عشرة سنة .

---

544 أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 73

545 ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص :163

546 * **مسلم بن خالد الزنجي** : كان مفتي مكة بعد ابن جريج ، توفي سنة 179 هـ . الشيرازي : الطبقـات ، المصـدر السابق ، ص : 70

547 المصدر نفسه ، ص : 72

548 أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 70

549 الذهبي: المصدر السابق ،ج 10 ، ص : 85 . أبو نعيم : الحلية ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص ص : 70 ـ 71 . و جاء في رواية ابن خلكان على لسان الشافعي :

« ... قدمت على مالك بن أنس وقد حفظت الموطأ فقال لي أحضر من يقرأ لك فقلت أنا قارئ فقرأت عليه الموطأ حفظا فقال إن يك أحد يفلح فهذا الغلام ... » . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 164

ولما توفي مالك عمل الشافعي واليا على " نجران "[550]*، وسار فيهم بالعدل : « ... فجئت إلى مصعب بن عبد الله[551] فكلمته أن يكلم بعض أهلنا فيعطيني شيئا من الدنيا ؛ فإنه كان بي من الفقر والفاقة ما الله به عليم ، فقال لي : مصعب أتيت فلانا فكلمته ، فقال لي : تكلمني في رجل كان مِنّا فَخَالَفَنا ، قال : فأعطاني مائة دينار. وقال لي مصعب : إن هارون الرشيد كتب إِليّ أن أصير إلى اليمن قاضيا فتخرج معنا لعل الله أن يعوضك ما كان من هذا الرجل ، فخرج قاضيا على اليمن وخرجت معه ... »[552] غير أن ذلك لم يجد هوى عند بعض الناس، فوشوا به إلى الخليفة هارون الرشيد و كان من بين ما قيل له : « ... كتب مطرف بن مازن[553] إلى هارون الرشيد إن أردت اليمن لا يفسد عليك ولا يخرج من يديك فأخرج عنه محمد بن إدريس ، وذكر أقواما من الطالبيّين ... »[554] فأرسل في استدعائه سنة 184هـ ـ 800م لكنه لما حضر بين يدي الخليفة أحسن الدفاع عن نفسه بلسان عربي مبين، وبحجة ناصعة قوية فأعجب به الخليفة ، وأطلق سراحه، ووصله بعطية قدرها خمسون ألفًا، أنفقها الشافعي وفرّقها على حجّاب أمير المؤمنين وخدّامه قبل أن يخرج من باب القصر[555].

---

[550] * **نجران** : بلدة تقع باليمن جهة مكة . ياقوت الحموي : معجم ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 266

[551] لم اعثر على ترجمته

[552] أبو نعيم : الحلية ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 71

[553] أحد عمال الرشيد باليمن لم أجد له ترجمة

[554] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[555] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 84 ، و فيه : « ... وخلع على الشافعي خاصة ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، فانصرف إلى البيت وليس معه شيء ؛ قد تصدق بجميع ذلك ووصل به الناس ، فقال له هارون الرشيد: أنا أمير المؤمنين وأنت القدوة فلا يدخل علي أحد من الفقهاء قبلك ... » .

و ورد أيضا : « ... أين الحجازي ؟ فجئت إليه ، فقام يمشي رويدا ويحرك شفتيه ، فلما بصر به أمير المؤمنين قام إليه فاستقبله ، وقبل بين عينيه ، وهش وبش وقال : لم لا تزورنا أو تكون عندنا ؟ فأجلسه وتحدثا ساعة ، ثم أمر له ببدرة دنانير فقال : لا ارب لي فيه ، قال الفضل : فأومأت إليه فسكت ، وأمرني أمير المؤمنين أن أرده إلى منزله ، فخرجت والبدرة تحمل معه ، فجعل ينفقها يمنة ويسرة حتى رجع إلى منزله وما معه دينار ... » . المصدر نفسه ص : 80

و جاء في رواية أخرى : « ... ثم خرج إلى اليمن ، وقد خرج بها الخارجي على هارون الرشيد ، وطعن الشافعي عليه وأعرض عمن ساعده ، ورفع من قعد عنه ، فبلغ ذلك الخارجي ما يقول فيه فبعث إليه فأحضره عنده وهم بقتله ، فلما سمع كلامه وتبين له شرفه وفضله وعفته عفا عنه ، وعرض عليه قضاء اليمن فامتنع من ذلك ، ثم أشخص هارون جيشه إلى ذلك الخارجي فقبض عليه وحمل إلى بساط السلطان ، وحمل معه الشافعي وأحضرا جميعا بين يدي الرشيد ، فأمر بقتلهما فقال له : الشافعي : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تسمع كلامي وتجعل عقوبتك من وراء لساني ثم تضمني بعد ذلك الى ما يليق لي من الشدة والرخاء ، فقال له : هات فبين له القصة وعرفه شرفه وذكر له كلاما استحسنه هارون وأمره أن يعيده

ولم يرق لبعض شيوخه دخوله في عمل القضاء فعاتبه بعضهم عتابا قاسيا كمـا يرويـه الشافعي : « ... فولِّي عَمّ لي ناحية اليمن على القضاء ، فخرجت معه فلما قدمت من اليمن أتيت مسلم بن خالد الزنجي فسلمت عليه فلم يرد علي السلام وقال : أحدهم يجيئنا حتـى إذا ظننا أنه **يصلح أفسد نفسه** ، قال : فسرت إلي سفيان بن عيينة فسلمت عليه فرد علي السلام وقال : قد بلغني يا أبا عبد الله ما كنت فيه وما بَلَغَنِي إلّا خير فلا تَعُد ...»[556]

وظل الشافعي في بغداد عاصمة دار الخلافة، واتصل بمحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ولازمه ملازمة لصيقة، وقرأ كتبه وتلقاها عليه[557]، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز وفقـه العراق، وعلم أهل الحديث وعلم أهل الرأي[558]، ثم عاد إلى مكة ليعقـد فيهـا أول مجالسـه العلمية في الحرم المكي، والتقى به كبار العلماء في موسم الحج، واستمعوا إليه، وفي أثنـاء هذه الفترة التقى به الإمام أحمد بن حنبل وتتلمذ عليه، وبـدأت تظهـر شخصـية الشـافعي ومنهجه الجديد في الفقه الذي هو مزيج من فقه أهل العراق وأهل المدينـة : « ... قـال الحميدي كنا نُرِيد أن نَرُد على أصحاب الرأي فلم نحسن كيف نرد عليهم حتى جاءنا الشافعي فَفَتَح لنا ..»[559] ، أنضجه عقل متوهج ، عالم بالقرآن والسنة ، بصير بالعربية وآدابها، خبير بأحوال الناس وقضاياهم ، قوي الرأي والقياس.

بعد أن أقام الشافعي في مكة نحوا من تسع سنوات استقام خلالهـا منهجـه ، واسـتوت طريقته ورسخت قدمه، وزادت نفسه ثقة فيما ذهب إليه رحل إلى بغداد سنة 195هـــ ـــ 811م، ومكث هناك سنتين نشر بها مذهبه القديم ، وألف كتابه " الرسالة " الذي وضع بـه الأسـاس لعلم أصول الفقـه [560]، والتف حـــوله العلماء ينهلون من علمـه ، ويتـأثرون

عليه ، فأعاد تلك المعاني بألفاظ أعذب منها ، فقال له هارون : كثر الله في أهل بيتي مثلك ...» . المصدر نفسـه ص : 81

[556] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 75

[557] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 81

[558] ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص :

[559] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 96

[560] ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : ص : 165

ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص :

بطريقته الجديدة التي استنها و هناك أطلقوا عليه لقب ناصر الحديث[561]، ولازمه كبار طلبة العلم هناك مثل أحمد بن حنبل و غيره[562].

ثم رجع الإمام الشافعي إلى مكة وأقام بها فترة قصيرة ، غادرها بعدها إلى بغداد للمرة الثالثة والأخيرة سنة 198هـ ـ 813م، لكنه لم يقم بها طويلا بعد أن صار له أتباع ومريدون ينشرون مذهبه ، فغادر بغداد إلى مصر ، وكانت منقسمة قسمين : فرقة مالت إلى مالك وناضلت عنه وفرقة أخرى مالت إلى قول أبي حنيفة وانتصرت له ، بالإضافة إلى تلاميذ الإمام المجتهد الليث بن سعد الذي وصفه الشافعي بأنه أفقه من مالك.

قدم الشافعي مصر سنة 199هـ ـ 814م تسبقه شهرته وتقدير العلماء له وإجلالهم لمنزلته ، وكان في صحبته من تلاميذه الربيع بن سليمان المرادي [563]* ، وأبو يعقوب البويطي[564]* ، المزني[565]* ، ثم بدأ في إلقاء دروسه بجامع عمرو بن العاص ، فمال إليه الناس ، وجذبت فصاحته وعلمه كثيرًا من أتباع الإمامين أبي حنيفة ومالك.

---

[561] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 7 . جاء فيه :

«... وصنف التصانيف ودون العلم ورد على الأئمة متبعا الأثر وصنف في أصول الفقه وفروعه وبعد صيته وتكاثر عليه الطلبة ... » . أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ،ج 9 ، ص : 107

[562] الذهبي : السير ، ج 10 ، ص : 50

لقد ظل أحمد شديد الإعجاب بالشافعي و يكثر الثناء على علمه و مصنفاته رغم ما عرف عنه من تحفظ و تشدد في أمر الكتب و الرواية التالية التي رواها أحد تلامذته تبين ذلك : « ... سألت أحمد بن حنبل قلت ما ترى لي من الكتب أن أنظر فيها لنفتح الآثار رأي مالك أو الثوري أو الأوزاعي فقال لي قولا أجلهم أن أذكره لك فقال عليك بالشافعي فإنه أكبرهم صوابا وأتبعهم للآثار قلت لأحمد فما ترى في كتب الشافعي التي عند العراقيين أحب إليك أو التي عندهم بمصر قال عليك بالكتب التي وضعها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ثم رجع إلى مصر فأحكم ذاك ثم فلما سمعت ذاك من أحمد وكنت قبل ذلك قد عزمت على الرجوع إلى البلد وتحدث الناس بذلك تركت ذلك وعزمت على الرجوع إلى مصر حدثنا أحمد بن إسحاق ثنا أحمد بن روح ثنا محمد بن عبد الله الرازي قال سمعت ابن راهويه يقول كنت مع أحمد بمكة فقال تعال حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله فأراني الشافعي ...» . أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 97

[563] * **الربيع بن سليمان** : راوية الشافعي ، مات بمصر سنة 270 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص 98:

[564] * **البويطي** : أحد تلامذة الشافعي ، حمل من مصر إلى بغداد في فتنة خلق القرآن ، و مات في سجنه .
ا لشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص :98

[565] * **المزني** : إسماعيل بن يحي ، من كبار تلامذة الشافعي ، كان زاهدا عالما مناظرا ، مات بمصر سنة 264 هـ .
ا لشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص :97

وفي مصر وضع مذهبه الجديد، وهو الأحكام والفتاوى التي استنبطها بمصر وخالف في بعضها فقهه الذي وضعه ببلاد العراق ، وصنف كتبه التي رواها عنه تلاميذه . و قد أتيح للشافعي ما لم يتح لغيره من الأئمة الكبار، من تدوين مذهبه ونشره في كتب كتبها بنفسه . و قام تلاميذه بنشر مذهبه في البلاد التي ارتحلوا إليها أو التي اتخذوها وطنًا ، و كان لهم أثر بالغ في نشر مذهبه[566] .

وظل الشافعي في مصر لم يغادرها ، يلقي دروسه في حلقته التي استمرت في الاتساع حتى توفي في رجب 204 هـ ـ 819م [567] .

وقد لقي الشافعي من التكريم و التبجيل من طرف علماء أهل السنة ما لم يلقه إلا القليل ، إذ استطاع أن يكون كلمة إجماع لما حققه من تسوية منهجية للصراع الذي كان محتدما داخل هذا الاتجاه بين أهل الرأي و أهل الحديث ، و لما حققه من تطوير أصول النظر و الاستنباط من الكتاب و السنة و لما فتح للعقل المسلم من أساليب التفكر في النصوص و فقه الآثار. و قد اتفق العلماء من أهل الفقه والأصول والحديث واللغة على أمانته وعدالته وزهده وورعه وتقواه وعلو قدره ، وقدرته الفذة على المناظرة و الحجاج ، حتى أثرت عنه هذه الكلمة : "ما ناظرت أحدًا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان.. وما ناظرت أحدًا إلا ولم أبال يبين الله الحق على لساني أو لسانه"[568] .

---

566 ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص :

567 أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 68

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : ص : 165

568 أدخل الشافعي يوما إلى بعض حجر هارون الرشيد ليستأذن له ومعه سراج الخادم فأقعده عند أبي عبد الصمد مؤدب أولاد هارون الرشيد فقال سراج للشافعي يا أبا عبد الله هؤلاء أولاد أمير المؤمنين وهذا مؤدبهم فلو أوصيته بهم فأقبل عليه فقال :

« ... ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما تستحسنه والقبيح عندهم ما تكرهه ، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ... »

ابن الجوزي : الصفة ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص : 152

وبلغ من إكبار أحمد بن حنبل ، وهو إمام أهل الحديث ، للشافعي أنه قال حين سأله ابنه : أي رجل كان الشافعي ، فإني رأيتك تكثر الدعاء له؟ : « كان الشافعي كالشمس للنهار وكالعافية للناس ، فانظر هل لِهَذَيْن من خَلَفٍ أو عنهما من عَوَض !! ... »[569].

علاقته بالدولة :

وكما لقي الشافعي التكريم من الفقهاء و أهل الحديث ، فقد لقي احتراما كبيرا من طرف رجال الدولة العباسية ؛ سواء في بغداد أو في مصر ، و رغم أن الروايات التي وصفت حياته لا تسعفنا في تبيان كامل لطبيعة علاقته بالدولة ممثلة في رجالها ، إلا أن بعض الإشارات تمنحنا إمكانية استبصار نوعية هذه العلاقة ، إذ لا نجد أي إشارة لمضايقة تعرض لها الشافعي أو امتحان ما ، عدا التهمة التي نقلته من اليمن مقيدا إلى بغداد عهد الرشيد و قد تبين بطلانها بل كانت سببا في علو اسمه و ارتفاع شأنه ، حيث مكنته من استعراض قدراته العلمية أمام الرشيد و حاشيته و أمام عمدة المذهب الحنفي ؛ محمد بن الحسن الشيباني . وقد ظل طيلة عهد الرشيد معززا يتنقل بين مكة و بغداد في طلب العلم و نشره ، أما بعد وفاة الرشيد فقد سبقت الإشارة في ترجمة أحمد كيف أنه :«... قال لأبي عبد الله : إن أمير المؤمنين ــ يعني محمدا الأمين ــ سألني أن التمس له قاضيا لليمن ، وأنت تحب الخروج إلى عبد الرزاق فقد نِلْتَ حَاجَتَكَ وتَقْضِي بالحق ...»[570]. و هذا الخبر يمكننا من استنباط المودة التي كانت بين الشافعي والخليفة و التي مكنته من الاقتراح عليه في أمور هي من خصوصية الدولة و مسؤولياتها .

ولم يقدر للشافعي أن يعيش حتى يشهد تفاصيل محنة خلق القرآن و لا نستطيع أن نحدس ما كان يمكن أن يتعرض له فيها .

إننا في حال افتقادنا للروايات الصريحة التي تكشف آراء أو مذاهب الفقهاء في مسألة السلطة و مسألة العلاقة بالسلطان نضطر للجوء إلى استثمار بعض النصوص التي قد تكون مبطنة بمعاني ما أنا بصدد البحث فيها ، و قد جاء لدى البيهقي في كتابه " مناقب الشافعي " رواية ساقها الشافعي عن الفضيل بن عياض جاء فيها :« ... مر الحجاج بن يوسف بالحسن البصري فقال : يا أبا سعيد مالك لا تأتينا ؟ فقال له : و ما أصنع بك ؟ إِنْ أَنَا

---

[569] ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : ص : 164

[570] الذهبي : سير ، المصدر السابق ، ج 11 ، ص : 224

أَتَيْتُك فأدْنَيْتَني فَتَنْتَني ، و إن أنتَ أَقْصَيْتَنِي غَمَمْتَنِي ، و ما عندي من الدنيا شيء أخاف عليه ، و لا عندك من الآخرة ما أطلب ، فعلى أي حال أجيئك ؟ ... »[571]. و النص واضح في عرضه لموقف فئة من الفقهاء التي تجنبت الاقتراب من رجال الدولة ؛ و إن كان النص يروي خبرا حدث في أيام الدولة الأموية ؛ إلا أن استعادته من طرف فقيه و آخر لها دلالاتها ، لأنها تُشير إلى مباركة و تأييد لمضمونها و فحواها ، لولا أن هذه الرواية تعود للفضيل بن عياض الذي أوضحتُ موقفه في الفئة التي حبذت سلوك المفاصلة مع الدولة العباسية أكثر مما هي للشافعي .

ولقد كان لنسب الشافعي و أصله القرشي دور في الهدوء الذي طبع علاقته بالدولة ، هذا الامتياز الذي يكاد ينفرد به الشافعي من بين كبار الأئمة و الذي أفصحت عنه ما جاء في تفاصيل محنته على عهد الرشيد و الذي لم يفوت تلامذته و المعجبين به من كتاب التراجم من التنويه به .

لقد قبل الشافعي إكرام الرشيد له و أخذ منه ما أعطاه من مال ، و إن كان قد فرَّقَه على الناس فإن ذلك يدخل في صفة المروءة و الكرم الذين عرف بهما الشافعي . و قد جاءت روايات متعددة عن جملة من عطايا الرشيد له لم يرد فيها أي اعتراض منه على أخذها أو امتعاض من قبولها ، بل لا يرد فيها أنه أخذها خوفا ، و لا يبدو فيها أي إشارة لتردد أو اضطراب أو شك كالذي يعتري بعض من يقبل صلات الخلفاء خوفا و رهبة و تقية . انه ذاته المبدأ الذي قبل به بداية قضاء اليمن في شبابه لم يتغير، ثم إن الأخبار القليلة التي وصفت تفاصيل محنته مع الرشيد لا تبدي أي تشدد و لا امتعاضا منه في طبيعة علاقته مع أعوان الرشيد و عماله ؛ خلاف ما سبق في سيرة أحمد ، حيث لا يخفي أحمد تذمره و كراهيته لمجرد حضور رجال الدولة في مجلسه أو بيته . و لقد كان الشافعي في مصر محل إجلال من طرف والي مصر و غيره من موظفي الدولة ؛ بحيث كانت علاقته الجيدة بهم تسمح له بالاستعانة بهم في الأمور التي تستدعي التأديب و العقوبة ، و قد حدث أن استَفَزّه بعض العوام : « ... فقال : اذهبوا به إلى عبد الواحد ـــ وكان على الشرطة ـــ فقولوا له : يقول لك أبو عبد الله اِعْتَقِل هذا إلى أنْ أَنْصَرِف ... »[572]

---

[571] أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : **مناقب الشافعي** ، ت السيد أحمد صقر ، ط 1 ، ج 2 ، مكتبة دار التراث ، سنة 1970 ص : 160

[572] البيهقي : المناقب ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 207 ـــ 208

لم يكن الشافعي في طبيعته الشخصية يشبه سفيان الثوري و لا تلميذه أحمد اللذين يجسدان التشدد و الصلابة و النفور الكلي في مسألة العلاقة مع رجال الدولة ، ولم يكن كذلك يشبه أستاذه سفيان بن عيينة و لا أبا يوسف القاضي في خضوعهما الأقرب للخنوع و التطامن ، لقد كان من طبيعة أخرى ، ميزتها الثقة بنفسه و الاعتداد بنسبه و بعلمه ، طبيعة تجسد شخصية الأعرابي في مضاربه و خيامه بعيدا عن سلطة أي دولة ، و لعل فترة إقامته في مضارب بني هذيل بالبادية و تشبعه بتراث القبيلة الأدبي أثرت في تركيبته الشخصية ، إذ كان بعيدا عن المطامح المادية ؛ مقتصرا على ما يكفيه ، و قد صرَّح مرة لأحد طلبته قائلا : « ... لقدْ أَنِسْتُ بالفقر حتى لا أستوحِشُ منه ...»[573] . و قد نصحه أحد محبيه لمَّا ورَدَ مصر وأراد المقام بها قال له : « ... إن عزمت أن تسكن البلد فليكن لك قوت سَنَة و مجلس من السلطان تَتَعَزَّزُ به فقال له الشافعي : يا أبا محمد من لم تُعزّه التقوى فلا عزّ له ، و لقد وُلِدتُ بغزة و رُبّيتُ في الحجاز وما عندنا قوت ليلة و ما بتنا جياعا ...»[574] .

و تصور الروايات بعض لحظات حياته الأخيرة و هو يستبصر مصائر بعض تلامذته و أصحابه و مآلات أمورهم ، فيخبر تلميذه المزني بأنه سيتولى القضاء ، من غير أن يصدر عنه أي اعتراض على ذلك و لا حتى النصح بتجنبه[575] .

إذن لقد فضل الشافعي الانقطاع لبناء مذهبه الذي استنفد كل وقته و طاقته فلم يعد بعد تجربته في قضاء اليمن إلى الدخول في أي عمل للدولة ، و قد خبر ما يستنفده القضاء من جهد لمن يريد القيام بالحق و العدل و ما يصنعه من عداوات . و لم يكن ذلك عن تحفظ في مسألة العمل للدولة ؛ إذ سبق الخبر الذي أشار فيه على أحمد بولاية قضاء اليمن ، و الذي يعني انه لم يكن معترضا على الأمر من حيث المبدأ . ثم أن وجوده في مصر رغم أنه كان منقطعا للعلم والإفتاء إلا أنه لم يكن بعيدا عن الأحداث التي يحفل بها البلد ، و تذكر بعض الروايات علاقة عون ومساعدة بين الشافعي و والي مصر ؛ خاصة في الشؤون المتعلقة بأمر الدين و الصراع المذهبي . و بهذا استحق إدراجه في الصنف المجامل .

---

[573] المصدر نفسه ، ج 2 ، ص : 149

[574] الشعراني : المصدر السابق ، ص 47. البيهقي : المناقب ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 168

[575] البيهقي : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص : 136

الفصل الثالث

الطاعة اعتقادا والمخاللــة سلوكا :

ـ توطــئة :

جاء لدى الفيروزآبادي أن : الخِلّة : بكسر الخــاء المُصَــادَقَةُ و الْإِخَــاء ، و الخَلِيــلُ ؛ الصَّادِق ومَنْ أَصْفَى المَوَدّة[576] . و سأستعمل هذه المفردة لوصف نوع من العلاقة التاريخية التي سار عليها بعض من فقهاء السنة في معاملة رجال الدولة في هذا العصر الذي نبحثه .

إن استقراء النصوص و الآثار و الروايات و الأخبار التي تحكي علاقة الفقهــاء برجــال الدولة منذ بدايات العصر الأموي تجعلنا نقر بأن فكرة اقتراب الفقيه من دوائر السلطة فكــرة غير مستحبة لدى عموم الفقهاء ؛ يلفها الشك و الارتياب ، و إحساس بالنفور يبدو راسخا في ضميرهم ، حتى الذين قبلوا الانخراط في سلك حاشية الحكام و تولــوا وظــائف للدولــة ، مشاعر كانت تدفع أغلبهم إلى محاولة تبرير خياراتهم ، حيث يبدو أن حالــة الاشــتباه بــين الديني والسياسي قد رسخت و توطدت و اخترقت لاوعي الثقافة الدينيــة ، و تحولــت إلــى قناعة عميقة تجعل من الذين ركنوا إلى ظل الدولة رغبة أو رهبة في وضع المدافع المبــرر لمسلكيته .

إن استقراء سريعا لوضعية الفقهاء العاملين للدولة العباسية في هذا العصــر و وضــعية الكتاب و الإداريين يظهر لنا حالة التحرج لدى جل الفقهاء بخلاف الآخرين ، و ذلك عائــد لاختلاف ثقافة كليهما و عائد إلى أن الفقهاء من هذا الصنف لم يحسموا الأمر على مســتوى الثقافة و القيم ؛ إذ احتفظوا بها كما تلقوها عن السلف و حكموا على أنفســهم بمقتضــاها . لأجل هذا حفلت المصادر بعبارات و اعترافات تفصح عن حالة الانقسام هذه بين الســلوك و الاعتقاد صرح بها بعضهم في حالات التولية أو في بعض ملابسات العمل أو فــي حــالات العزل أو عند الموت . إن الحالة التي نالت استحسانا لدى رجال الدين و رســخت كخلقيــة سامية محببة هي حالة اعتزال السلطة و تفضيل الوقوع في الابتلاء و المحنة على مشاركتها الإدارة و الحكم ورسخ في الثقافة الدينية تبجيل أولئك الممتحنين و الشهداء ، لذلك فليس أمام

---

[576] مجد الدين الفيروزآبادي : القاموس ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 370

من تشبع بهذه الثقافة وعايش نماذجها في شيوخه إلا الاعتذار عن خروجه عن القاعدة و تقديم مبرراته والنصوص وافرة في هذا الصدد .

لقد كان الفقر و الديون و كثرة العيال و صعوبة الحياة و ضغط العائلة أهم المبررات التي قدمها هؤلاء ، إضافة إلى رغبات أخرى كاستغلال السلطة و النفوذ في إبراز و تكريس مذهب ما دون آخر في حمأة الصراع المذهبي الذي شهده القرن الثاني و ما تلاه ، ثم ما حصل لبعض العائلات من توارث لمنصب ما غدا سمة لها و علامة على شرفها .

تكاد تنحصر الوظائف التي تولاها هذا الفريق من الفقهاء في القضاء و المظالم و الصدقات و العشور و بيت المال و الشرطة بحسب ما يستحدث في جهاز الدولة من وظائف لها علاقة بأمور الدين أو المال العام .

و تجدر الإشارة إلى حقيقة أن أغلب الروايات التي أتيح لي التعامل معها في هذا الموضوع و التي تصف مواقف هذا الصنف القريب من الدولة أو الموظف فيها ، جلها تحكي الوجه المشرق و المواقف الحازمة وإرادة تحقيق تعاليم الإسلام في أرض الواقع ، و كأن بعضا من الحدة و الصرامة تعويضا نفسيا عن ما يمكن أن يعتلج في الضمير من مغبة عملهم ، و إن لم تخلو الروايات من تعريض بنوع آخر من الفقهاء ارتضى خضوعا كليا يقرب من الخنوع تجلى في الحرص على خدمة رغبات هذا الخليفة أو ذاك و أعوانه ، الذي بلغ حد اختلاق أحاديث نبوية و تأويلات في القرآن ، و إصدار فتاوى تهدف إلى إضفاء صبغة الشرعية على بعض السلوكات الشخصية التي تدور في القصور من لهو و ترف و مجون ، أو قرارات تمس الشأن العام و قضايا الأمة ؛ خاصة المتعلقة بالجانب السياسي ؛ من قبيل الفتاوى التي تبيح تصفية الخصوم و نقض العهود ، الأمر الذي كرس لدى الفريق الذي ارتضى المفاصلة أحكامه و رؤاه .

ومن أشهر الفقهاء الذين تولوا للمنصور عبد الله بن شبرمة[577]* : « ... كان قاضيا لأبي جعفر على قضاء الكوفة ... »[578] ، و كان يقاسمه فيه ابن أبي ليلى[579]* ؛ حيث كان

---

[577] * **عبد الله بن شبرمة** : أحد أعلم الكوفة ، تولى القضاء للمنصور . توفي سنة 144هـ . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 349

[578] الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 216

[579] ***ابن أبي ليلى** : محمد بن عبد الرحمن ، من أصحاب الرأي ، و تولى قضاء الكوفة لمدة 33 سنة لبني أمية ثم لبني العباس ولد سنة 74 هـ و توفي بالكوفة سنة 140 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، ج 4 ، ص ص : 179 ــ 180

ابن شبرمة على الضياع و ابن أبي ليلى على قضاء السوق و داخـل الكوفة، و وصف ابن شبرمة بأنه كان : « ... عَفِيفًا صَارِما عاقلا فَقِيهًا يُشْبِه النُّسَّاك ... »[580] ، و كان عيسى بن موسى والي الكوفة لا يقطع أمرا دون مشورة ابن شبرمة ، و كان عيسى ولـيا للعهد بعـد المنصور فأراد أبو جعفر تدبير مكيدة له حتى يزيحه عن ولاية العهد فدفع له أحـد مناوئيـه السياسيين ليقتله فأشار عليه ابن شبرمة أن يحبسه و يكتب إليه انه قتله ففعل ذلك فلما استيقن المنصور من قتله حرض عليه أهل ذلك الرجل و أراد أن يقتص منه فأخرجه لهم حيا فلمـا اسقط فيد المنصور غضب و قال : « ... قَتَلني الله إنْ لم أَقْتل الأَعْرابي ، عيسى بن موسى لا يعرف هذا ... »[581] ، فاختفى ابن شبرمة و فر إلى خراسان و ظل فيها حتى مات[582] .

وقد أفصح ابن شبرمة عن رأيه في مسألة الخروج عن الحاكم بمناسبة رده على عمرو بن عبيد لما كتب إليه : « يحثه على الجهاد والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فكتـب ابـن شبرمة إليه.

الْأَمْرُ يَا عَمْرو بِالْمَعْرُوف نَافِلَةً ... والقَائِمُونَ بِهِ لِلّـهِ أَنْـصـارُ

والتَّارِكُون لَهُ عَجْزاً لَهُم عُـذْر ... وَلَلّائِمُونَ لَهُ يَا عَمْرو أَشْرَارُ

الْأَمْرُ والنَّهْيُ لَا بِالسَّيْفِ تُشْهِرُهَ ... عَلَى الخَلِيقَةِ إِنَّ القَتْلَ إِضْرَارُ»[583]

ــ البحر البسيط ــ

و هو ذاته المذهب الذي استقر عليه أهل السنة في هذه المسألة .

أما ابن أبي ليلى فقد مكث في القضاء طويلا ، و يحكي عن نفسه قائلا : « ... تغديت عند أبي جعفر ، فأتى بصَحْفَةٍ مُصَبَّبَة فيها مِثال الرأس ، فقال لي : خُذْ أيها الرجل مـن هـذا ، فجعلت أضرب بيدي .. فقال لي : يا محمد تَدْرِي ما تأكل ؟ ، قلت : لا ، قال : هـذا مَـخّ

---

[580] الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 216

[581] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 11 ، ص : 196

[582] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 349

[583] محمد بن خلف وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ص : 92

الثنيتان مَعْقود بالسُّكَّر .. » ، فلما خرج ابن أبي ليلى قال المنصور : يا ربيع ، لقد أكل الشيخ عندنا أكلة لا يُفْلِح بعدها أبدا .[584]

وقضى للمنصور أيضا نوح بن أبي مريم مرتين و كان تلميذا لأبي حنيفة ، فكتب إليه كتابا ينهاه فيه عن الدخول و يعظه ، ثم قضى أيضا بعد وفاة أبي حنيفة و اشتهر بشدته على أهل البدع [585] . و استقضى المنصور بدمشق الفقيه يحيى بن حمزة[586]*. و كان الفرج بن فضالة[587]* عاملا على بيت المال في عهد المنصور ؛ فروي أن المنصور مر يوما راكبا والفرج بن فضالة جالس ، فوقف الناس قياما للمنصور ، و لم يقم الفرج ، فغضب المنصور وقال له : ما يمنعك من القيام حين رأيتني ؟ قال : خفت أن يسألني الله لم وقفت ؟ و يسألك : لم رضيت ؟ و قد كرهه رسول الله ، فبكى المنصور و قربه و قضى حوائجه[588] . و عمل عافية بن زيد[589]* للمهدي على القضاء سنة 161هـ ــ 778م و حضي به حتى وصف بأنه كان كثير الدخول عليه و المجالسة له ، فدخل عليه في أحد الأيام و طلب أن يعفيه من القضاء و علل طلبه بفساد الناس و استشراء الرشوة فأعفاه[590] .

و قضى له أيضا محمد بن عبد الله بن علاثة[591]* على قضاء الجانب الشرقي ببغداد ، و كان ابن علاثة صديقا لسفيان الثوري فاستأذن عليه مرة يزوره فقال له سفيان : « ... يا ابن علاثة ألهذا كتَبْتَ العلم ؟ ...» و عاتبه عتابا قاسيا[592].

و كان عثمان بن طلحة[593] « ... محمود السيرة و جميل الذكر...» و قد عرض عليه القضاء فامتنع ثم قبل خوفا من التهديد و رفض أخذ رزقه منه مدة عشرة أشهر حتى قدم

---

[584] المصدر نفسه ، ج 3 ، ص ص : 142 ــ 143

[585] القرشي : الجواهر ، المصدر السابق ، ص : 177

[586] * **يحي بن حمزة** : كان محدثا تولى قضاء دمشق بأمر من المنصور ، مات سنة 197 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 469

[587] * **الفرج بن فضالة** : من أهل الشام ، توفي سنة 179 هـ .ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 330

[588] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص ص : 393 ــ 394

[589] ***عافية بن يزيد:** من أصحاب أبي حنيفة ، تولى لقضاء للمهدي .ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص 330:

[590] المصدر نفسه ، ج 12 ، ص : 309

[591] * **ابن علاثة** : من أهل حران ، قدم بغداد فولاه المهدي القضاء . ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 323

[592] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 389

المهدي حاجا فسأله أن يعزله ، فقال المهدي : « ... ليس من ذلك سبيل ، فقال عثمان : يا أمير المؤمنين و الله لو علمت أن ملك الروم يُجِيرُني و لا يَمْنعني من الصلاة لاستَجرت به ، فقال له المهدي و إنَّك لعلى ما قلتَ ؟ قال : و الله لعلى ما قُلتُ ، قال : فإني قد عزلتك فاقبض ما لك عندنا من الرّزق ، قال : ما لي عنه غِنًى و لكنه كان لي نُظَرَاء و أَشْبَاه يكرهون هذا العمل ما أكره، ثم أُكْرِهوا عليه فلمَّا عُزِلوا كرهوا العزل ، فلم يكن لهم في كراهتهم العزل إلا هذا الرزق ، فلذلك كرهت أخذه ...»[594].

و قد ولي القاسم بن معن[595] قضاء الكوفة بعد شريك ، و لم يأخذ عن القضاء أجرا[596]. و وصف حفص بن غياث بالزهد و الفضل و يذكر عنه أنه قال لرجل : « ... أتريد أن تكون قاضيا ، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينه فيقتلعها خير له من أن يكون قاضيا ... » و قال : « ... لو رأيت أني أُسَرُّ بما أنا فيه لهلكت ...» . و قال : « ...إنَّ من صُنْع الله للقاضي أن يموت على غير قضاء ، فمات على غير القضاء ... »[597] ، و قد بكى ولده عليه عند وفاته خوفا عليه مما دخل فيه من القضاء ، فرد عليه حفص بأنه لا يخشى ذلك لأنه لم يفارقه الحق في حكم قضاه ، و قد حدث أن طلبه الخليفة و هو في مجلس القضاء بين الخصماء فلم يقم حتى انتهى من عمله « .. و مرض خمسة عشر يوما فلم يأخذ أُجْرَتَها ...»[598] .

و حدث أن كتب الواقدي رقعة إلى المأمون يشكو له فيها غلبة الدين و قلة المال ، فوقع المأمون على ظهرها : « ... فيك خُلَّتان ؛ السَّخاء و الحياء ، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما مَلَكْتَ و أما الحياء فهو الذي منعك من اِطْلاعِنا على ما أنت عليه ، و قد أمرنا بكذا و كذا ،

---

[593] **عثمان بن طلحة** بن عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان بن عمرو بن كعب التيمي: من أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولي قضاء المدينة وكان محمود السيرة جميل الذكر وورد بغداد في خلافة المهدي. المصدر نفسه ، ج 11 ، ص: 275

[594] المصدر نفسه ، ص : 276

[595] **القاسم بن معن** : الفقيه المجتهد قاضي الكوفة ومفتيها في زمانه أبو عبد الله الهذلي المسعودي الكوفي ولد بعد سنة 100هـ توفي سنة 175هـ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 190

[596] وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 177

[597] وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 186

[598] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 189

فان كنا أَصَبْنا إِرَادَتَك في بَسْط يدَك فان خَزَائِن الله مفتوحـــة ...»[599]. ثـــم تـــولى القضـــاء للمأمون أربع سنين حتى مات سنة 211 هـــ ـــ 826م[600].

و تولى بشر بن الوليد[601]* القضاء للمأمون و المعتصم و المتوكل ، و وصفه الذهبي و هـــو يزكيه بأنه : « ... العالم العلامة المحدث الصادق ، قاضي العراق ... »[602] و قد حصـــلت له محنة عهد المعتصم ، سببها اعتراضه عن القول بخلق القرآن فحبسه المعتصم بـــداره و وكل ببابه من يحرسه و لم يتم إطلاقه الا عهد المتوكل[603]. و قد وصف بالعـــدل و تحـــري الحق و صلابة الدين ، فوصفه أحد الشعراء بقوله :

نَامَ القُضَاةُ عَنِ الأَنَامِ وعَيْنُ بِـــشْر لَمْ تَنَمْ[604]

ـــ البحر البسيط ـــ

و تولى أبو إسحاق الزهري[605] قضاء بغداد فبقي سنة في منصبه ثم صرفه الواثق لامتناعه عن إقراضه أموال اليتامى و قال له بحدة : « ... لا و الله و لا حَبَّة ، فعزله ، و رده إلـــى قضاء الكوفة ... »[606]. و يروى عن أحمد بن محمد بن عاصم[607] أنه تولى قضاء أصـــبهان ثلاث عشرة سنة ، قال : « ... وصَل إليَّ منذ دخلت في إلى أصبهان من دراهـــم القضـــاء زيادة على أربع مائة ألف درهم ، لا يحاسِبُني الله يوم القيامة أني شربت منها شربة مـــاء أو لبست منها ... » . و كان أحمد هذا من مريدي أبي تراب النخشبي الصوفي يطلـــب عنـــده علوم التصوف ، فكان ابو تراب كثيرا ما يداعبه و يقول له : « ... كَمْ تَشْقَى لا يجيء منك إلّا قاضي ، وكان بعدما دخل القضاء إذا سأل في مسائل الصوفية يقول : القضاء و الـــدنيا و

---

[599] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 19

[600] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 457

[601] * **بشر بن الوليد** : من أصحاب أبي حنيفة ، ولي القضاء ببغداد و توفي بها في عهد المتوكل .
ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 356

[602] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 673

[603] المصدر نفسه ، ج 10 ، ص : 674

[604] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 82

[605] **أبو إسحاق الزهري** إبراهيم بن إسحاق بن أبي العنبس القاضي الكوفي وولي قضاء مدينة المنصور بعد أحمد بن محمد بن سماعه وكان ثقة خيراً فاضلاً ديناً صالحاً . المصدر نفسه ، ج 13 ، ص : 199

[606] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[607] **أحمد بن محمد بن عاصم** سكن بغداد وحدث بها كان ثقة من أهل الفهم والأدب عالماً بالنسب مات في سنة 333هـــ
المصدر نفسه ، ج 13 ، ص : 433

الكلام في علم الصوفية مُحُال... »[608]. و كان أحمد بن بديل الكوفي[609] يسمى راهب الكوفة لعبادته و زهده ، فلما تولى القضاء قال : « ... خُذِلْتُ على كِبَر السِّن ... »[610].

لقد استطاع هؤلاء الفقهاء الاحتفاظ بقدر ما من الاستقلالية في إدارة ما تحملوه من وظائف و أعمال في وجه السلطة و الضغط و الإكراه رعاية للشريعة التي كانوا يعتبرون أنفسهم نوابا عليها ، لكن ما كان ذلك ممكنا لو لم يحدث نوع من غض الطرف إن لم نقل دعما مارسه بعض من الخلفاء و رجال الدولة حتى تحفظ الدولة وجهها الإسلامي في وجه الانتقادات التي كانت ترفعها المعارضة بجميع أطيافها .

ومن الذين تولوا وظائف للدولة و تورطوا في المخالفات الشرعية و الخضوع لرغبات وأهواء رجال الدولة غياث بن إبراهيم ، فقد وفد على المهدي في عشرة من المحدثين ،و كان المهدي يحب اللعب بالحمام و يشتهيه فأدخل عليه غياث فقيل له حدث أمير المؤمنين فحدث بحديث أبي هريرة « لا سبق إلا في حافر أو نصل » فزاد غياث في الحديث : و لا جناح فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم ، فلما قام قال المهدي : « ... أَشْهَدُ أَنَّ قَفَاكَ قفا كَذَّاب على رسول الله و أنا اِسْتَحْلَلْتُ ذلك ، فأمر بالحمام فَذُبِحَت و قال : من أجلها كذب هذا على رسول الله .. فما ذكر غياثا بعدها ...»[611].

و اتهم أبو البختري القاضي[612]* بأنه يضع الحديث عن الثقات و هذه تهمة كبيرة تمس أمانته العلمية و الخلقية كإنسان فكيف و هو قاضي؟[613] .

و قد حكى عبد الرحمن بن مسهر[614] عن نفسه قال : ولاني أبو يوسف القاضي قضاء جبل[615] فانحدر الرشيد إلى البصرة ، فسألت من أهل جبل أن يثنوا علي ، فوعدوني أن

---

[608] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[609] **أحمد بن بديل الكوفي** كان من أهل العلم والفضل ولي قضاء الكوفة قبل إبراهيم بن أبي العنبس وتقلد أيضاً قضاء همذان وورد بغداد وحدث بها . توفي سنة 258 هـ . الذهبي : الميزان ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 85

[610] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[611] السيوطي ، تاريخ ، المصدر السابق ، ص : 275

[612] * **أبو البختري** : وهب بن وهب ، من أهل المدينة ثم نزل الشام و قدم بغداد فولاه الرشيد القضاء ، توفي سنة 200 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 332

[613] الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج1 ، ص : 360

يفعلوا ، فلما قرب تفرقوا وأيست منهم ، فسرحت لحيتي وخرجت فوقفت ، فوافى أبو يوسف مع الرشيد في الحراقة ، فقلت : يا أمير المؤمنين نِعْمَ القاضي قاضي جبل ، قد عدل فينا وفعل ، وجعلت أُثْنِي علي نفسي ، فطَأْطَأَ أبو يوسف رأسه وضحك ، فقال له هارون : مم ضحِكْتَ ؟ فأخبره فضحك حتى فَحَصَ برجليه ، ثم قال : هذا شيخ سخيف سِفْلَة فاعزله فعزلني ، فلما رجع جعلْتُ أَخْتَلِف إليه وأسْأَلُه قضاء ناحيةٍ فلم يفعل ، فحدثت الناس عن الشعبي أنّ كُنْيَةَ الدّجّال أبو يوسف ، فبلغه ذلك فقال : هذه بتلك ، فَحَسْبُك فَصِرْ إلــيَّ حتى أولّيك ناحية ، ففعل وأمسكت عنه[616].

---

[614] **عبد الرحمن بن مسهر:** كان على قضاء الجبل ، يوصف بخفة العقل ، و لم يسلم من قدح المحدثين . الذهبي : الميزان ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 590 ــ 591

[615] **الجبل** : ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة . الحموي : المعجم ، ج 2 ، ص : 99

[616] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

شريك بن عبد الله النخعي القاضي[617]:

لا نملك معلومات وافرة حول طفولته عدا النص الذي دونه صاحب " أخبار القضـاة " و الذي جاء فيه أن شريك مر بأحد معارفه فجلس إليه فسأله : يا أبا عبد الله من أدبك قـال : أدبتني نفسي والله ، ولدت ببخارى من أرض خراسـان، فحملني ابن عم لنا حتى طرحنـي عند بني عم لي بنهر صرصر[618]، فكنت أجلس إلى معلم لهم تعلق بقلبي يعلم القرآن ؛ فجئت إلى شيخهم فقلت : يا عماه الذي كنت تجري علي ها هنا أجره علي بالكوفة أعرف بهـا السنة والجماعة وقومي ، ففعل ؛ قال فكنت بالكوفة أضرب اللبن وأبيعه فأشتري دفـاتر و طروساً فأكتب فيها العلم والحديث ، ثم طلبت الفقه[619].

ورغم فقره و قلة ذات يده إلا أنه كان يتمتع بهمة عالية و طموحا كبيرا لم يكن يخفى على من يراقب أحواله ، فقد جاء في بعض الأخبار أن أعرابي رأى أم شريك وهي على حمـار وشريك صبي بين يديها ، فقال: إنك لتحملين جَندلة من الجنادل[620].

والنص الأول صريحا في بيان بعض السمات التي تميز بها شريك و عرفت عنه و ظـل متخلقا بها طيلة حياته وهي : التزامه بمـنهج السنة و الجماعة من حيث العقيدة ، و يـذهب

---

617 العلامة الحافظ ، القاضي أبو عبد الله النخعي ، أحد الأعلام ، ولد سنة 95 هـ . وقيل سنة 96 هـ ، ببخارى من أرض خراسان، ثم انتقل إلى الكوفة و أدرك خلافة عمر بن عبد العزيز ، و مات بالكوفة في أول شهر ذي القعدة سنة 179هـ ، عاش ثلاث وثمانين سنة . أنظر
ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 464. الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 86 .
وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 150 . ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 378
الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 202. ابن الأثير : الكامل ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 97 . و فيه أن موته كان سنة 177 هـ .

618 **نهر صرصر**: صرصر قريتان في بغداد صرصر العليا و صرصر السفلى وهما على ضفة نهر عيسى وربما قيل نهر صرصر فنسب النهر إليهما وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين . الحموي : المعجم ،المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 401

619 وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 150 ـ 151

620 الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 206

في مسألة التفضيل بين الصحابة إلى تأكيد أفضلية الإمام علي كذا تعصبه الشديد للعنصر العربي كما سيأتي في السطور التالية .

وظل شريك في الكوفة يتلقى علوم الدين من أفواه علمائها ، و يملأ واعيته من تاريخ و مآثر قومه بني النخع ، معجبا بالجو العلمي الذي كانت تعج به الكوفة ، و يستعيد ما كانت عليه في الماضي : « ... قال شريك .. عن محمد بن سيرين، قال: أدركت بالكوفة أربعة آلاف شاب يطلبون العلم ... »[621] . و مضى في طريق العلم يشحذ ذاكرته و يملأها على طريقة أهل عصره في عدم الاتكال على الكتابة و لا على الصحف ، خشية التصحيف و ضياع العلم ، و قد حدث أن حمل مائة حديث عن بعض المحدثين و كان معه سفيان الثوري يسمع ، فلما فرغ قال له سفيان: أرني قرطاسك ، فأعطاه إياه فخرقه ، قال شريك : « ... فرجعت إلى منزلي فاستلقيت على قفاي ، فحفظت منها سبعة وتسعين حديثا ، وحفظها سفيان كلها ... »[622] .
و قد روى ابنه أنه كان عنده عن جابر الجعفي و هو أحد كبار المحدثين عشرة آلاف مسألة وأخذ عن ليث بن أبي سليم : عشرة آلاف مسألة[623].
و قد استطاع شريك أن يحيط بعلم الكوفة حتى وصف بأنه كان أعلم بحديث بلده من سفيان الثوري ، و قد قال عيسى بن يونس فيه : ما رأيت أحدا أورع في علمه من شريك[624] . و قال محدث آخر[625]: أعلم أهل الكوفة سفيان ، وأحضرهم جوابا شريك[626] . و شهد له ابن المبارك بقوله : شريك أعلم بحديث بلده من الثوري . فذكر هذا لابن معين ، فقال : ليس يقاس بسفيان أحد لكن شريك أروى منه في بعض المشايخ . و ترفعه روايات أخرى إلى مصاف كبار رجال العصر من علماء المسلمين ؛ فقد ذكر أحد المحدثين[627] أن جماعة من العلماء تكلموا في أهم رجال العصر: « ... فقالوا: مَن رجل الأمة فقال قوم: ابن لهيعة .

---

[621] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 208

[622] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 214

[623] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 202

[624] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 203

[625] هو المحدث عبد الرحمن بن يحي العذري . االمصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 205

[626] ا المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[627] علي بن الحسين بن الجنيد الرازي ، لم أعثر له على ترجمة ، يرد اسمه في نص الذهبي . المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 208

وقال قوم : مالك ، فقدم علينا عيسى بن يونس، فسألنـــاه فقـــال : رجل الأمـــة شـــريك ، وكـــــان شـــــــريك يومئـــــــذ حيـــــــا...»[628] .

و تهمنا في هذا الصدد شهادة أحمد بن حنبل نظرا للمكانة التي يحتلها داخل اتجاه أهل السنة و دقته في نقد الرجال فقد جاء عن أحد تلامذته :« ... سألت أحمد بن حنبل عـن شـريك ، فقال: كان عاقلا، صَدُوقا، مُحَدِّثا، وكان شديدا على أهل الرِّيَب والبِدَع ...»[629]

لقد سبقت الرواية التي يتحدث فيها شريك عن نفسه في أيام صباه لما قرر الارتحال إلـى الكوفة ، و جاء فيها أنه أراد أن يأخذ العلم وفقا لمذهب أهل السنة و الجماعة ، و تم له ذلك لكنها السنة على طريقة الكوفيين ، حيث يمازج الهوى العلوي الاتجاه السني و حيث لا يجـد أي طاعن على فقهاء الكوفة أي صعوبة في أن يتهم من أراد بالتشيع و مفارقة السنة ؛ الأمر الذي حدث لشريك ذاته ، فرغم وضوح آرائه في المسائل الكبرى التي وقع فيها الخلاف بين السنة و الشيعة إلا أن هذه التهمة لاحقته :« ... قال حفص بن غياث : سـمعت شـريكا يقول : قُـبض النبي صلى الله عليه وسلم و استخار المسلمون أبا بكر ، فلو علموا أن فيهم أحدا أفضل منه كانوا قد غَشُّـونا ، ثم استخلف أبو بكر عمـرَ .. فلمـا حضـرته الوفـاة جعـــل الأمر شورى بين ستة فاجتمعوا على عثمان . فلو علموا أن فيهم أفضـل منـه كانوا قد غشونا . فعرض قوله هذا على عبد الله بن إدريس[630] ، فقال : الحمد لله الذي أنطق بهذا لسـانه ، فوا لله إنه لشيعي وإن شريكا لشيعي ...»[631] . و يعرض الذهبي رواية لـرأي شريك في تفضيل عثمان نصها :

« ... قال أبو نعيم : سمعـت شريكا يقول : قدم عثمان يوم قدم ، وهو أفضـل القـوم ...» فيعلق الذهبي عليها : « ... قلت : ما بعد هـذا إنصـاف مـن رجـل كـوفي ...»[632] . لـكن النصوص التي توضح رأي شريك في هذه المسائل كثيرة ، وجـلها يـدور حـول المعنى الذي يؤكده أهـل السنة و إن ظلت مشاعره كعادة أهل الكوفة مشـدودة للإمـام علي . الأمر الذي أفرز اعترافات تبدو متناقضة : « ...قـال ابن عيينة : قيل لشريك : مـا

---

[628] ا المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[629] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 209

[630] **عبد الله بن ادريس** :أحد كبار المحدثين ولد سنة 115هـ و توفي سنة 192هـ ، المصدر نفسه ، ج 9 ، ص : 46

[631] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 209

[632] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 202

تقول فيمن يفضل عليا على أبي بكر ؟ قال : إذًا يَفتضح ، يقول : أخْطَأ المسلمون . ..»[633]. « ... لقي عبدُ الله ابن مصعب الزبيري شريكا ، فقال : بلغني أنك تَنَالُ من أبي بكر وعمر . فقال شريك : والله ما أَنْتَقِصُ الزّبير ، فكيف أنال من أبي بكر وعمر ؟...»[634].

و جاء في رواية أحد أصحابه : « ... قلت لشريك : أرأيت من قال : لا أفضّل أحدا . قال : هذا أحمق ، أليس قد فُضِّل أبو بكر وعمر؟ ...»[635]

أما الروايات الأخرى التي تهدف إلى الطعن في سنية شريك و تزرع الشك في انتمائه السني فأهمها ما ورد عن بعض المحدثين[636] : «... أنه سمع شريكا يقول : عليّ خير البشر ، فمن أبى فقد كفر...»[637] . و يعلق الذهبي على هذا الخبر: « ... قلت : ما ثبت هذا عنه . ومعناه حق . يعني : خير بشر زمانه ، وأما خيرهم مطلقا ، فهذا لا يقوله مسلم ... »[638]. وقد ساورت هذه الشكوك بعض المحدثين فتوقفوا في قبول روايته بحيث كان : « ... يحيى لا يحدث عن شريك وكان عبد الرحمن بن مهدي يحدث عنه... »[639].

علاقته بالدولة :

و لقد دخل شريك في ولاية القضاء على عهد المنصور سنة 153 هـ ــ 770م [640] و بأمر منه و ظل فيها لحين خلافة المهدي فأقره عليها مدة ثم عزله ، و قد جاءت روايات مختلفة في عرض ملابسات قبوله هذا العمل و كلها تدور حول امتعاض شريك من الدخول في سلك القضاة ، لكنه لم يجد في الأخير إلا الرضوخ لرغبة المنصور ، و قد شدد المنصور عليه و لوح له بالتهديد إن لم يقبل ، فجلس شريك قاضيا مرغما في البداية ، لكنه استطاب الوظيفة و اعتادها للحد الذي رفض فيه وساطة من أراد أن يطلب له الإعفاء لدى المهدي .و

---

[633] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 204

[634] ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 465

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 206

[635] الذهبي : المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 205

[636] هو ابو داود الرهاوي حسب ما يرد في النص

[637] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[638] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[639] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 208

[640] الطبري : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 284. ابن الأثير : الكامل ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 37

يبدو أن لشريك قبل دخوله الرسمي في القضاء على عهد المنصور مكرها سابقة في عرض المنصب عليه ، إذ جاء في إحدى الروايات ما يلي : «...لما وُجِّه شريك إلى قضاء الأهواز ، جلس على القضاء ، فجعل لا يتكلم حتى قام ، ثم هرب واختفى . ويقال : إنه اختفى عند الوالي .. قال الحسن بن عمارة حين بلغه أن شريكا هرب: الخبيث اِسْتَصْغَرَ قضاء الأهواز... »[641]

و واضح في هذه الرواية شك ابن عمارة في خلوص نية شريك و ورعه ، و فهم من تصرفه أن شريك يطمح للقضاء في مصر من الأمصار الكبيرة ، حيث للقاضي هيبته و أهميته و اقترابه من دوائر السلطة و القرار ، و هي طريقة تفكير كل من يتملكه طموح سياسي أو اجتماعي ، ولا يستبعد أن يكون مثل هذا الطموح قد ساور شريكا و قد عرف عنه منذ شبيبته علو همته و اعتداده بنفسه و قومه .

و يحكي شريك قصة توليه القضاء فيقول : « ... حُمِلْتُ إلى أبي جعفر، فقال لي : قد وَلَّيْتك قضاء الكوفة . فقلت : لا أُحسِن . فقال : قد بلغني ما صَنَعْت بعيسى ، والله ما أنا كعيسى . يا ربيع ، يكون عندك حتى يقبل ، فخرجت مع الربيع ، فقال : إنه لا يُعْفِيك . فقبلت ... » [642].

وجاء في رواية أخرى ما يعضد رواية شريك : « ... دعا المنصور شريكا ، فقال : إني أريد أن أوليك القضاء ، فقال : أعفني يا أمير المؤمنين . قال : لست أعفيك . قال : فأنصرفُ يومي هذا ، وأعود ، فيرى أمير المؤمنين رأيه . قال : تريد أن تَتَغَيَّب ، ولئن فعلت لأقدمن على خمسين من قومك بما تكره ، فَولاه القضاء . فبقي إلى أيام المهدي ، فأقره المهدي ، ثم عزله ... »[643] . و واضح من هاتين الروايتين أن شريك كان مخلصا في رفضه للقضاء في البداية و أنه لم يكن يتكلف الرفض ، لكنه أيضا لم يكن حازما و لا جادا بما فيه الكفاية أمام إصرار المنصور و جديته ، الأمر الذي كان يختلف عن ما سبق التعرض له في مواقف سفيان الثوري أو أحمد و من هم على شاكلتهما . و الرواية التالية

---

[641] وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 153
الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 207
[642] وكيع : اخبار ، المصدر السابق ، ج3 ، ص : 151
الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 206
[643] الذهبي : المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 213
ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 379

تجلي الاستعداد المسبق لديه للقبول بالوظيفة : « ... لما دعا أبو جعفر شريكاً ليوليه القضاء قال ممن أنت قال من النّخْع[644] .. قال: قد وليتك قضاء الكوفة ، قال : يا أمير المؤمنين إني إنما أنظر في الصلاة والصوم، فأما القضاء فلا أحسنه، قال : اذهب .. فَأَنْفِذ ما أحسنت وتَكْتُب إلي فيما لا تحسن ... »[645] .

إن شيئا من الرغبة في النفوذ والوجاهة يلوح في شخصية شريك ؛ خاصة عند مطالعة ترجمته الحافلة في كتاب " أخبار القضاة " ، و نفترض بناء عليها أن شريكا عاش قلقا داخليا بين القبول و الرفض ، و أن الرفض كان مؤسسا على ميراث الفقهاء و المحدثين الحافل بمعاني التجريم و الإدانة لمن تسول له نفسه الوقوع في قبضة السلطة . و يرد عند وكيع نصا بالغ الأهمية في دعم هذه الفكرة ، جاء فيه أن : « ... إسحق بن عيسى، قال لما ولي المنصور شريكا قضاء الكوفة أتى أبي فقال له : استَعْفِ لي أمير المؤمنين فقال له : إني لأَعْزَل من ذاك ، إن أمير المؤمنين لا يُرَدّ عن عَزَمَاتِه ، فلما توفي المنصور وولي المهدي قال له أبي : إنك كنت سألتني أن أستعفي لك أمير المؤمنين فأبيتُ عليك ، وأمير المؤمنين أَلْيَنُ جانباً وأحْرى أن يجيبنا إلى ما نسأله، فإن شئت استعفيته، فقال: أما الآن فإني أكره شماتة الأعداء ...»[646].

ولعل الذي خشيه شريك من استنكار بعض من الفقهاء الكبار قد وقع له ؛ حيث يورد ابن خلكان نصا طويلا يكشف عن رأي سفيان الثوري في قبول شريك القضاء[647]. لكن نتيجة

---

[644] النخع : قبيلة عربية كبيرة و شهيرة سكن عدد كبير من أفرادها الكوفة .

[645] وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 150

[646] المصدر نفسه ، ج 3 ، ص : 153

[647] « ... لما ولي شريك القضاء أكره على ذلك وأقعد معه جماعة من الشُّرَط يحفظونه ، ثم طَابَ للشيخ فقعد من نفسه فبلغ سفيان الثوري انه قعد من نفسه ، فجاء فَتَراءى له فلما رأى الثوري قام إليه فعظمه وأكرمه ، ثم قال : يا أبا عبد الله هل من حاجة ؟ قال : نعم مسألة ، قال : أو ليس عندك من العلم ما يجزئك ، قال : أحببت أن أذكرك بها ...» و تمضي الرواية تعرض الحوار بينهما : « ... قال : قل ، قال : ما تقول في امرأة جاءت فجلست على باب رجل فاحْتَمَلها فَفَجَر بها لمن تَحُدّ منهما ؟ فقال : الرجل دونها لأنها مغْصُوبة ، قال : فإنّه لما كان من الغد جاءت فتزيَّنت وتَبَخّرت وجلست على ذلك الباب ، ففتح الرجل فرآها فاحتملها ففجر بها ، لمن تحد ، قال : أحدهما جميعا لأنها جاءت من نفسها ، وقد علمت الخبر بالأمس ...» و هنا يصل سفيان للمعنى الذي كان يقصده :

« ... قال : أنت كان عذرك حين كان الشرط يحفظونك ، اليوم أي عذر لك ؟ قال : يا أبا عبد الله أكلمك ، قال : ما كان الله ليراني أكلمك ، أو تتوب . قال ووثب فلم يكلمه حتى مات وكان إذا ذكره قال أي رجل كان لو لم يفسدوه...».

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 465 ــ 466

هذا الموقف المحرج لم تكن استقالته و إنما استمر في عمله ، و معالجة خوفه من الخطأ بطلب الدعاء : «... لما ولي شريك القضاء كان من دعا له أو أَثْنَى عليه زَبَرَه ، فلما خَبَرَ القضاء جعل من يدعو له يسكت ، ومن يثني عليه ، فيقول: الدعاء الدعاء ... »[648]. و هذه حال من أحس أنه في ورطة .

ولا بد أن أمر قبوله بولاية القضاء ظل محل تداول بين أصحابه و مقربيه ، حيث كان يجد نفسه مرغما على تبرير مسلكه من خلال دعوى الإكراه : «... قال شريك لبعض إخوانه أُكرهتُ علي القضاء ، قال : فأكرهتَ علي أخذ الرزق ؟... » .

وبعد وفاة المنصور و تولي المهدي ، تكرر ذات الأمر لشريك لكن استجابته كانت نفسها :

« ... قيل : إن شريكا أُدْخِلَ على المهدي ، فقال : لا بد من ثلاث : إما أن تلي القضاء ، أو تُؤَدّب ولدي وتحَدّثهم ، أو تأكل عندي أكلة . ففكر ساعة ، ثم قال : الأكلة أخف علي، فأمر المهدي الطباخ أن يصلح ألوانا من المُخ المعقود بالسكر وغير ذلك ، فأكل . فقال الطباخ : يا أمير المؤمنين ، ليس يفلح بعدها . قال: فحدثهم بعد ذلك ، وعلَّمَهم ، وولي القضاء . ولقد كتب له برزقه على الصَّيْرَفي، فضايقه في النَّقْد، فقال: إنك لم تَبِع به بَزًّا . فقال شريك: والله بعت أكبر من البز، بعت به ديني ... » [649] . ولقد أوردت هذا النص رغم طوله و رغم أنني أتشكك في صحته لأنه يعرض ولاية شريك للقضاء في عهد المهدي و كأنها البداية ، لكن مضمون النص مهم في إضاءة مسألة استدراج الخلفاء و رجال الدولة للفقهاء و الوسائل التي أُتّبِعت في ذلك .

و قد جاء في بعض الروايات أن استقصاء شريك في ولاية المهدي جاء بعد عرضها على سفيان الثوري و رفضه إياها ؛ الأمر الذي كرس في الاستنكار عليه تبعا للرواية التالية :

« ... و قد قرر المهدي تولية سفيان الثوري على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم فكتب عهده ودفع إليه فأخذه وخرج ، فرمى به في دجلة وهرب فطلب في كل بلد

---

[648] وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 154

[649] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 207

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 465

فلم يوجد ، ولما امتنع من قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبد الله النخعي ، قال الشاعر:

تحرَّزَ سفْيانُ وفَرَّ بدينهِ وأَمْسى شَريكًا مرْصَدًا للدَّراهمِ[650]

ــ البحر الطويل ــ

إذن لقد استمر شريك في العمل بعد وفاة المنصور في ذات المنصب و ظل استنكار الرافضين لهذا الأمر يلاحقه فلم يسلم من الغمز الأقرب للاستهزاء و النكتة والتعريض به في بعض الأحداث التي تحدث لمن يشتغل لدى الدولة : « ... كان شريك على قضاء الكوفة فخرج يتلقى الخيزران ، فبلغ شاهي وأبطأت الخيزران ، فأقام ينتظرها ثلاثا ، وييبس خبزه فجعل يبله بالماء ويأكله ، فقال أحد الشعراء:

فَإن كَانَ الذي قدْ قلتَ حقًا بأنْ قد أكْرهوكَ على القَضاءِ

فَمالَكَ مُوْضِعًا في كل يومٍ تَلَّقَى من يَحُجُّ من النساءِ؟

مُقيمًا في قُرَى شاهي ثلاثًا بلا زادٍ سِوى كِسْرٍ وماءِ[651]

ــ البحر الوافر ــ

وحصل عند المهدي على مكانة جليلة ؛ لكنها لم تسلم من الاضطراب و الاهتزاز ، و قد تسرب لدى المهدي شك و ارتياب في مدى ولاء شريك للدولة و حامت حول هواه العلوي شكوك ارتفعت لمستوى التهمة السياسية ، و أخذ المهدي في تقريره و مساءلته و قد « ... دخل شريك على المهدي فقال له : ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين ، قال : ولم ؟ قال : لِخِلافِك على الجماعة وقولِكَ بِالإِمَامة ، فقال : أما قولك لخلافك على الجماعة فعن الجماعة أخذت ديني فكيف أخالفهم وهم أصل ديني ؟ وأما قولك بالإمامة فما أعرف إلا كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ، وأما قولك مثلك لا يقلد الحكم بين المسلمين فهذا شيء أنتم فعلتموه ، فإن كان خطأ فلتستغفروا الله منه ، وإن كان صوابا فأمسكوا عليه ...» . و تمضي الرواية يقرر فيها المهدي شريكا على طريق الاستنطاق البوليسي و تنتهي بأن : «... سكت المهدي وأَطْرَق ، ولم يمض بعد هذا المجلس إلا قليل حتى عُزِل شريك ... » [652] .

---

[650] ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 390

[651] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 205

[652] ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 467 .

والحقيقة أن شريك رغم دخوله فيما حذره منه سفيان و أصحابه و رغم الخضوع لمقتضيات العمل الرسمي في الدولة من سلوكات قد تمس هيبة العلماء إلا أنه لم يكن من الصنف الذي يقبل الإهانة لما تمس الدين و هيبة العلم ، فقد حدث و هو قاضي للمهدي :

« ... أَنْ أتاه بَعْض ولدِ المهدي ، فاسْتَنَد ، فسأله عن حديث ، فلم يلتفت إليه ..، ثم أعاد ، فعاد بمثل ذلك . فقال : كأنك تستَخِف بأولاد الخليفة . قال : لا ولكن العلم أَزْيَن عند أهله مِنْ أن تضيعوه . قال : فَجَثَا على ركبتيه ، ثم سأله، فقال شريك : هكذا يُطْلَبُ العلم... »[653]

ورغم الجاه الذي كان عليه شريك في الكوفة و المنعة التي أحاطه بها العرب[654]؛ إلا أنه فضل أن يظل كما كان قبل توليه القضاء من بساطة في العيش و عدم تكلف ، قال عيسى بن يونس :« ... ما رأيت في أصحابنا أشد تقشفا من شريك ، ربما رأيته يأخذ شاته ، يذهب بها إلى الناس .. وربما دخلتُ بَيْتَه ، فإذا ليس فيه إلا شاةً يحلبها ومَطْهَرَةً ، وباريَّة وجَّرة ، فربما بلَّ الخبز في المطهرة فيلقي إليَّ كتبه ، فيقول : أكتب حديث جدك و من أردت ... »[655].

و قد انتهت حياة شريك في القضاء في عهد المهدي ، و يبدو أن قرار العزل جاء نتيجة ارتياب مسَّ ولاءه السياسي ، فقد حامت شكوك كثيرة حول العاطفة التي كان يكنها شريك لآل البيت ؛ و لابد أن الأمر لم يكن مقتصرا على مجرد العاطفة لأن أهل الكوفة عموما ؛ سنة وغير سنة ، كان يسكنهم الولاء للإمام علي و ذريته، و إنما من الوارد أن التهمة كانت احتمال أن يكون لشريك علاقة ما بتنظيم سياسي علوي ما . و الرواية التالية التي رواها أحد شهود عيان[656] تشير إلى ذلك : « ... كنت شاهدا حين أدخل شريك ، ومعه أبوأمية[657]، وكان أبو أمية رَفَعَ إلى المهدي أنَّ شريكا حدثه عن الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : استَقِيمُوا لِقريش ما اِستَقَاموا لكُم ، فإذا أَزَاغوا

---

[653] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 207

[654] « ... قيل لمحمد بن الحسن: أما ترى كثرة قول الناس في شريك ؟ يعني في حمده مع كثرة خطئه و خطله. قال: اسكت ويحك أهل الكوفة كلهم معه، يتعصب للعرب، فهم معه، و يتشيَّع لهؤلاء الموالي الحمقى فهم معه ... » .

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 214

[655] المصدر نفسه ، نفس الصفحة

[656] هو المحدث نصر بن المجدر ، لم أعثر له على ترجمة

[657] لم أعثر على من يكون أبو امية هذا و يبدو أنه كان من العلماء المقربين للمهدي

عن الحقّ فَضَعوا سيُوفَكم على عَوَاتِقِكُم ، ثم أَبِيدوا خَضْرَاءَهُم ، قال المهدي: أنت حدثت بهذا ؟ قال : لا. فقال أبو أمية : علي المشي إلى بيت الله ، وكل مالي صدقة ، إن لم يكن حدثني ...» . فلجأ شريك إلى الحيلة ليتفادى اليمين : « ... فقال: وعليَّ مثل الذي عليه إن كنتُ حدثته . فكأن المهدي رضي. فقال أبو أمية : يا أمير المؤمنين ، عندك أدْهَى العرب ، إنما يعني مثل الذي عليَّ من الثياب . قل له يحلف كما حلَفْتُ . فقال : أحلف . فقال شريك : قد حدَّثته . فقال المهدي : وَيْلي على شارب الخمر ـ يعني الأعمش ـ اليهودي[658] ، قال شريك: لم يكن يهوديا ، كان رجلا صالحا ، قال : بل زنديق ... » فأجابه شريك بحدة معرضا ببعض السلوكات الشائنة للمهدي قال : « ... للزنديق علامات : بتركه الجُمُعَات وجلوسُه مع القِيَان ، وشَرْبُه الخمر. فقال : والله لأقتلك . قال : اِبْتَلاك الله بِمُهْجَتي . قال : أخرجوه ، فأخرج ، وجعل الحرس يشقِّقُون ثيابه ، وخَرَقوا قلنسوته . قال نصر: فقلت لهم : إنَّه أبو عبد الله . فقال المهدي: دعهم... » [659] . و في روايات أخرى يَرِد عزل شريك في سياق تصفية حسابات بينه و بين الربيع صاحب شرطة المهدي ، و لم أجد في الروايات التي اشتغلت عليها علَّة سوء التفاهم بينهما : « ... وكان شريك يشاحن الربيع صاحب شرطة المهدي ، فكان يحمل المهدي عليه ، فدخل شريك يوما على المهدي ، فقال له المهدي : إني لأراك فَاطِميًّا خبيثا ، قال : والله إني لَأُحِب فاطمة وأبا فاطمة قال : وأنا والله أحبهما ولكني رأيتك في منامي مَصْروفا وجهك عني ، وما ذاك إلا لبغضك لنا ، وما أراني إلا قاتلك لأنك زنديق ... » . فاحتدَّ شريك في وجه المهدي وقال : « ... يا أمير المؤمنين إن الدّماء لا تُسْفَك بالأحلام ، وليست رؤياك رؤيا يوسف عليه السلام ، وأما قولك إني زنديق فإن للزنادقة علامة يعرفون بها ، قال : وما هي ؟ قال : شرب الخمور والضَّرْب بالطَّنبور قال : صدقت أبا عبد الله وأنت خير من الذي حملني عليك... »[660] . و لما عزل وجد كثير من مناوئيه فرصة الشماتة به فكان من بينهم موسى بن عيسى ، فتعَرَّضَ له مرة فقال : يا أبا عبد الله ، عزلوك عن القضاء ، ما رأينا قاضيا عُزِل . قال : هم الملوك ، يعزلون ويخلعون يُعَرّض به لأن أباه خُلِعَ من ولاية العهد[661].

---

[658] يقصد الأعمش المحدث المشهور

[659] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 215

[660] ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 466 ـ 467

[661] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 206

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 467

إذن لقد مضى شريك في العمل للمنصور و المهدي رغم ما كان يعانيه من قلق داخلي ، وما كان يجابِهُه به أصحابه و رفقاؤه مِمَّن لم يرض هذا العمل ، و لم ينصرف عن القضاء حتى كانت الدولة هي التي صرَفَتْه ، و بهذا اندرَج شريك ضِمْن الفريق الذي قام بمهمة تَأْصيل جواز العمل للدولة حتى و إن كانت مَنْقوصة الشَّرعية ، و ذلك من موقعه كرجل فقه و حديث و كلسان ناطق بالمعرفة الشرعية

أبو يوسف القاضي :

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حبيش بن سعد الأنصاري الكوفي، قاضي القضاة في أيام هارون الرشيد : «...مَشْهور الْأَمْر ظاهِرُ الفَضْل ، وهو صاحب أبي حنيفة ، رَافَقه آلاف ولم يَتَقَدّمه أحد في زمانه ، وكان النِّهاية في العلم والحُكْم والرِّياسة والقَدْر ، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأَمْلَى المسائل ونشرها وبثَّ علم أبي حنيفة في أقطار الأرض ...»[662]

ولد أبو يوسف في الكوفة سنة 113هـ ـ 731م، وقد نشأ في أسرة فقيرة فطلب الحديث في أول أمره ، ثم لزم أبا حنيفة وتفقه على مذهبه[663] ، ويقال : إن أمه منعته من طلب العلم وأمرته أن يعمل ليكسب لهم رزقاً ، فانقطع عن مجلس أبي حنيفة فترة ، فلما عاد سأله عن انقطاعه فأخبر بالأمر فدفع له أبو حنيفة مائة درهم على أن يلزم حلقة العلم معه وقال : إذا انتهت فأعلمني. وكان أبو حنيفة يتعاهده بالمائة بعد الأخرى، ولذلك تفقه عليه ونشر مذهبه وأحبه حتى كان يدعو له دبر كل صلاة[664].

---

[662] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص : 245

[663] عبد الله المراغي : **الفتح المبين في طبقات الأصوليين** ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، سنة 1419هـ ـ 1999م ،
ج 1 ، ص : 113 .

[664] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 148 .
الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص ص: 244 ـ 245 . أنظره :
« ... عن أبي يوسف قال كنت اطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال فجاء أبي يوما وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه فقال : يا بني لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة فان أبا حنيفة خبزه مشوي ، وأنت تحتاج إلى المعاش . فقصرت عن كثير من الطلب آثرت طاعة أبي ، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلت أتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه قال لي ما الذي أخرك ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي . جلست فلما انصرف الناس دفع إلي صرة وقال : استمتع

وظل بعد وفاة أستاذه منقطعا للحلقة مستفرغا وسعه للعلم ، من غير أن يدخل في أي عمل من أعمال الدولة ، حيث أنجز في هذه الفترة ترتيب مذهب أستاذه في فروع خصصها في كتب فقدم بذلك ما كانت الدولة بحاجة إليه[665] .

لم كن عيش أبي يوسف في هذه الفترة ميسورا ، و وصل به الفقر إلى بيع سقف بيت زوجته[666] و تعرض لعتاب شديد من حماته ، الأمر الذي قد يكون وراء توجهه إلى بغداد سنة 166هـ ، فقابل الخليفة المهدي فعينه قاضيا على شرق بغداد فبقي في المنصب إلى غاية خلافة الهادي ، و لما تولى الرشيد أكرمه و رفعه لمرتبة قاضي القضاة فكان منصبا مستحدثا في الإسلام تولاه لمدة ستة عشر عاما .

و قد كان لنيله هذا المنصب نتائج هامة منها :

ـ تمكينه من توسيع نطاق المذهب عبر المواجهة المباشرة مع مختلف القضايا و الوقائع التي تحتاج فصلا عمليا إجرائيا .

ـ نشر المذهب الحنفي و التمكين له من خلال ما خوله له منصبه فعمل على تعيين القضاة من بين المنتسبين لمذهبه .

ـ استطاع إلى حد ما بعلمه و هيبته و عظيم مكانته لدى الرشيد بخاصة أن يراقب تطبيق الشريعة في أكثر من مجال في دوائر الحكم . وكان إلى جانب اضطلاعه بهذه المهام يواصل مهمته العلمية و التعليمية ، فتصدر في بغداد للإفادة و الرواية ، حيث أخذ عنه العلم زميله محمد بن الحسن الشيباني ، وبشر بن الوليد الكندي[667]* ، وأحمد بن حنبل ويحيى بن

بهذه فنظرت فإذا فيها مائة درهم فقال لي : ألزم الحلقة وإذا نفذت هذه فأعلمني . فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى ، ثم كان يتعاهدني وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاذ شيء .. حتى استغنيت وتمولت ...» .

[665] وقد مضى وصفه بأنه : « ... **وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأملى المسائل ونشرها** وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض ... » الخطيب : المصدر نفسه ، 14 ، ص : 245

[666] سقوف بعض البيوت مصنوعة من القصب فكان يحدث أن يبيع الفقير سقف بيته اذا اشتد به الفقر ، و هذا النص تصوير لا نستطيع التحقق من صحته يرمز الى الحالة المزرية التي وصل اليها أبو يوسف

[667] * **بشر بن الوليد** : العلامة ، قاضي بغداد كان محمود الأحكام ، توفي سنة 238هـ . عبد الحي بن العماد الحنبلي : **شذرات** ، المصدر السابق ، م1 ، ج 2 ، ص ص : 89 ـ 90

معين وغيرهم كثير ... وكانت وفاته سنة 182هـ ــ 798م عن تسع وستين سنة ، وكان استخلف ابنه يوسف على الجانب الغربي فاقره الرشيد على عمله[668] .

وقد استولى أبو يوسف على قلب الرشيد فكان يصدر عن رأيه ، و يثق بأحكامه ، ويستشيره في أموره ، إعجابا بعلمه و ذكائه و قدرته على حل المعضلات[669] : « ... وكان الرشيد يكرِمُه ويُجِلِّه وكان عنده حَظِيًّا مكينا ، وهو أول من دُعِيَ بقاضي القضاة ويقال إنه أول من غَيَّر لباس العلماء إلى هذه الهَيْئَة التي هم عليها في هذا الزمان وكان مَلْبوس الناس قبل ذلك شيئا واحدا لا يتميَّز أحد عن أحد بلباسه ... »[670] و تعدى إجلال الرشيد إلى زوجته زبيدة . فلحقه من ذلك خير كثير، إذ تغيرت حاله إثر اشتغاله بالقضاء ، وتحول فقره غنى للحد الذي صار حديثا للعلماء ، إذ قال ابن السماك الواعظ : « ...لا أقول إن أبا يوسف مجنون ولو قلت ذاك لم يُقْبَل منّي ولكِنّه رجل صارع الدنيا فصرعته ...»[671]. و كان أبو يوسف يتملكه ذات الحكم على نفسه حيث كان مما قاله في مرض موته : « ... يا ليتني مِتُّ على ما كنت عليه من الفقر وإنّي لم أدخل في القضاء على أني ما تعَمَدّت بحمد الله ونعمته جَوْرًا ولا حَابَيْت خصما على خصم من سلطان ولا سُوقَةٍ ...»[672].

كان أبو يوسف من كبار رجال السنة رغم تحفظ بعض رجال الحديث فيه من جهة الرأي وإتباعه لأبي حنيفة[673] . و لقد وصف من طرف آخرين بأنه أقرب أئمة الرأي لأهل الحديث

---

[668] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص : 244 .

[669] أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 85 . : « ... وكان قد اعتور على هارون الرشيد أبو يوسف القاضي وكان قاضي القضاة و محمد بن الحسن على المظالم **فكان الرشيد يصدر عن رأيهما ويتفقه بقولهما...** »

[670] ابن خلكان : الوفيات المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 379

[671] نفس المصدر ، ص : 248 .

[672] نفس المصدر ، ص : 252 . جاء في خبر آخر أنه قال : «... أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول اللهم انك تعلم أني لم أجر في حكم حكمت به بين عبادك متعمدا ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك وكل ما أشكل على جعلت أبا حنيفة بيني وبينك وكان عندي والله ممن يعرف التابعين ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه ...» و في رواية أخرى : «... اللهم انك تعلم أني لم أطأ فرجا حراما قط وأنا أعلم اللهم انك تعلم أني لم آكل درهما حراما قط ...»

[673] محمد بن إسماعيل البخاري : **التاريخ الكبير** ، د ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت ، ج 8 ، ص: 397. نص حكم البخاري على أبي يوسف كالتالي :

«... يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف القاضي سمع الشيباني وصاحبه أبو حنيفة **تركوه** ... » . لكن وثقه كبار المحدثين :

، لأنه اشتغل بالحديث زمنا طويلا قبل تتلمذه لأبي حنيفة[674].ولم يسلم من الطعن عليه حيا و ميتا من طرف المتشددين من أهل السنة ، وكان من بين من طعن فيه يزيد بن هارون المحدث الكبير إذ سُئِل : «... ما تقول في أبي يوسف ؟ قال : لا تَحِلّ الرِّوَاية عنه ؛ إنَّه كان يُعْطي أموَالَ اليتامى مضاربة ويَجْعَل الربّح لنفسه...» ، ونقل آخرون عن أبي حنيفة أنه كان يتهم أبا يوسف بالكذب عليه[675] .

وروى ابن المبارك قال :« ... لما أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي فرَاودَها عن نفسها ، فقالت : لا أصلح لك ، إنَّ أبَاك قد طَاف بي ، فشغف بها فأرسل إلى أبى يوسف فسأله : أعندك في هذا شيء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أو كُلَّما ادَّعت أَمَة شيئا يَنْبَغي أن تُصَدَّق ، لا تصدقها فإنها ليست بمَأْمونة ... » . فعلق ابن المبارك على الخبر : « ... لم أَدْرِ مِمَّن أعْجَب مِن هذا الذي قد وضَعَ يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحَرَّج عن حُرْمة أبيه ، أو من هذه الأَمَة التي رَغِبَتْ بنفسها عن أمير المؤمنين ، أو من هذا فَقِيه الأَرْض وقَاضِيها قال : أهْتِكْ حُرْمَةَ أبيك واقْضِ شهْوتك وصَيِّره في رقبتي... » .

وذكر السيوطي رواية أخرى قال : « ... قال الرشيد لأبى يوسف : إني اشتريت جارية وأريد أن أَطَأَها الآن قبل الإِسْتِبْرَاء ، فهل عندك حيلة ، قال : نعم تَهَبُها لبعض ولدك ثم تتزوجها... » . و حدث أن دعا الرشيد أبا يوسف ليلا فأفتاه في مسألة فأمر له بمائة ألف درهم فقال أبو يوسف : إِنْ رأى أمير المؤمنين أَمَر بتعجيلها قبْل الصُّبح ، فقال الرشيد

« ... ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني في ثقته في النقل... » . وقال عمرا الناقد : «... ما أحب أن أروي عن أحد من أصحاب الرأي إلا عن أبي يوسف فإنه كان صاحب سنة... ».

أنظر :الخطيب البغدادي : الصدر السابق ، ج 14 ، ص ص : 244 ــ 253 .

[674] عبد الله بن أحمد : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 108 . « ... سمعنا أبا يوسف القاضي يقول بخراسان صنفان ما على ظهر الأرض اشر منهما الجهمية والمقاتلية ... » . « ... سمعت أبا يوسف القاضي يقول : جيئوني بشاهدين يشهدان على المريسي والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط يقول في القرآن يعني مخلوق ...» . المصدر نفسه ، ص : 123

وقد طلب الحديث على كل من هشام بن عروة ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وعطاء بن السائب ، ويزيد بن السائب ، ويزيد بن أبي زياد ، وأبي إسحاق الشيباني ، ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وسليمان الأعمش ، وغيرهم . و كلم من كبار اهل السنة . وقد خرج يوما وأصحاب الحديث على الباب ، فقال : ما على الأرض خير منكم قد جئتم او بكرتم تسمعون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 13 ، 358

[675] نفس المصدر ، ص : 258

: عَجّلوها ، فقال بعض من عنده : إن الخَازِن في بيته والأبواب مغلقة ، فقال أبو يوسف : فقد كانت الأبواب مُغْلَقة حين دعانى فَفُتِحت [676]

وقد جاء في كثير من الأخبار نماذج عن الحيل الفقهية المشروعة ، التي كان أبو يوسف ييسرها للبلاط من دون أن تخرج عن مضامين الشرع ، هذه المخارج التي تضاف إلى خلفية المذهب الحنفي في مراعاة المواقف الحرجة . وقال أيضاً : « ...كانت أمُّ جعفر كتبت مسألة إلى أبي يوسف تَسْتَفْتِيه فيها، فأفتاها بما وافق مرَادها، حسْبَ ما أوجَبَتْه الشريعة عنده، وأَدَّاه اجتهاده إليه، فبعثت إليه بِحُقٍّ فِضّة فيه حقان من فضة، وفي كل حق لون من الطيب، وجَامٍ من ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنانير، وغلمان وتُخُوت من ثياب، وحمار وبغل ...»[677] . هذا ولم تكن جميع أحكامه تمضي في هوى الخلفاء إذ سجل له وقوفه ضد الهادي في نزاع حول بستان فكان الحكم في الظاهر للهادي وكان الأمر على خلاف ذلك : «... فقال أمير المؤمنين لأبي يوسف ما صنعت في الأمر الذي يتنازع إليك فيه قال خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق . فقال له موسى : وترى ذلك ؟ قال : قد كان ابن أبي ليلى يراه ، قال : فأردد البستان عليه وإنما احتال عليه أبو يوسف ...»[678].

---

[676] السيوطي : تاريخ ، المصدر السابق ، ص : 291 ــ 292

[677] المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 431 .

ابن خلكان : الوفيات المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 386 . تأمل في الرواية التالية :

« ... وقال : يا يعقوب ، تدري لم دعوتك ؟ قلت : لا ، قال : دعوتك لأشهدك على هذا ؛ إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع ، وسألته أن يبيعها فأبى ، والله لئن لم يفعل لأقتلنه ، قال أبو يوسف : فالتفت إلى عيسى فقلت له : وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة ، قال : فقال لي : عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي ، قلت : وما في هذا من الجواب ، قال : إن علي يمينا بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن لا أبيع هذه الجارية ولا أهبها ، فالتفت إلي الرشيد فقال : هل له في ذلك من مخرج ، قلت : نعم ، قال : وما هو ، قلت : يهب لك نصفها ويبيعك نصفها فيكون لم يهب ولم يبع ، فقال عيسى : ويجوز ذلك ، قلت : نعم . قال : فأشهدك أني قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار فقال له الرشيد : قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار ، ثم طلب منه الجارية فأتى بالجارية وبالمال فقال : خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها ، فقال الرشيد : يا يعقوب بقيت واحدة ، فقلت : وما هي ، فقال : هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ و والله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إني أظن أن نفسي ستخرج ، فقلت : يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها فإن الحرة لا تستبرأ قال : فإني قد أعتقتها ، فمن يزوجنيها ، فقلت : أنا فدعا بمسرور وحسين فخطبت وحمدت الله تعالى ثم زوجته إياها على عشرين ألف دينار ودعا بالمال فدفعه إليها ثم قال لي يا يعقوب انصرف ... »

[678] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج ، 14 ، ص : 248

وروى عنه حكايات في الحيل والتخريجات ، لعلها لا تصح ، وكانت له جهود في التأليف وتصنيف الكتب ، وقد وصف بأنه أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وكان يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب إلى جانب الفقه ومن أهم كتبه : كتاب الخراج . وهذا الكتاب عبارة عن خطة عمل لإصلاح الإدارة المالية في الدولة الإسلامية في العصر العباسي ، وضعه أبو يوسف كما يظهر من مقدمته بناء على طلب من الخليفة هارون الرشيد ليعمل به في جباية أموال الدولة ، من الخراج ، والعشور ، والصدقات ، والجزية ، وقد جعل أبو يوسف كتابه على صورة السؤال والجواب، لكن أبا يوسف لم يقتصر على إجابة الأسئلة وإنما استطرد في الإجابة استطرادات مفيدة ، ووضع مقترحات وخطة عمل ، وطلب من الخليفة أن يعمل بها ، وقدم له نصائح قيمة في إدارة الدولة ، ومحاسبة العمال ، والموظفين على الخراج ، والبريد ، والصدقات ، وغيرها من الوظائف[679] .

ولم يكن مبحث الخراج الذي اشتهر به الكتاب إلا أحد فصول الكتاب فقد وضح إلى جانب مبحث الخراج كافة موارد الدولة المالية ، وواجبات الدولة في إصلاح المرافق العامة ، وواجباتها في محاسبة موظفيها ، وإقامة الحدود ، ونشر العدل ، وقتال أهل الشرك ، وأهل البغي ، ولم تخل تلك المباحث من إيراد السوابق التاريخية من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسيرة الخلفاء الراشدين وسيرة عمر بن عبد العزيز ، وقد ناقش أراء الفقهاء الذين سبقوه أو عاصروه ، ورجح ما رآه دون أن يتقيد بآراء شيخه أبي حنيفة.

والكتاب يعتبر أول دراسة للنظم الإسلامية جمع به مؤلفه بين الدراسة الشرعية والوقائع التاريخية ، ونقد فيه بعض الأوضاع والانحرافات المخالفة للشريعة ، وطلب من الخليفة إصلاح ذلك وإقامة النظام المالي في الدولة على مقتضى العدل الرباني الذي جاءت به الشريعة وطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون ومن اقتدى بهديتهم واستن بسنتهم.

---

679 أبو يوسف القاضي : **كتاب الخراج** ، د ط ، دار المعرفة ، بيروت ، د ت ، ص : 106 ــ 107 . و قد كرر أبو يوسف في كل فصل عقده في الكتاب نصيحته للرشيد في تحري العدل و اختيار أهل العلم و الفضل في الوظائف المتعلقة بالرعية .

ولقد كان القاضي أبو يوسف صريحاً مع هارون الرشيد في بيان الأخطاء والمخالفات دون مواربة ، وطلب إليه في أدب واحترام تصحيح الأوضاع ، وأمره ونهاه ، وحذره وذكره بالله ،ورغبة في ثوابه وخوفه وعقابه . و لم يعتبر من أعمال الخلفاء وقضاياهم إلا قضايا الخلفاء الراشدين الأربعة ، وقضايا عمر بن عبد العزيز الأموي[680] .

إن احتكار المذهب الحنفي لإدارة القضاء في هذا العصر ، خاصة عهد الرشيد ما تلاه نعتبره ظاهرة من ظواهر التاريخ التي تقتضي الفهم و التعليل . خاصة إذا استعدنا العلاقة التي كان عليها مؤسس المذهب والدولة في عصر المنصور ، التي لم تكن ترتفع إلى المودة و التعاون . ربما كان ذلك هو الأمر الذي دفع زفرا زميل أبي يوسف في الدرس على أبي حنيفة على رفض تولي القضاء و تفضيله الهرب و الاختفاء . و كانت الدولة العباسية من جهة أخرى تشتكي غياب قانون فقهي مدون تعود إليه الدولة في حسم مشاكلها و مشاكل الرعية ، ويكون ناظما لوحدة أحكام القضاة ، الأمر الذي ألح على ضرورته ابن المقفع في رسالة " الصحابة " . ولما كان المذهب الحنفي كوفي الأصل ، كذا سوء رأي الدولة و عدم رضاها على مؤسسه فقد اتجه كل من المنصور و المهدي بل حتى الرشيد إلى إمام المدينة مالك بن أنس ليوفر لهم هذا الإنجاز ، وكان ذلك سبب تأليف مالك للموطأ . لكن قدر لأبي يوسف أن يحقق المصالحة مع العباسيين ليكون في عهد الرشيد قاضي القضاة يظل في منصبه معززا مكرما لغاية وفاته .

إن ما يشغلنا في هذا البحث هو بيان نوعية العلاقة التي تحكم هذا الفقيه أو ذاك بالدولة العباسية ، و الروايات التي عرضت لحياة أبي يوسف مع الرشيد كلها يدل على الانبساط و عدم التحرج الذي طبع مسلكية أبي يوسف في علاقاته مع رجال الدولة ، إذ لا يبدو مجرد فقيه تستعمله الدولة فيما ينوبها من قضايا الناس تطبيقا لتشريعات الإسلام ، يؤدي مهمته ضمن الحدود التي يرسمها منصبه ، و إنما يظهر أبو يوسف كما تعرضه بعض الروايات كأحد رجال هذه الدولة الموالين لها ، حيث تمنحنا هذه الروايات الاعتقاد بأنه لم يكن يستشعر الحرج الذي كان يشعر به من تستعمله الدولة بقوة الإكراه و الضغط وإلحاح الحاجة ؛ سواء حاجة الناس أو حاجة الفقيه الذاتية كالفقر و توابعه .

---

[680] لم يجد أبو يوسف حرجا في الاعتماد على أقضية الإمام علي ، و الخليفة عمر بن عبد العزيز برغم العداء التاريخي بين العباسيين و الأمويين . و قد بدا أبو يوسف في الكتاب كفقيه يعرض الحق كما وضح له دون أي مراوغة الا ما يقتضيه خطاب الأدب مع الخليفة .

لقد كان الفقر و الحاجة ما دفعه للرحيل إلى بغداد ، والقبول بالعمل لدى الدولة ، لكنه أيضا يبدو و كأنه حسم ما يعتلج في ضمير أمثاله من الحرج والقلق النفسي ، و مضى في عمله متكيفا مع أجواء السلطة و ما تتيحه من جاه و نفوذ ، و ما توفره من وسائل المتعة .

إذن لم يكن أبو يوسف يحبذ نزعة الزهد و الانكماش التي طبعت زميله داود الطائي[681] ولم يكن مزاجه من النوع المنقبض ، ولم تكن له نزعات أستاذه و لا حساسيته للحرية و الاستقلال ، ولا هواجس التشدد في أمور الورع ، لقد كان رجلا واقعيا يتحرى العدل و يرغب في أن يحقق الأحكام الشرعية و أن تكون مسلكيته في الإطار العام الواسع الذي تقبلها هذه الأحكام ؛ بحيث لا ينسى نصيبه من الدنيا و يحسن للآخرين . و بهذا فقد حقق نموذجا سلفا لمن تلاه من الفقهاء الذين عملوا في القضاء و غيره[682] .

[681] **داود الطائي :** أبو سليمان داود بن نصر الطائي الكوفي ، اشتغل بالعلم و لزم الخلوة و العبادة ، توفي سنة 160 ه هـ بالكوفة .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 259 ـ 260

[682] ابن خلكان : الوفيات المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 381 . تأمل في الرواية التالية :

« ... ودخل القائد يوما على الرشيد فوجده مغموما فسأله عن سبب غمه فقال : شيء من أمر الدين قد أحزنني ، فاطلب فقيها كي أستفتيه ، فجاءه بأبي يوسف، قال أبو يوسف : فلما دخلت إلى ممر بين الدور رأيت فتى حسنا عليه أثر الملك وهو في حجرة محبوس ، فأومأ إلي بأصبعه مستغيثا فلم أفهم منه إرادته ، وأدخلت إلى الرشيد ، فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت، فقال لي : ما اسمك ؟ فقلت : يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين . قال : ما تقول في إمام شاهد رجلا يزني هل يحده ؟ قلت : لا فحين قلتها سجد الرشيد ، فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك ، وأن الذي أشار إلي بالاستغاثة هو الزاني ، ثم قال الرشيد : من أين قلت هذا ؟ قلت : لأن النبي قال ادرءوا الحدود بالشبهات ، وهذه شبهة يسقط الحد معها . قال : وأي شبهة مع المعاينة ؟ قلت : ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى والحدود لا تكون بالعلم ، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه فسجد مرة أخرى وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار، فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته وصار ذلك أصلا للنعمة . ولزمت الدار فكان هذا الخادم يستفتيني وهذا يشاورني ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء ...»

أبوعبيد القاسم بن سلام :

من أبناء خراسان أصله من مدينة هراة ، كان أبوه سلام عبدا روميا لرجل أنصاري من هراة اختلف المؤرخون في سنة مولده بين 157هـ[683] و 150هـ[684] ، و توفي على الأرجح سنة 224هـ ـ 839م[685].

تلقى تعليمه الأولي في مسقط رأسه ثم أخذ في التسيار و الترحال كدأب أقرانه و من قبله يطوف بين الأمصار و المدن و الثغور : «... فطلب العلم و سمع الحديث و درس الأدب ونظر في الفقه... »[686] و اتخذ من العراق وجهته الأولى ، حيث دخل بغداد سنة 176هـ والكوفة سنة 177 هـ و البصرة سنة 179هـ قاصدا الفقهاء و القراء و المحدثين و علماء اللغة من بصريين و كوفيين ، ثم ارتحل إلى الرقة فدخلها سنة 191 هـ وطلب المشايخ الذين اشتهروا في اختصاصاتهم ؛ يأخذ العلم من منابعه و من لدن أهله ، وكانت دائرة شغفه المعرفي واسعة حيث شمل فضوله العلمي جميع علوم الإسلام من فقه و حديث و تفسير و

القزويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 281

[683] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 491

[684] ابن خلكان: المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 62

[685] ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ، ص : 132

[686] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 403

لغة و نحو وقراءات و تاريخ و أنساب و أدب ؛ هذا الشغف الذي أهله بعد ذلك ليرتقي المحل الذي اشتهر به بين الخاصة و العامة و صيره قبلة و مقصدا للطلاب و العلماء[687] .

وقد حرص أبو عبيد على اختيار شيوخه من الموثوقين المعتمدين لدى أهل السنة فلم يخلط مصادره في أي علم حمله من الذين جرى تسميتهم "بأهل الأهواء" و المقصود بهم الفرق والنحل التي حفل بها ذلك العصر، تماما كصنيع أحمد بن حنبل و غيره ، حرصا على نقاء علمه و حذرا من أي انحراف قد يسم عقيدته و منهجه ؛ خاصة و أن الصراع كان محتدما في تلك الفترة ليس بين أهل السنة و غيرهم من الفرق المخالفة و إنما بين أهل السنة فيما بينهم الذي عرف بالخلاف الحاد المفعم بالغمز و الإدانة بين "أصحاب الأثر" و "أهل الرأي" .

عاد من رحلاته إلى خراسان فعمل مؤدبا لآل هرثمة ثم انتقل إلى ثابت بن نصر الخزاعي يؤدب ولده[688] ، ثم لما ولي ثابت على طرسوس ثماني عشرة سنة أشار على أبي عبيد بالقضاء فقبل المهمة و اعتلى المنصب طيلة هذه المدة « و لم يزل معه و مع ولده »[689] . و في سنة 210 هـ ــ 825م ترك القضاء إثر وفاة ثابت و انحدر إلى بغداد حيث اتصل هناك بعبد الله بن طاهر[690]* و انعقدت بينهما مودة و ملازمة حملته ثانية إلى خراسان بمناسبة تولي ابن طاهر لها ، حيث استمر هذا الأخير يجري عليه ألفي درهم في الشهر[691] .

لكن أبا عبيد رغم العلم الذي حصله و دواعي الاستقرار التي تهيأت له و رغم التقدم في العمر إلا أنه ظل مسكونا بالحنين إلى معاودة الارتحال و ركوب المشاق لمزيد من التحصيل والمعرفة و إرواء شغفه الذي لم ينقطع ، فشهدته مصر سنة 213 هـ يطوف في أرجائها ويطلب أعيان شيوخها بصحبة المحدث الكبير يحيى بن معين ، يكتب و يُكتب عنه ؛ يأخذ المعرفة و يمنحها ، ليغادرها بعد ذلك إلى الشام يطلب من بقي بها من الشيوخ يروم عوالي

---

[687] سائد بكداش : **أبو عبيد القاسم بن سلام** ، ط 2 ، دار القلم ، دمشق ، سنة 2002 ، ص ص : 28 ــ 29

[688] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 492

[689] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 62

[690] * **عبد الله بن طاهر** : أبو العباس ، سيد نبيل عالي الهمة ، كان المأمون كثير الاعتماد عليه في أموره ، تولى الشام و مصر و أبيورد ، توفي سنة 228 هـ بنيسابور . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 83 ــ 84

[691] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 404

سائد بكداش : المرجع السابق ، ص : 32

الحديث و الآثار و تم له ذلك سنة 214هـ[692] ، ثم عاد مرة أخرى إلى بغداد ؛ الحاضرة التي لا غنى لعالم أو متعلم المرور بها و الورود من معينها المعرفي الذي لا ينضب ؛ كيف و هي قصبة السلطان و حاضرة الخلافة ، و المكان الذي ينفق فيه كل شيء[693].

وفي سنة 219 هـ خرج إلى مكة حاجا ليقضي منسكه و يروي ظمأه العلمي من خلال لقاء الجلة من الشيوخ الذين تعسر عليه لقاءهم و الذين إلتقاهم ؛ يستفيد منهم و يفيد و هناك جاور بالبيت الحرام حتى وافاه اجله في محرم سنة 224 هـ[694] ــ 839م.و قد ورد في سبب مجاورته قصة طريفة يحسن بنا إيرادها لدلالتها على العمق الروحي الذي كان يميز أبا عبيد :

« ... أَكْرَى إلى العراق لِيَخْرج صَبِيحة الغد ، قال أبو عبيد : فرأيت النبي صلى الله عليه و سلم في رؤياي وهو جالس .. فلما دنوت أَدْخُل مع الناس مُنِعْت ..فقالوا لي : لا و الله لا تدخل و لا تسلّم عليه و أنت غدا خارجا إلى العراق .. فقلت لهم : إني لا أخرج إذاً ، فأخذوا عهدي ، ثم خَلّوا بيني و بين النبي صلى الله عليه و سلم فدخلت و سلَّمت و صافحت ..فلا أصبح أبا عبيد فَاسَخَ كَرْيَه و سكن مكة حتى توفي بها و دفن فيها ...[695]» .

ويلاحظ عمق انتماء أبي عبيد السني في جملة العلوم التي اضطلع بها تعلما و تعليما و التي رغم سعتها و تنوعها إلا أنها ظلت منحصرة في علوم " البيان " ؛ العلوم التي اصطلح عليها بالإسلامية في مقابل العلوم الدخيلة المتسرب جلها من مشروع الترجمة ، حيث غدا رأسا و علما من أعلام أهل السنة و مرجعية معتمدة ، مشهودا لها بالتمكن و الاستطاعة العلمية حتى قيل فيه : «... لو كان أبو عبيد في بني إسرائيل لكان عجبا ...»[696] وقيل أيضا «... ثلاثة لن يُرَى مثْلُهم أبدا ، تَعْجِز النّساء أن يلدن مثلهم ، أبا عبيد القاسم بن سلام ما مثله إلا جبل نفخ فيه روح ...»[697] ، و استطاع بغزارة علمه و شساعة معارفه و نقاء مسلكيته أن يحصد ثناء زكيا من طرف كبار مشايخ عصره و العصور التي تلته ، من

---

[692] سائد بكداش : المصدر نفسه ، ص ص : 33 ــ 34

[693] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 507

[694] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 62

[695] ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 4 ، ص : 62

[696] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 500

[697] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 412

ذلك ما روي أن أحد الطلبة سأل أحمد سؤالا فأحاله إلى أبي عبيد قائلا : « ... إِيتِ أبا عبيد فإن له بَيَانًا لا تسمعه من غيره ، قال : فأتيت أبا عبيد فسألته فشَفَاني جوابه و أخبرته بقول أحمد ، فقال : يا ابن أخي ذاك رجل من عُمَّال الله ؛ نَشَر الله رِدَاءَ عمله في الدنيا و ذَخَرَ له عنده الزّلْفى ...»[698]، و قال أحمد أيضا فيه : « ... أبو عبيد أُستَاذ و هو مِمَّن يَزْداد عندنا كُلَّ يوْمٍ خَيرا ...»[699]، و إذ أورد هنا شهادات أحمد خصوصا فلأن احمد في هذه الفترة كان علم أعلام أهل السنة و سيد ساداتهم و المرجعية الكبيرة التي خضع لها الكبار و الصغار ، خاصة بعد الصمود و الصبر الذين تحلى بهما في المحنة عهدي المأمون و المعتصم ، وقد صدر ذات الثناء من آخرين كابن معين كبير المحدثين في وقته ، و قد سأله أحد الطلبة حول الكتابة عن أبي عبيد فتبسم و أجابه : « ... مثلي يُسْأل عن أبي عبيد و السَّماع منه ، أبو عبيد يُسْأَل عن الناس ...»[700] و قد أثنى عليه ابن طاهر في قوله : « ... كان الناس أربعة : ابن عباس في زمانه و الشعبي في زمانه و القاسم بن معن[701] في زمانه أبو عبيد في زمانه ...»[702] .

كان أبو عبيد يعتقد ما يعتقده أهل السنة و الجماعة في جميع القضايا التي انتصب فيها الخلاف بينهم و بين الفرق الأخرى ، حيث أن تعمقه في علوم النقل و الرواية ، و انحصار مصادر علمه ضمن رجال هذا الاتجاه جعله ينخرط بحماس في تقرير العقائد و الآراء التي انتهى أهل السنة إلى اعتمادها و ترسيمها . من ذلك رأيه في مسألة القرآن التي استطارت شهرتها أواخر عهد المأمون و المعتصم و الواثق ،حيث جاء تصوره و طرحه لها موافقا لما قرره ابن حنبل ، إذ ذهب أبو عبيد إلى أن : «... من قال القرآن مخلوق فهو شَرّ مِمَّن قال إن الله ثالث ثلاثة ، لأنَّ أولئك يُثْبِتُون شيئا و هؤلاء لا يثبتون المَعْنَى ...»[703]، و ورده سؤال في ذات المسألة : « ... ما تقول فيمن قال القرآن مخلوق ؟ قال : هذا رجل يُعَلَّم و يقال له : إن هذا كُفْر ، فإن رَجَع و إِلَّا ضُرِبت عنقه ...» و أصدر فتواه : « ... من قال القرآن مخلوق فقد اِفْتَرى على الله عز و جل و قال عَلَيْه ما لم تَقُلْه اليهود و النصارى

---

[698] ابن الجوزي : المناقب ، ص : 116

[699] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 414

[700] المصدر نفسه : نفس الصفحة

[701] سبقت ترجمته في بداية الفصل

[702] الخطيب البغدادي : المصدر نفسه ، ج 12 ، ص : 411

[703] سائد بكداش : المرجع السابق ، ص : 90

...»[704]، و يرى أن ما ثبت من صفات الله فسبيلها الإيمان بها و عدم الخوض في تفسيرها لأنها مما استأثر الله بعلمه و لا تقاس على صفات المخلوقين : « ... هذه الأحاديث صِحَاح حَمَلَها أصحاب الحديث و الفقهاء بعْضُهم عن بَعْض و هي عندنا حق لا شك فيها و لكن إذا قِيلَ كيف يضحك ؟ و كيف وضع قدمه ؟ قلنا : لا نُفَسّر هذا و لا سَمِعنا أحدا يفسره ...»[705].

ويذهب في مسألة تفضيل الصحابة إلى أن أبا بكر أفضلهم ثم عمر ثم عثمان فعلي و يحكي عن نفسه أنه فعل فعلتين يرجو بهما من الله الجنة و ذلك في لقائه مع المحدث الكبير يحيى بن القطان بالبصرة ، و الذي كان يرى تفضيل علي على عثمان : « ... فقلت : معي شاهدان من أهل بدر .. أنت حدثتنا .. عن النزال بن سبره قال : خَطَبَنَا ابن مسعود فقال : أَمَّرْنا خير من بقي و لم نَأْلُ ، قال : و من الآخر ؟ قلت : .. عن عبد الرحمن بن عوف قال : شاورت المهاجرين و الأولين فلم أَرَ أحدا يَعْدِل بعثمان . قال : فترك قوله و قال : أبو بكر و عمر وعثمان ... »[706]. و النص صريح في هذا الأمر .

أما في مسألة الإيمان فقد أثبت أنه يزيد و ينقص خلاف المرجئة و غيرهم و يرى أن الذنوب و المعاصي لا تزيل إيمانا و لا توجب كفرا ، خلاف الخوارج . و قد روي عنه قوله : « ... عَاشرْت الناس و كَلَّمْتُ أهل الكلام فما رأيت أَوْسَخ وسخا و لا أقْذَر و لا أضعف حُجة و لا أحمق من الرافضة ، و لقد وليت قضاء الثغور فنفَيْتُ منهم ثلاثة رجال جَهْمِيّين ورافضيًّا و قلت : مثلكم لا يُسَاكِنُ أهْل الثُّغُور وأخرجتُهم ...»[707].

علاقته بالدولة :

هذا و لم أجد له فيما حصلت عليه من نصوص أي حديث له في قضايا السياسة و مسائل العلاقات مع الدولة و نوازل الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و إن كانت مسلكيته مع آل هرثمة و آل طاهر في قبوله تأديب أولادهم و العمل لهم و الاشتغال تحت حمايتهم و توليه القضاء ما يمكننا من مقاربة تصوراته في هذه الأمور ، إذ يبدو أنه لم يجنح لذات

---

[704] المرجع نفسه : نفس الصفحة

[705] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 505

[706] الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 409

[707] الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 504

التشدد والإنحياش عن دوائر السلطة الذي سلكه ابن حنبل رغم الصداقة القوية بينهما و الاحترام الكبير الذي يكنه كل منهما للآخر، هذا و لم أعثر على أي نص أو خبر يشير إلى أي علاقة ما مع أي خليفة من الخلفاء الذين عاصرهم ، رغم شهرته و عظيم مكانته ؛ خاصة في عهد المأمون والغريب أنه كان في هذه الفترة ملازما لابن طاهر الأمر الذي كان يسهل عليه لقاء المأمون والانخراط في سلك حاشيته إذا شاء ، مع ما عرف عن المأمون من شدة تحري و تنقيب عن المتميزين الراسخين من بين علماء دولته يزين بهم مجلسه و يغني بهم معارفه .

والمثير للاهتمام نجاته من طائلة الامتحان الذي عصف بأهل السنة أواخر عهد المأمون والمعتصم و الواثق رغم شهرته و ذيوع صيته و علاقاته القوية بابن حنبل ، و ربما كان لصلته بآل طاهر دور في تجنيبه مشقة المساءلة نظرا للمكانة الجليلة التي كان يحتلها ابن طاهر في قلب المأمون و في دولته كذلك الرأي الجيد الذي كان يحمله لأبي عبيد و الود العميق الذي كان يمحضه إياه .

إذن لقد رضي أبو عبيد أن يجالس بعضا من رجال الدولة و يؤاكلهم و يشاربهم و يزين مجالسهم و يقبل عطاياهم و يتلقى رضاهم و سخطهم ، بله أن يصير بعلمه و حذقه وحسن تأدبه أشبه بسلعة نفيسة يتهاداها الولاة كما سيأتي ، الأمر الذي لا يرضاه أمثال الثوري أو ابن المبارك أو الفضيل أو أحمد صديقه . لكن و مع كل هذا فقد ظل محتفظا بوقاره ، متمسكا بهيبة العلم ، ملتزما بما يلتزم به العالم الذي يحترم علمه .

جاء في إحدى الروايات أن طاهر بن عبد الله بن طاهر قدم من خراسان وهو حَدث في حياة أبيه يريد الحج فنزل في دار إسحاق بن إبراهيم ، فوجه إسحاق إلى العلماء فأحضرهم ليراهم طاهر و يقرأ عليهم ، فحضر أصحاب الحديث و الفقه و وجه إلى أبي عبيد في الحضور فأبى أن يحضر و قال : العلمُ يُقصد ، فغضب إسحاق من قوله ، و كان عبد الله بن طاهر يجري له في الشهر ألفي درهم فقطع إسحاق عنه ما كان يعطيه إياه عبد الله و كتب إليه بالخبر ، فرد عليه عبد الله : « ... قد صدق أبو عبيد في قوله و قد أضْعَفْتُ له الرّزق من أَجْل فضله فأعْطِه فَائِتَه و أَدِرْ عليه بعد ذلك ما يستحقه ... »[708].

---

[708] ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج 16 ، ص ص : 260 ـــ 261

الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص 407

إذن لقد كان عبد الله يعرف لأبي عبيد فضله و يأبى أن يعرضه لما فيه هوانه رغم ما في القصة كلها من معنى الهوان ، الذي يصنعه عبودية الرزق لما يكون بيد الآخرين ، و بمثل هذه المواقف الطيبة التي حفظ بها عبد الله كرامة أبي عبيد كان هذا الأخير لا يفوت فرصة أن يرد له كرامته فكان : « ... إذا أَلَّفَ كتابا أهداه إلى عبد الله بن طاهر فيحْمِل إليه مالا خطيرا استحسانا لذلك ... »[709] . و مضت هذه السنة بين أبي عبيد و عبد الله بن طاهر في جميع ما ألف و كتب ، و ظل عبد الله يحوط أبي عبيد برعايته و لطفه و كرمه ، و فلم يحوجه في أمر معاشه لأحد ، و لما كتب كتابه الكبير " غريب الحديث " عرضه عليه فاستحسنه و قال : « ... إن عقلا بعث صاحبه على عملٍ مثل هذا الكتاب لَحَقِيق ألَّا يُحْوَج إلى طلب المعاش فَأَجْرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر... »[710].

ولم يرد في الآثار ما يطعن في سلوك أبي عبيد و لا في وقوعه فيما وقع فيه آخرون من تهافت على المتع و الملذات التي حفل بها العصر و عجت بها دور الخلفاء و الولاة و القادة والمتنفذين ، فلم يؤثر عنه تهتكا و لا انهماكا و لا تلهفا في تحصيلها ، بل الذي وصل إلينا من أخبار حياته ؛ فيما يخص نشاطه اليومي يتلخص في الإنكباب على العلم و التصنيف ؛ حيث كان يقضي عامة نهاره فيه ، أما في الليل فكان : « ... يُقَسّم الليل أثلاثا ، فيصلي ثلثه و ينام ثلثه و يَضَع الكتب ثلثه ... »[711]. فلم يكن جمع المال من اهتماماته و لعل الخبر التالي يبين لنا ذلك ، فقد حدث أن بعث أبو دلف إلى عبد الله بن طاهر يستهدي أبا عبيد ليجالسه مدة شهرين فذهب أبو عبيد و أقام لديه هذه المدة ، و لما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها و قال : أنا في جنب رجل ما يحوجني إلى صلة غيره و لا آخذ ما فيه علي نقص و لما علم عبد الله بالحكاية أعطاه ثلاثين ألف دينار ، فقال أبو عبيد : أيها الأمير قد قبلتُهَا ولكن قد أَغْنَيْتَنِي بمعروفك و برّك و كِفَايَتِك و قد رأيْتُ أن أشتري بها سلاحا و خَيْلا و أُوَجّه به إلى الثَّغْر فيكون الثَّواب متوَفِّرا على الأمير ففعل ...[712] .

---

[709] المصدر نفسه : ص : 404

[710] ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 4 ، ص : 61

الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص 406

[711] الخطيب البغدادي : المصدر نفسه

[712] الخطيب البغدادي : المصدر نفسه ، نفس الصفحة

وجاءت روايات أخرى تصف ورعه و شدة تدقيقه فيما يخالف الدين ؛ حيث كان إذا اضطر إلى الاستشهاد بشعر الهجاء في كتبه فانه كان يكني اسم المهجو بوزن اسمه خوفا من المشاركة في ذم أحد أو نشر و إشاعة ذكره[713] ، لذلك وصف بأنه كان : « ... موصوفا بالدين و حسن المذهب و السيرة الجميلة و الفضل البارع ... »[714] ، و بلغ إلى درجة أنه صار يضرب به المثل في الفضل و العلم و الزهد[715] .

هذه هي مسلكية أبي عبيد كما استطعت صياغتها من مختلف الروايات التي لا تقول الكثير في تفاصيل هذه العلاقة التي شاءها أبو عبيد مع بعض رجالات الدولة ، و قد كان بإمكانه لو أراد أن يكون نسخة أخرى من أحمد ، لكنه لم يفعل ، و لم يُخْفِ إعجابه بأحمد و الانحياز إليه حتى أيام المحنة العصيبة فقد روي أنه كان : « ... يذهب و يجيء و يقول : أَيُضْرَبُ سيّدنا ؟ لا أصبر ، أيضرب سيدنا ؟ ... »[716].

إن شخصية أبي عبيد كما تصورها الروايات شخصية هادئة معتدلة ، لا نجد فيها حدة أحمد و سفيان و لا انبساطية أبي يوسف ، لا يجد غضاضة في قبول ما تجود به يد ثابت الخزاعي أو عبد الله بن طاهر ، و يحب أن يرد الجميل بمثله فيحرص على إهداء كل ما يكتب إلى راعيه .

كان من الممكن تصنيف أبي عبيد في صنف المجاملين لولا اشتغاله بالقضاء مدة طويلة ولولا قبوله المطرد لما يمنحه إياه عبد الله بن طاهر في شكل راتب دائم ، و لولا طبيعة العلاقة القائمة على نوع من الالتزام و الارتباط بين الشخصين .

---

[713] سائد بكداش : المرجع السابق ، ص : 63

[714] عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 54 - 55

[715] سائد بكداش : المرجع السابق ، ص : 66

[716] ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 336

خاتـــــــــمة :

لقد حاولت في هذه الإلمامة السريعة الإجابة عن الإشكاليات التي طرحتها كأسـئلة فـي المقدمة و قادني البحث إلى نتائج عدة أهمها :

ــ أنه انعقد إجماع كاد يكون مطلقا لدى جميع أهل السنة و الجماعة على حضر الخروج على الحاكم و التمرد على سلطته و إن لم يكن وصوله إلى كرسي الخلافة من طريق شرعي كالثورة والانقـــلاب و التغلب ؛ بحيث سادت عبـارة " من تحققت وطأتـه وجبت طاعته " و اخترقت جميع الأدبيات السنية التي تناولت المسألة السياسية ، أو ما أصـطلح عليـه " بالسياسة الشرعية " ، و معنى من تحققت وطأته هو حصول المتغلب على الاستيلاء الكلـي على جهاز الدولة و الانتصار على مناوئيه ؛ بحيث لا يبقى ثمة قوة مكافئة تنازعـه . فقـد كانت عقيدة أهل السنة في هذه المسألة عقيدة واقعية ، و ما جعلها كذلك هو قصـد رعايـة المصلحة العامة للأمة و حقنا لدمائها ، و جمعا لشملها .

إن التجربة التاريخية العنيفة التي عاشتها الأمة الإسلامية إثر مقتل الخليفة الثالث ؛ عثمان بن عفان دمغت الوعي العام بخطورة الانقسام و التشرذم ؛ إذ لم يكن من المتصور أن تلتقي السيوف التي أخضعت إمبراطوريتي فارس و الروم ، و أقامت الأمصار ، و حملت شـعار الإسلام و مهمة " إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، و من جو الأديان إلى عدل الإسلام " أن تلتقي في موقعة الجمل بقصد الاقتتال الذاتي ، أو أن تجتمع علـى أرض صفين ليصفي كل طرف حساباته مع الطرف الآخر من خلال السيف و الدم . و الدافع الـى كل تلك المأساة لم يكن خلا المسألة السياسية ، و لم يكن خلا الاختلاف حول من هو أحـق بالخلافة بين من يعتقد أنه الخليفة الشرعي بمقتضى البيعة ؛ فهو يدافع عن حقه ضـد الفئـة الباغية ، وبين آخر يعلن المطالبة بدم الخليفة المقتول و يستر رغبات و أطماع في الخلافة . وكان التحكيم هو آخر وسيلة تحمل الأمل و تحقن الدماء ، ولم تنته تفاصـيله و النقاشـات حوله حتى خر علي صريعا ، و خلفه الحسن ابنه فيمضي في مشروع التنـازل عـن حقـه لمعاوية سنة 40 هـ وتوصف تلك السنة **بعام الجماعة** .

إذن لقد فرض الأمر الواقع إجراءات لحسم النزاع و تلافي الصراع لعل أهمها :

ــ مبدأ العمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

ـ العدول إلى التحكيم الذي يعني القابلية للتنازل .

وجرى كثيرا وصف الإمام علي بالميثالية و وصف معاوية بالواقعية ، و حفظت نصوص كثيرة تؤكد هذه التوصيفات قيلت على لسان علي و على لسان معاوية ، وكانت لحظة صفين هي لحظة اللقاء بين **الميثالي** و **الواقعي** ، وتم التمكين في النهاية لهذا الأخير . و به رسخ في لاوعي الفريق الذي ساند عملية التحكيم و هلل لعام الجماعة و وقف مع دولة معاوية يساندها و يدعمها ؛ رسخ فيه حس **الواقعية** و التعامل بمقتضى حساب القوى ، الأمر ربما الذي دفع أهل السنة إلى إدراج مسائل الإمامة في مباحث **الشريعة** ، خلاف الاتجاهات الأخرى كالخوارج و الشيعة اللذين رفعوا مطالبهم إلى مستوى القضية العقدية و طرحوها للدراسة في سياق مباحث **العقيدة** . و الفرق كبير بين ما يدرج في مباحث الشريعة التي تهتم بتنظيم الحياة العملية الواقعية ، والتي تتسم بقابليتها للاجتهاد و الخطأ و مرونتها للتغيير و اعتبار الأعراف وخضوعها للمصلحة ، و بين ما يدرج في مباحث العقيدة ؛ حيث المسائل تدور حول الكفر و الإيمان .

لقد جرت هذه الاعتبارات لدى أهل السنة إلى السكوت عن الحركة اللاشرعية التي اتخذها معاوية ؛ لما أسند الخلافة إلى ابنه يزيد متجاوزا الثوابت الشرعية في عملية اختيارا لخليفة . ثم جاءت مأساة كربلاء و فشل القراء بدير الجماجم لتقضي على جميع محاولات تغيير ثوابت الدولة الحديثة ، و لتحقق الإجماع العام لدى أهل السنة حول حضر الخروج و الثورة و لتعمق الحس الواقعي الذي أفضى إلى السكوت عن اقترافات كثيرة كان يقوم بها جهاز الدولة الأموي.

ـ لقد قام العباسيون و العلويون بحركتهم الانقلابية في ظل هذه القناعة لدى أهل السنة و تمكن العباسيون من إدارة دفة الخلافة إلى جهتهم و استأنفوا مطاردة العلويين على مسمع و مرأى من أهل السنة دون أن تصدر أي إدانة جادة منهم ؛ خلا المساندة المعنوية التي قام بها أبو حنيفة بوصفه كوفي يتغلغل فيه هوى الإمام علي و خلا المساندة غير الواضحة التي أداها الإمام مالك ؛ والتي هي محل شك في وقوعها . و قد حصد أبو حنيفة جراء مساندته استياء كبار فقهاء السنة كالأوزاعي و جرت عليه أحكاما قاسية تمس مصداقيته السنية .

لقد توطن في الوعي السني أمران :

ـ التمسك النظري بالأساليب الشرعية في مسألة الإمامة كما تحققت في ظل الخلافة الراشدة و هي الشورى و العدل في القضية و القسمة بالسوية .

ـ اعتبار الأمر الواقع و الخضوع لمقتضيات رعاية المصلحة العامة .

و بين التمسك بالثوابت الشرعية نظريا و التسليم بالأمر الواقع عمليا انقسم رجالات هذا الاتجاه ، وتوزعوا فيما يخص مسألة العمل للسلطان والتعامل معه إلى المواقف الثلاثة التي سبق عرضها و شرحها . و لعلنا لا نعدو الصواب إذا وصفنا طبيعة المسلكية السنية هذه بالحركة المتوترة المتراوحة بين قطبي : النظري الميثالي المبدئي و الواقعي المصلحي ، و بقدر الاقتراب من أحد هذين القطبين و التزامه كانت تتم صناعة المواقف .

ـ لقد انتهى الاستقراء في الروايات و الأخبار و الوقائع إلى تمييز ثلاثة ملامح للمواقف التي اتخذها رجال أهل السنة من الفقهاء فيما يخص العمل للدولة و العلاقة مع رجالها ، و قد وصفتها تباعا **بالمفاصلة** و **المجاملة** و **المخاللة** ، و تمت بلورتها و تمايزها من خلال آلية الحركة المتوترة بين القطبين ، فقد تحقق موقف **المفاصلة** من خلال الانحياز الكلي و التام للمبدأ الميثالي على مستوى السلوك الشخصي الفردي مع الاحتفاظ بمبدأ رعاية المصلحة العامة و إقرار شرعية الحكم العباسي على صعيد الفتوى ، و رأينا كيف كان أبو حنيفة و الأوزاعي و سفيان الثوري و أحمد بن حنبل يتحاشون أي لقاء برجال الدولة و يتملصون من أي مسؤولية قد يلقيها هؤلاء على إعتاقهم و قد كانت هذه المسلكية مفهومة من طرف الدولة كحالة معارضة صامتة تم مقابلتها بالعنف أحيانا كما لاحظنا في حالة أبي حنيفة و الثوري ، أو بالمهادنة و المسالمة أحيانا أخرى كما تم عرضه في حال الأوزاعي و أحمد .

و جاء موقف **المجاملة** محكوما بمحاولة إحداث التوازن بين القطبين : الميثالي و الواقعي و محاولة إمساك العصا من الوسط ، و تحقيق المعادلة الصعبة التي تجمع بين إرضاء الديني و عدم إغضاب السلطان ، و تم ذلك من خلال التنازل المعنوي الذي تجسد في طابع الود الممزوج بالخوف والإشفاق على النفس ، و تمظهر في القبول بما كانت تجود به يد الخلافة من خيرات بدوافع عدة لعل أهمها : حالة الفقر و العوز التي كان يعيش فيها بعضهم ، أو درءا لغضب السلطان واستيائه ؛ حيث كان بعضهم يقوم بتوزيعها فور خروجه من البلاط على المحتاجين و الفقراء كالذي صدر من الشافعي . و كان هذا مما يسر

السلطان و يعجبه ؛ بما استحلال الفقيه لقبول الهبات من السلطان يعني استطابه لها و إشارة لحليتها ، و من ثمة مباركة لمسلكيته ضمنيا ، إن العطاء و الأخذ حالة استلاب تحدث للآخذ

لكن توقف هذا الفريق عند حالة الود و المجاملة دون ا لدخول الانخراط التام في جهـاز الدولة و العمل لها ؛ بحكم صعوبة الاحتفاظ بمقتضيات الشريعة في واقع لا يخلو من فسـاد وانحراف و فتن هم في غنى عنها .

أما الفريق الآخر الذي استحق نعت **المخاللة** ؛ فهي الفئة من الفقهاء التي التزمت القطـب العملي المصلحي ، و ليس غريبا أن يكون أهل الرأي في البداية هم أكثر مـن قـام بهـذه المبادرة لأن الرأي يقول بعدم منطقية تجنب الفقيه التعامل مع دولة هو من يمنحها الشـرعية ، و مضى هذا الفريق على هذا النهـج محققـا المضمون الذي أشار إليه معاوية في خطابه لأهل المديـنة : " المؤاكلة الحسنة و المشاربة الجميلة " . إضافة إلى الخدمات التي يقدمونها للمجتمع المسلم الذي تحكمه بالضرورة قواعد و أحكام الشريعة .

و هنا في هذا الصدد علينا الإقرار بحقيقة تعضدها الأخبار و الروايات ؛ مفادها أنه رغم رضا هذا الفريق بالانخراط الكلي في العمل للدولة و مصافاتها الود و الانتفاع بخيرات مـا يجبيه الحكم ،؛ إلا أن بذرة قلق و شك و توجس ظلت تعتمل في بواطن بعضهم ؛ شيء مـن تبكيت الضمير و عدم الرضا عن النفس و التي علتها الالتقاء و الاحتكاك اليومي المباشر مع بقوى الفساد داخل السلطة أو خارجها ، و الضغط الذي تمارسه القوة أحيانا في سياق النزاع على الأملاك والأرزاق و الثروات ، و محاولات بعض الخلفاء و المتنفذين الضـغط علـى بعض من هؤلاء الفقهاء لاستصدار فتاوى و أقضية غير شرعية . و أمر آخر مهم ؛ و هـو ضغط الثقافة التي تلقاها جميع هؤلاء في ذلك العصر ؛ و هي ثقـــافة حافلة بمعاني الزهد و الورع و الصبر و التوقي من فتنة الدنيا و التي يقول "إن على أبواب السلاطين فتـــنا كمبارك الإبل" و حافلة كذلك بنماذج كثيرة من الأيمة الذين قاوموا شهوة الرياسة وما يتيحه الاقتراب من أبواب السلطان ، و استحقوا بذلك كل نعوت التبجيل و التكريم ، و ليست نهاية أبي حنيفة مسموما في أحد سجون بغداد ــ إذا صحت الرواية ــ ببعيدة عن ذاكرة تلميذه أبي يوسف قاضي القضاة .

لكن كما قال شريك بن عبد الله في أحد حواراته مع سفيان الثوري : لا بـد للنـاس مـن قاضي فما دامت الأمة مسلمة فلا بد من القضاء و ما تابعه ، و لا بد للقضاء من قاضي يليه

، و لا بد للدولة أن تجد هذا القاضي و توظفه و ترتب له ما يكفيه لمعيشته ، بكل ما في هذه الوضعية من معنى التوظيف و الخدمة و الامتهان . لقد حدث أن اشتغل بعض الفقهـــاء فـــي القضاء من دون أن يأخذوا أجرا ، أو دون استعمال هذا الأجر في أغراضهم الشخصية ، و كان هذا السلوك علامة على حد ما من المقاومة ؛ مقاومة الاستلاب و التوظيـــف بحســـبان مهمتهم التوقيع عن رب العالمين، و الوكالة و النيابة عن صاحب الشريعة في الأمة ، لكن لم يكن كلهم كذلك .

لقد الفقهاء في هذا العصر الذي ندرسه هم لسان الدين ؛ سواء داخـــل الدولـــة و الممثـــل بجهاز القضاء أو خارجها ؛ في أوساط المجتمع و بين الناس ، و كان كل من المجـــاملين و المخاللين و المفاصلين يملكون قوة تمثيل الدين و الخطاب باسمه ، و إدارة الشـــؤون العامـــة و الخاصة بمقتضى توجيهاته ، الأمر الذي ينحسر في القرون اللاحقة ؛ حيث يتقهقر الـــدور الريادي للفقهاء إلى مجرد موظفين للدولة ممن استحب الاقتراب منها.

فهــارس البحث

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة		الآيات
112	الآية 46 ـ سورة الرحمن	ولمن خاف مقام ربه جنتان
40	الآية 122- سورة التوبة	فلولا نفر من كل فرقة
98	الآية 5 ـ سورة طه	الرحمن على العرش استوى
53	الآية 166 ـ سورة البقرة	و تقطعت بهم الأسباب

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الحديث
29	من سن سنة حسنة
40	من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين

فهرس الشعر

الصفحة	البحر	الأبيات
132	البحر البسيط	الأمر يا عمرو بالمعروف نافلة...........
6	البحر الكامل	أنى يكون و ليس ذاك بكائن..............
98	البحر الوافر	فان كان الذي قد قلت حقا...............
	البحر البسيط	الله يدفع بالسلطان معضلة ....

نام القضاة عن الأنام........................	البحر البسيط	72
تحرز سفيان و فر بدينه...................	البحر الطويل	98
		114

فهرس الأعـــلام

الحرف

أ

إبراهيم الحربي : ص :55

إبراهيم بن المهدي : ص : 14

إبراهيم بن الوليد : ص :114

إبراهيم بن موسى : ص : 23

إبراهيم النخعي : ص : 42

ابن أبي ذئب : ص : 7 ، 53

ابن أبي ليلى : 131، 132 ، 152

ابن إدريس : ص : 117، 140

ابن جريج : ص : 116

ابن خلكان : ص : 64

ابن كثير : ص : 70 ، 67

ابن الكلبي : ص : 78

ابن المبارك : ص : 53 ، 71 ، 72 ، 107، 116 ، 139 ، 151 ، 161

ابن المقفع : ص : 8، 154

ابن السماك : ص : 92، 94، 95 ، 150

ابن سيرين : 139

ابن شهاب الزهري : 45، 48، 105 ، 106 ، 115 ، 116

ابن خلدون : ص : 26 ، 28

ابن سعد : ص : 108

أبو أمية : ص : 146

أبو إسحاق الفزاري : ص : 63 ، 117

أبو البختري : ص : 136

أبو حنيفة : ص : 7، 42 ، 54، 55، 56 ، 58 ، 59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 63 ، 64 ، 87، 120 ، 122 ، 124، 133، 148 ، 150 ، 152 ، 153

أبو دلف : ص : 162

أبو زرعة : ص : 69 ، 70

أبو معاوية الضرير : ص : 95

أبو مسلم الخراساني: 3 ، 5 ، 8 ، 20 ، 23 ، 25 ، 60

أبو نواس : ص : 28

أبو العباس السفاح : ص : 5، 26

أبو عبيد القاسم بن سلام : ص :89 ، 156 ، 158 ، 159 ، 162

أبو العتاهية : ص :26

أبو سلمة الخلال : ص : 4 ، 5 ، 7

أبو يعقوب البويطي : ص : 124

أبو يوسف القاضي : 42، 101، 117 ، 127 ، 136 ، 137 ، 147 ، 148 ، 149 ، 150 ، 151 ، 153 ، 154 ، 155 ، 156 ، 157 ، 159

أحمد بن حنبل : ص : 16 ، 52 ، 69 ،75 ، 77 ، 78 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 84 ، 85 ، 86 ، 88 ، 89 ، 110 ، 118، 123 ، 125 ، 156 ، 158 ، 161 ، 162 ، 163

أحمد بن نصر الخزاعي : ص : 56

الأمين : ص : 11، 14 ، 15 ، 78 ، 80 ، 86

الأوزاعي : ص : 7 ، 59 ، 66 ، 67 ، 68 ، 69 ، 70 ، 71 ، 72 ، 73، 110

الأعمش : 116 ، 146

أشهب : ص : 109

ب

بشر بن الوليد : ص : 135 ، 149

بهز بن أسد : ص : 76

ج

الجصاص : ص : 59

جعفر البرمكي : ص :27 ، 28

د

داود بن علي : ص : 5

داود الطائي : ص : 154

هـ

الهادي : 9 ، 10 ، 12 ، 21 ، 79 ، 114 ، 152

هرثمة بن أعين :159

هشام بن عبد الملك : 61 ، 62 ، 114

و

الواثق : 18 ، 77 ، 86 ، 87 ، 135 ، 159 ، 160

الوليد بن عبد الملك : 67 ، 114

ز

زفر بن الهذيل : ص : 153

زيد بن علي : ص : 61

ح

حماد بن زيد : ص : 115

حماد بن سليمان : ص : 42 ، 62

حماد بن سلمة : 53

حمزة أذرك : ص : 24

الحصين الخارجي : ص : 24

الحسن البصري : ص : 114 ، 126

الحسن بن علي : ص : 21 ، 26

ي

يحيى بن أكثم : 82

يحيى بن معين : 114 ، 149 ، 157

يحيى بن عبد الله : 21 ، 22

يزيد بن هارون : 82 ، 151

يزيد بن الوليد : 114

اليعقوبي : 27

ل

الليث بن سعد : ص : 46، 92، 105 ، 106 ، 107 ، 108 ، 109 ، 110 ، 111 ، 112 ، 114

م

مالك بن أنس : 3 ،8 ، 44 ، 46، 64 ، 92 ، 93 ، 95 ، 96 ، 97 ، 98، 99 100 ، 101 ، 102 ، 103 ، 104 ، 105 ، 106 ، 107 ، 108 ، 110 ، 116 ، 121 ، 124

المأمون : ص : 11 ،12 ، 14 ، 15 ، 16 ، 17 18 ، 23 ، 77 ، 78 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 84 ، 86 ، 87 ، 134 ، 158 ، 159 ، 160

المتوكل : ص : 18 ، 19 ، 23 ، 77 ، 79 ، 86 ، 87 ، 88 ، 135

محمد بن إسحاق : ص : 116

محمد بن إبراهيم : ص : 23

محمد بن الحسن : 42 ، 46 ، 58 ، 122 ، 125 ، 149

محمد بن علي : ص : 2 ، 3

محمد بن القاسم : ص : 23

محمد بن سليمان : ص : 27

مروان بن محمد : 4، 67 ، 110 ، 124

المعتصم : 17 ، 18 ، 23 ، 77 ، 78 ، 84 ، 85 ، 86 ، 87 ، 135 ، 158 ، 159 ، 160 ،

المقنع : ص : 9

المسعودي : ص : 4 ، 13 ، 22 ، 27 ، 82

س

سليمان بن عبد الملك : 2 ، 67 ، 117

سعيد بن المسيب : 45

سفيان الثوري : 50 ، 51 ، 53 ، 116 ، 117 ، 127 ، 144 ، 161

سفيان بن عيينة : 53 ، 92 ، 103 ، 114 ، 115 ، 116 ، 117 ، 118 ، 140

ع

عائشة : 45

عبد الرحمن بن إسحاق : ص : 88

عبد الرزاق الصنعاني : ص : 80

عبد الله بن الحسن : 4 ، 5 ، 21 ، 99

عبد الله بن مسعود : 42

عبد الله بن عباس : 45

عبد الله بن علي : 73

عبد الله بن عمر: 34 ، 45 ، 98 ، 105

عبد الله بن عمرو : 34

عبد الملك بن مروان : 67

عبد السلام اليشكري : 9

عثمان بن عفان : 11 ، 19 ، 36 ، 41 ، 78 ، 98 ، 110 ، 140 ، 160

عروة بن الزبير: 45

علي : 4 ، 30 ، 31 ، 32 ، 33 ، 34 ، 43 ، 45 ، 83 ، 140 ، 141 ، 146

علي بن موسى الرضا : 14

علي بن عيسى : 23 ، 24 ، 25 ، 28

عمر: 30 ، 41 ، 42 ، 45 ، 98 ، 140 ، 160

عمر بن عبد العزيز: 99

عمرو بن دينار: 7 ، 115 ، 116

عمرو بن العاص : 124

عمرو بن عبيد : 7 ، 132

ف

الفضل بن يحيى : 22

الفضيل بن عياض : 78 ، 116 ، 117 ، 119 ، 126 ، 161

ق

قتادة : 116

ر

رافع بن نصر : 25

ش

الشافعي : 46 ، 78 ، 79 ، 120 ، 121 ، 122 ، 123 ، 124 ، 125 ، 126 ، 127 ، 128

شريك بن عبد الله : 52 ، 103 ، 116 ، 134 ، 138 ، 139 ، 140 ، 141 ، 142 ، 143 ، 144 ، 145 ، 146 ، 147 ،

شعبة بن الحجاج :94 ، 115

الشعبي :55 ، 147 ، 159

ث

ثروان : ص : 25

خ

خالد الدريوش : ص : 16

ذ

الذهبي : ص : 55 ، 56، 66، 114 ، 131 ، 135

ذو النفس الزكية : ص : 6 ، 7 ، 21، 62 ، 63 ، 64

فهرس الأماكن

أ

أرمينية : 20

أصفهان : 25

ب

بغداد : 11 ، 14 ، 15 ، 16 ، 18 ، 19 ، 22 ، 25 ، 27 ، 43 ، 63 ، 75 ، 76 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 84 ، 86 ، 122 ، 123

بوشنج : 24

بعلبك : 66 ، 70

البصرة : 8 ، 21 ، 27 ، 63 ، 76 ، 94 ، 156 ، 159

ج

الجزيرة : 25 ، 30 ، 62 ، 76 ، 93

جرجان : 9 ، 22 ، 24

د

دمشق : 19 ، 36 ، 44 ، 66 ، 133

ح

الحجاز: 26 ، 45 ، 46 ، 53 ، 63 ، 97 ، 101 ، 105 ، 106 ، 116 ، 127

الحميمة : 2 ، 4

الحربية : 15 ، 16 ، 17

حمص : 20

ط

طرسوس : 84 ، 157

طبرستان : 22 ، 63

الديلم : 22

ك

الكناسة : 64

الكوفة : 3 ، 5 ، 8 ، 21 ، 42 ، 44 ، 45 ، 51 ، 54 ، 61 ، 62 ، 63 ، 64 ، 76 ، 114 ، 131 ، 132 ، 134 ، 135 ، 138 ، 140 ، 142 ، 143 ، 146 ، 148 ، 156

الكرخ : 15

م

المدينة : 25 ، 63 ، 64 ، 68 ، 76 ، 80 ، 93 ، 95 ، 97 ، 98 ، 99 ، 101 ، 102 ، 103 ، 104 ، 105 ، 106 ، 107 ، 121 ، 154

مكة : 21 ، 26 ، 44 ، 46 ، 51 ، 52 ، 68 ، 76 ، 101 ، 103 ، 106 ، 114 ، 122 ، 126

الموصل : 20 ، 25

مصر: 8 ، 20 ، 25 ، 31 ، 43 ، 44 ، 45 ، 45 ، 54 ، 92 ، 105 ، 106 ، 107 ، 111 ، 112 ، 113 ، 120 ، 142 ، 147 ، 157

المتوكلية : 19

ن

نجران : 121

ع

العراق : 3 ، 5 ، 25 ، 42 ، 46 ، 83 ، 156 ، 158

ر

الرقة : 20 ، 72 ، 83 ، 156

الري : 63

خ

خراسان : 3 ، 4 ، 5 ، 8 ، 9 ، 16 ، 20 ، 21 ، 22 ، 23 ، 26 ، 60 ، 62 ، 138 ، 156 ، 156 ، 157 ، 161

غ

غزة : 120 ، 127

فهرس المذاهب و الفرق

ا

الأشعرية ـ الأشاعرة : 84

الإباضية : 36

أهل الحديث : 36 ، 106 ، 150

أهل السنة : 7 ، 12 ، 14 ، 19 ، 29 ، 35 ، 37 ، 38 ، 39 ، 45 ، 46 ن 71 ، 77 ، 81 ، 84 ، 87 ، 88 ، 97 ، 98 ، 106 ، 118 ، 124 ، 132 ، 139 ، 156 ، 158 ، 159 ، 160

أهل الرأي : 41 ، 42 ، 44 ، 45 ، 46 ، 49 ، 81 ، 100 ، 104 ، 106 ، 114 ، 122 ، 123 ، 124

ب

الباطنية : 23 ، 24 ، 26

ج

الجهمية : 76 ، 87

الجبرية : 38

ز

الزندقة ـ الزنادقة : 9 ، 12 ، 22

الزيدية : 36

ح

الحشوية : 12

الحنابلة : 84

م

المعتزلة : 7 ، 12 ، 36 ، 38 ، 76 ، 84 ، 87

ق

القدرية : 35 ، 38

ش

الشيعة : 1 ، 76 ، 84 ، 91 ، 140

خ

الخرمية : 25

الخوارج : 1 ، 19 ، 23 ، 24 ، 32 ، 36 ، 38 ، 43 ، 76 ، 91

قائمة المصادر :

ــ القرآن الكريم برواية ورش

ــ أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري : **المصون في الأدب** ، تــ عبد السلام هارون ، ط 2 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،سنة 1982

ــ أبو إسحاق الشيرازي : **طبقات الفقهاء** ، تــ إحسان عباس ، ط 2 ، دار الرائد العربي ، بيروت ، سنة 1981

ــ أبو بكر الخطيب البغدادي : **الكفاية في علم الرواية** ، تــ إبراهيم حمدي و آخرون ، د ط ، المكتبة العامة ، المدينة المنورة د ت

: **صحيح الفقيه و المتفقه** ، تعليق عادل العزازي ، ط 1 ، دار الوطن ، الرياض ، سنة 1997

: **تاريخ بغداد** ، د ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت ج 14 ، 333

ــ أبو بكر الخلال : **السنة** ، تــ عطية الزهراني ، ط 1 ، دار الراية ، الرياض ، سنة 1410هــ

: **كتاب الورع** ، ت محمد السيد زغلول ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1988

ــ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : **كتاب الزهد الكبير** ، تــ عامر حيدر ، ط 3 ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، سنة 1996

: **شعب الإيمان** ، تــ محمد زغلول ، ط 1 ، سنة 1410 هــ ، دار الكتب العلمية ، بيروت

: **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث** ، تــ أحمد عصام الكاتب دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة 1401 هــ

: **مناقب الشافعي** ، ت السيد أحمد صقر ، ط 1 ، ج 2 ، مكتبة دار التراث ، سنة 1970

ــ أبو بكر بن العربي : **العواصم من القواصم** ، تــ عمار طالبي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر دت

ــ أبو جعفر أحمد الطحاوي : **العقيدة الطحاوية** ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993 ، ص ص

ــ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني : **ســـنن أبي داود** ، تـــ محمد محي الدين عبد الحميد ، د ط ، ج 4 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د ت

ــ أبو حامد محمد الغزالي : **إحياء علوم الدين** ، ط 1 ، ج 1 ، دار القلم ، بيروت ، د ت

: **قواعد العقائد** ، ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993 ، ص : 21

ــ أبو حنيفة الدينوري : **الأخبار الطوال** ، ت عبد المنعم عامر و آخرون ، د ط ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د ت

ــ أبو الحسن الأشعري : **الإبانة عن أصول الديانة** : د ط ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، دت

ــ أبو الحسن البلاذري : **فـــتوح البلدان** ، تـــ رضوان محمد رضـــوان ، دط ، دار الكتـــب العلميـــة ، بيروت ، سنة 1778

ــ أبو الحسن الماوردي : **أدب الدين و الدنيا** ، ت محمد كريم راجح ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986

: **الأحكام السلطانية و الولايات الدينية** ، تـــ خالد السبع ، ط 3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1999

ــ أبو الحسن علي بن محمد ، بن الأثير: **الكامل في التاريخ** ، ط 4 ، ج 5 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1983

ــ أبو الحسين بن علي المسعوديّ : **مروج الذهب و معادن الجوهر** ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائـــر ، سنة 1989

ــ أبو حفص عمر بن محمد النسفي : **العقائد النسفية** ، ، ط 1 ، دار البشائر الإســـلامية ، بـــــيروت ، 1993

ــ أبو سعد منصور بن الحسين الأبي : **نـــثر الدر** ، تـــ عثمان بوغانمي ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، سنة 1983

ــ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي : **سير أعلام النبلاء** ، ت شعيب الأرنـــاؤوط و آخـــرون ، ط 9 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة 1413

: **ميزان الإعتدال في نقد الرجال** ، تـــ علي معوض و آخرون ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1995

ـــ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : **صحيح البخاري** ، تـــ قاسم الشـــماعي ، ط 1 ، ج 3 ، دار القلم ، بيروت ، سنة 1987

: **التاريخ الكبير** ، تـــ السيد هاشم الندوي ، د ط ، دار الفكر ، بيروت ، د ت

ـــ أبو عبد الله محمد الحكيم الترمذي : **نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول** ، د ط ، دار صـــادر، بيروت ، د ت

ـــ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي : **خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** ، ط 2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1996

ـــ أبو عمر يوسف بن عبد البر : **جامع بيان العلم و فضله و ما ينبغي في روايته و حمله** ، د ط ، ج 1 ، دار الكتب العلمية بيروت ، د ت

ـــ أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي : **معجم البلدان** ، د ط ج 3 ، دار الفكـــر ، بيـــروت ، د ت ، ص: 174

ـــ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : **المحاسن و الأضداد** ، ط 1 ، دار الجيل ، بيروت ، سنة 1997

ـــ أبو محمد حسن بن علي البر بهاري : **شرح السنـــة** ، د ط ، دار الإمام مالك ، الجزائر ، سنة 2003

ـــ أبو محمد عبد القادر القرشي : **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ، د ط ، مير محمد كتب خانـــة ، كاراتشي ، د ت

ـــ أبو محمد عبد الله بن الحكم : **عمر بن عبد العزيز** ، د ط ، تـــ أحمد عبيد ، دار الهدى ، مليلة ، سنة 1996

ـــ أبو محمد علي بن حزم : **الفصل في الملل والأهواء و النحل** ، د ط ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د ت

ـــ أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ، ط 4 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1405 هـــ

ـــ أبو نصر عبد الوهاب السبكي : **طبقات الشافعية الكبرى**

ـــ أبو العباس أحمد بن تيمية : **الخلافة و الملك** ، تـــ حماد سلامة ، د ط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، د ت ،

: **منهاج السنة النبوية** ، تـــ محمد رشاد سالم ، ط 1 ، مؤسسة قرطبة ، بيروت ، ج 2 ، سنة 1406 هــ ، ص : 221

ـــ أبو الفداء بن كثير الدمشقي : **البداية و النهاية** ، تـــ علي معوض و آخرون ، ط 2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1997

ـــ أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم: **الفهرست** ، د ط ، دار المعرفة ، بيروت ، سنة 1978

ـــ أبو الفرج عبد الحمن بن الجوزي : **صفة الصفوة** ، تحقيق: عبد السلام هـــارون ، ط 3 ، ج1 ، دار الفكر، بيروت 1419 هــ 1998

: **مناقب الإمام أحمد بن حنبل** ، ط2 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة 1977

ـــ أبو الفضل عياض بن موسى : **ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب كمالـــك** ، ات أحمد بكير محمود ، د ط ، م 1 ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د ت

ـــ أبو القاسم جار الله الزمخشري : **أســـاس البلاغة** ، د ط ، دار الفكر للطباع و النشر ، بيروت ، سنة 2000

ـــ أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحبيب : **عقلاء المجانين** ، تـــ عمر الأسعد ،ط1 ، دار النفائس ، بيروت ، 1987

ـــ ابن أبي زيد القيرواني : **العقيدة الإسلامية التي ينشأ عليها الصغار** ، تـــ عبد الفاتح أبو غدة ، ط 3 ، دار السلام ، مصر سنة 2001

ـــ ابن رجب الحنبلي : **ورثة الأنبـــياء** ، تـــ أشرف بن عبد المقصود ، دط ، دار الشهاب ، الجزائر ، د ت

ـــ ابن عاصم الغرناطي : **حدائق الأزاهر** ، تـــ عبد اللطيف عبد الحلـــيم ، د ط ، المكتبـــة العصـــرية ، بيروت ، سنة1992 م

ـــ ابن خلكان : **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان** ، ت احسان عبـــاس ، دط ، ج 4 ، دار صـــادر ، بيروت ، سنة 1971

ـــ ابن العبري غريغوريوس الملطي : **مختصر تاريخ الدول** ، د ط ،المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، سنة 1958

ـــ ابن عبد ربه : **العقد الفريد** ، تـــ أحمد أمين و آخرون ، ج 4 ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة 1962

ـ إبراهيم بن محمد البيهقي : **المحاسن و المساوىء** ، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ط ، مكتبة نهضة مصر القاهرة

ـ أحمد بن عبد الله العجلي الكوفي : **معرفة الثقات** ، تـ عبد العليم البستوي ، ط 1 ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، سنة 1985 ـ 1405

ـ أحمد بن يحيى المرتضى : **المنية و الأمل في شرح كتاب الملل والنحل** ، تـ توما أرنولد ، د ط ، دار صادر بيروت ، سنة 1316 هـ

ـ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي : **تاريخ اليعقوبي** ، د ط ، ج 2 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1960

برهان الدين بن فرحون : **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب** ، د ط ، دار المكتبة العلمية ، بيروت ، د ت

ـ جمال الدين بن نباتة المصري : **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون** ، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ط ، دار الفكر العربي ، د مكان النشر ، د ت،

ـ جلال الدين السيوطي : **تاريخ الخلفاء** ، تـ محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ، مطبعة الفجالة الجديدة ، مصر ، سنة 1969

: **المستظرف من أخبار الجواري** ، د ط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، سنة 1991

: **مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة** ، ط 2 ، مطابع الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، سنة 1408هـ

: **طبقات الحفاظ** ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1983

ـ زكريا بن محمد القزويني : **آثار البلاد و أخبار العباد** ، د ط ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، سنة 1979

ـ ولي الله الدهلوي : **الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف** ، تـ عبد الفتاح أبو غدة ، ط 8 ، دار النفائس ، بيروت ، سنة 1977

ـ حافظ الدين الكردي : **مناقب أبي حنيفة** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1401

ـ محي الدين بن عربي : **محاضرة البرار و مسامرة الأخيار**، د ط ، دار الصادر ، بيروت ، د تـ ، ج 1 ،

ـ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية : **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة الجهمية** ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1984

ـــ محمد بن إسحاق الحاكم : **شعار أصحاب الحديث** ، تـــ صبحي السامرائي ، دار الخلفاء الكويت ، ج: 1

ـــ محمد بن جرير الطبري : **تاريخ الأمم و الملوك** ، د ط ، ج 9 ، ، دار القاموس الحديث ، بيروت ، د ت

ـــ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : **الملل والنحل** ، تـــ محمد سيد كيلاني ، د ط ، ج 1 ، دار المعرفة ، بيروت ، سنة 1982

ـــ محمد بن خلف وكيع : **أخبار القضاة** ، د ط ، ج 3 ، عالم الكتب ، بيروت ، د ت

ـــ مسلم بن الحجاج النيسابوري : **صحيح مسلم** ، ت محمد فؤاد عبــد البـــاقي ، دط، ج 4 ، دار احيـــاء التراث العربي ، بيروت ، د ت

ـــ سهل بن هارون : **كتاب النمر و الثعلب** ، تـــ عبد القـــادر المهيـــري ، د ط ، منشـــورا ت الجامعـــة التونسية ، تونس ، سنة 197

ـــ عبد الحي بن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، د ط ، ج1 ، المكتب التجاري للطباعة و النشر ، بيروت د ت

ـــ عبد الوهاب الشعراني : **الطبقات الكبرى** ، ط 1 ، ج 1 ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر، سنة 1954

ـــ عبد الله بن أحمد : **الســـــنة** ، تـــ محمد سعيد القحطاني ، ط 1 ، دار ابن القـــيم ، الـــدمام ، ســـنة 1406هــ

ـــ عبد الله بن مسلم بن قتيبة : **الإمامة و السياسة** ، د ط ، تـــ طه محمد الزيني ، دار المعرفة ، بيروت ،د ت

ـــ عبد القادر الجيلاني : **الغنية لطالبي طريق الحق** ، تـــ عبد الكريم العجـــم ، ط 1 ، م 1 ، ج 1 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1996

ـ عبد القـــاهر البغدادي : **كتـــاب الملل و النحل** ، تـــ ألبير نصري نادر ، ط 2 ، دار المشرق ، بيروت ،د ت

ـــ عبد الرحمن بن خلدون : **العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربـــر و مـــن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، د ط ، م 3 ، ج 5 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1981

: **المقدمـــة** ، ط 1 ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بيروت ، سنة 2004

ـــ الراغب الأصفهاني : **محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء البلغـــاء** ، ط 2 ، دار الجيل ، بيروت ، سنة 1986

ـــ قائمة المراجع :

ـــ أبو اليزيد أبو زيد العجمي : **الفقهاء و بحوث العقيدة الإسلامية** ، د ط ، دار الهداية ، القاهرة ، د ت

ـــ أبو ريان محمد علي: **تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام** ، ط 2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة 1976

ـــ أبو غدة عبد الفتاح: **صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم و التحصيل** ، ط3 ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، بيروت ، سنة1997

ـــ إبراهيم بيضون : **تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول** من دولة عمر إلى دولة عبد الملك ، ط 2 دارا قرأ ، بيروت ، سنة 1986

ـــ ابراهيم رحماني : **محاضرات في المدخل للتشريع الإسلامي** ، ط 1 ، شركة مزوار الوادي ـــ الجزائر ، سنة 2005

ـــ أحمد أمين : **ضحى الإسلام** ، ط 10 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،ج 1 ، د ت

ـــ أحمد محمد الحوفي : **تيارات ثقافية بين العرب و الفرس** ، د ط ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د ت

ـــ أحمد مختار العبادي : **في التاريخ العباسي و الأندلسي** ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د ت

ـــ أحمد الشرباصي : **الأئمة الأربعة** ، د ط ، دار الجيل ، بيروت ، د ت

إحسان عباس : **ديوان شعر الخوارج** ، ط 4 ، دار الشروق ، بيروت ، سنة 1982

ـــ أحمد عبد الرزاق أحمد : **الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى** ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة 1999

ــ إسماعيل العربي : **دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية و الفلكية** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1994

ــ برنارد لويس : **أصول الإسماعيلية و الفاطمية و القرمطية** ، ط 1 ، دار الحداثة ، بيروت ، سنة 1980

ــ بشار قويدر : **الإصلاح السياسي و الاجتماعي للدولة الإسلامية ــ من خلال رسالة** الصحابة لابن المقفع ، د ط ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1990

ــ جبر محمود الفضيلات : **القضاء في صدر الإسلام** ، د ط شركة الشهاب ، الجزائر ، سنة 1987

ــ جورج طرابيشي : **إشكاليات العقل العربي** ، ط 2 ، دار الساقي ، بيروت ، سنة 2002

ــ دانيال دينيت : **الجزية في الإسلام** ، تــ فوزي جاد الله ، د ط ، منشورات مكتبة الحياة ، د ت

ــ دوروتيا كرافولسكي :**العرب و إيران** ، ط 1 ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، سنة 1993

ــ دي بور: **تاريخ الفلسفة في الإسلام** ، تــ محمد عبد الهادي أبو ريدة ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، د ت

ــ ديلاسي أوليري : **الفكر العربي و مكانته في التاريخ** ، تــ تمام حسان ، د ط ، عالم الكتب ، القاهرة ، د ت

ــ الهادي حمودة : **الشعر الأموي في خراسان و البلاد الإيرانية** ، د ط ، الدار التونسية للشر ، تونس ، سنة 1976

ــ وهبي سليمان الألباني : **منن الرحمن على التابعي أبي حنيفة النعمان** ، ط1 ، مكتبة الإمام أبي حنيفة ، بيروت ، سنة 1994

ــ زاهية قدورة : **الشعوبية وأثرها الاجتماعي و السياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول** ، ط 1 دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1972

ــ حامد حفني داود : **تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول** ، ط 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر سنة 1993

ـــ حسين أحمد أمين : **دليل المسلم الحزين** ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر ، د ت
ـــ حسن إبراهيم حسن : **تاريخ الإسلام السياسي والديني و الثقافي والاجتماعي** ، ط 14 ، ج 2 دار الجيل ، بيروت سنة 1996
ـــ حسن أحمد محمود و آخرون : **العالم الإسلامي في العصر العباسي** ، د ط ، دار الفكـــر العربي ، القاهرة ، د ت

ـــ حسني محمد غيطاس : **الدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه** ، ط 1 ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة 1985

ـــ طه جابر فياض العلواني : **أدب الاختلاف في الإسلام** : د ط ، دار الشهاب ، باتنة ، سنة 1985 :
ـــ طه ندا : **فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية** ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، سنة 1996

ـــ ي . هل : **الحضـــارة العربية** ، تـــ إبراهيم العدوي ، د ط ، مكتبة الأنجلـــو مصـــرية ، مصر ، د ت
ـــ يوسف العش : **محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية** ، د ط ، مطبعة فتـــى العـــرب ، دمشق ، سنة 1977
ـــ يوسف فرحات : **الفلسفة الإسلامية و أعلامها** ، ط 1 ، الشركة الشرقية للمطبوعات ، د كان النشر ، سنة 1986
ـــ يحي محمد بكوش : **فقه الإمام جابر بن زيد** ، ط 2 ، ج 1 ، دون ذكر دار النشر، سنة 1988

ـــ محمد إبراهيم الفيومي : **الفرق الإسلامية و حق الأمة السياسي** ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت ، سنة 1998

ـــ محمد أمين غالب الطويل : **تاريخ العلـــويين** ، ط 4 ، دار النفـــائس ، بيـــروت ، ســـنة 1981

ـــ محمد أركون : **تاريخية الفكر العربي الإسلامي** ، تـــ هاشـــم صـــالح ، ط 3 ، لمركـــز الثقافي العربي ، المغرب ، سنة 1998

: **الفكر الإسلامي نقد و اجتهاد** ، تـــ هاشم صالح ، ط 3 ، دار الســـاقي ، المغرب ، سنة 1998

ـــ محمد جمال الدين سرور : **الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القـــرنين الأول و الثاني بعد الهجرة** ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، مصر ، سنة 1966

ـــ محمد بن زاهد الكوثري : **تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمـــة أبـــي حنيفـــة مـــن الأكاذيب** ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1981

ـــ محمد ماهر حمادة :**الوثائق السياسية و الإدارية العائدة للعصر العباسي الأول** ، ط 4 ،مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة 1985

ـــ محمد بن محمد مخلوف : **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د ت

ـــ محمد مصطفى شلبي : **أصول الفقه الإسلامي** ، ط 2 ، دار النهضة العربية ، بيـــروت ، سنة 1978 ،

ـــ محمد نصر مهنا : **الفتوحات الإسلامية و العلاقات السياســـية فـــي آســـيا** ، د ط ، دار المعارف ، الإسكندرية ، سنة 1990 ،

ـــ محمد عابد الجابري : **المثقفون في الحضارة العربية** ، ط 2 ، مركز دراســـات الوحـــدة العربية ، بيروت ، 2000

: **تكوين العقل العربي** ، ط 2 ، دار الطليعة بيروت ، سنة 1985

: **العقل السياسي العربي ؛ محدداته و تجلياته** ، ط 6 ، دار النشر المغربية ، المغرب ، 2003

ـــ محمد عبد الحي محمد شعبان : **صدر الإسلام و الدولة الأموية** ، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت ، سنة 1983

ـ محمد عبد الغني حسن : **دراسات في الأدب العربي و التاريخ** ، د ط ، الـدار القوميـة للطباعة و النشر ، القاهرة ، د ت

ـ محمد بن علوي بن عباس : **مالك بن أنس** ، د ط ، مطـابع الأزهـر ، مصـر ، سـنة 1981

ـ محمد علي قطب : **الأئمة الأربعة** ، د ط ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، د ت

ـ محمود إسماعيل : **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي** ، ط 3 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، سنة 1988

ـ محمود شاكر : **التـاريخ الإسلامي** ، ط 2 ، ج 5 ، الكتب الإسلامية ، بيـروت ، سـنة 1985

ـ مصطفى بيطام : **مظاهر المجتمع و ملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسـي الأول** ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1995

مصطفى الشكعة : **الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان** ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة 1983

ـ مصطفى الشكعة : **الإمام مالك بن أنس** ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيـروت ، سـنة 1983

ـ مروان الشعار : **الأوزاعي إمام السلف** ، ط 1 ، دار النفائس ، بيروت ، سنة 1992

ـ نبيلة حسن محمد : **في تاريخ الدولة العباسية** ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، مصـر ، سنة 1997

ـ سـالم البهنساوي : **الخلافة و الخلفاء الراشدون بين الشورى و الديمقراطيـة** ، ط 1 ، الزهراء للإعلام العربي ، القـاهرة ، سنة 1991 ،

ـ عاطف شكري : **الزندقة و الزنادقة** ، **د ط** ،دار الفكر ، الأردن ، د ت

ــ عارف عبد الغني : **نظم الاستخبارات عند العرب و المســلمين** ، ط 1 ، دار الهــدى ، الجزائر، سنة 1991

ــ عبد الوهاب خلاف : **علم أصــول الفقه** ، ط 12 ، دار القلم للطباعة و النشر ، الكويت ، سنة 1978

ــ عبد الملك علي الكليب : **صفات التابعين** ، تــ اشرف بن عبــد المقصــود ، د ط ، دار الشهــــــــاب ، الجزائر ، د ت

ــ عبد المنعم ماجد : **العصر العباسي الأول** ، د ط ، ج 1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، سنة 1973

ــ عبد الرحمن بدوي : **التراث اليوناني في الحضــارة الإســلامية** ، ط 4 ، دار القلــم ، بيروت ، سنة 1980

ــ عبد الرحمن بدوي : **من تاريخ الإلحاد في الإسلام** ، ط 2 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، 1980

ــ عبد الكريم الرديني : **مباحث في تاريخ الحديث و مصــطلحه** ، دط ، شــركة شــهاب ، الجزائر ، د

ــ عبد العزيز البدري : **الإسلام بين العلماء و الحكام** ، د ط ، دار الأمة للنشر و التوزيــع الجزائر ، د ت

ــ عبد العزيز الدوري : **الجذور التاريخية للشــعوبية** : ط 3 ، دار الطليعــة ، بيــروت ، 1981 ،

ــ عبد الرحمن الشرقاوي : **أئمة الفقه التسعة** ، ط 3 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986

: **خامس الخلفاء عر بن عبــد العزيــز** ، ط 1 ، دار الكتــاب العربي ، بيروت ، سنة 1987

ــ علي مصطفى الغرابي : **تاريخ الفرق الإسلامية** ، د ط ، مطبعة محمد علــي صــبيح ، القاهرة ، د ت

ــ عصام محمد شبارو : **السلاطين في المشرق العربــي** ، د ط ، دار الــنهض العربيــة ، بيروت ، سنة 1994

ـــ الفضل شلق : **الأمة و الدولة** ـــ جدليات الجماعة و السلطة في المجال العربي الإسلامي ـــ ، ط1 ، دار المنتخب ، بيروت سنة 1993

ـــ صالح أحمد العلي : **الإدارة في العهود الإسلامية الأولى** ، ط 1 ، شـــركة المطبوعـــات للتوزيع و النشر ، بيروت ، سنة 2001

ـــ رضوان السيد : : **الأمة و الجماعة و السلطة** ـــ دراسات في الفكر السياســي العربــي الإسلامي ـــ ، ط 2 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986

ـــ شاكر الفحام : **الفـــرزدق** ، د ط ، دار الفكر ، دمشق ، سنة 1977

ـــ غالب عبد الكافي القرشي : **أوليات الفاروق السياسية** ، ط 1 ، دار الوفـــاء للطباعـــة و النشر ، المنصورة ، سنة 1990

ـــ المجلات و الدوريات :

ـــ موسى لقبال : " **الخلافة أساس الفكر السياسي و الحزبية في المجتمع الإســلامي فـــي عصوره الأولى**" ، مجلة **الدراسات التاريخية** ، جامعة الجزائر ، العدد الرابع ، سنة 1988

ـــ محمد حسين فضل الله : " **موقع الفقيه في الدولة الإسلامية** " ، **مجلة المنطلـــق** ، الإتحاد اللبناني للطلبة المسلمين ، العدد 64 ، آذار 1990

ـــ رضوان السيد : " **السلطة و المعرفة في التاريخ العربي الإسلامي** " ، مجلة **دراســـات عربية** ، دار الطليعة ، بيروت ، العدد 11 السنة 15 ، سبتمبر 1979 ،

_ H.gibb: **government and islam under the Early Abbasids**,the poltical collapse of islam, in L'elaboration del'islam, paris:Centers detudes superiors specializes presses Universitaires de france , 1984